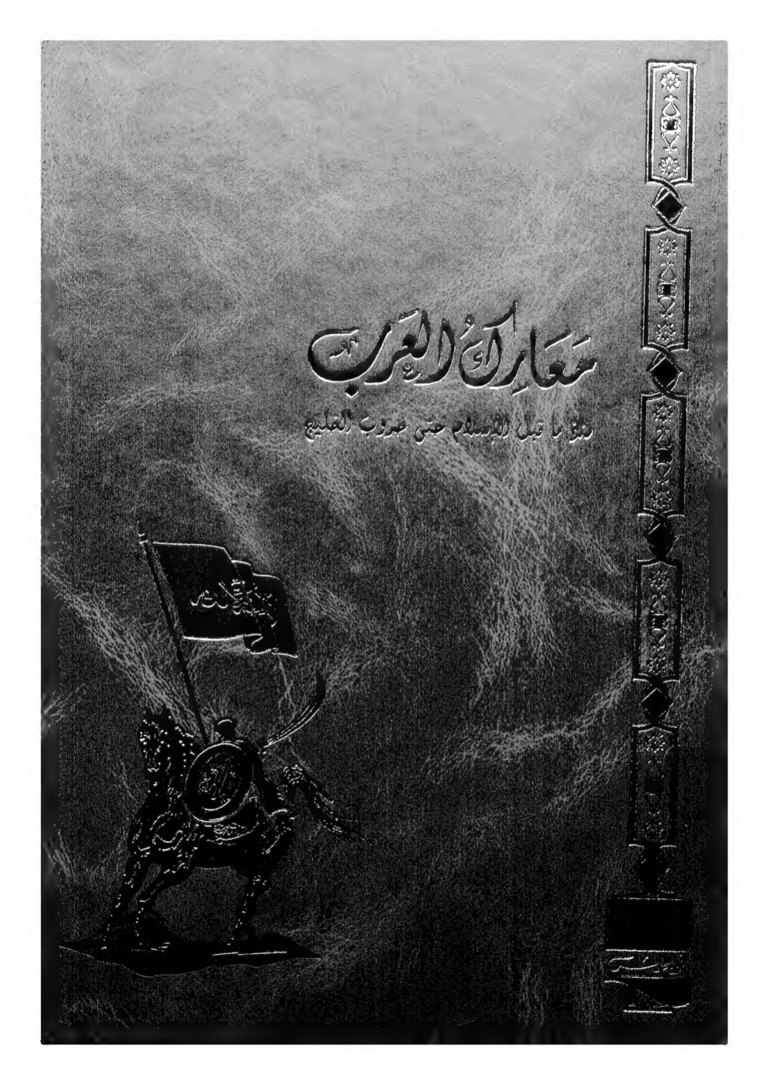

معارك العرب
منذ ما قبل الإسلام حتى حروب الخليج

معارك العرب 6

اسم الموسوعة : معارك العرب

منذ ما قبل الإسلام وحتى حروب الخليج

اسم الكتاب : الفتوحات الكبرى (3) – إكمال فتح بلاد الشام – الفتنة الكبرى

المؤلّف : العميد الركن الدكتور سامي ريحانا

قياس الكتاب : 20x28 سم

عدد الصفحات : 224

عدد صفحات الموسوعة : 5920

مكان النشر : بيروت – لبنان

دار النشر والتوزيع : دار نوبليس

تلفاكس : 75 34 58 1 961

هاتف : 21 11 58 (3) 961 - 21 11 58 (1) 961

بريد إلكتروني : NOBILIS_INTERNATIONAL@hotmail.com

الطبعة الأولى : 2007

العميد الركن سامي ريحانا

دكتور في التاريخ



منذ ما قبل الإسلام وحتى حروب الخليج

المجلّد (6)

الفتوحات الكبرى (3)

إكمال فتح بلاد الشام ـ الفتنة الكبرى

NOBILIS
2007

المقدّمة

تكلّمنا في الجزء الرابع من هذه الموسوعة عن معركة اليرموك، التي انتصر فيها المسلمون على الجيوش البيزنطية انتصاراً ساحقاً كاد يخرجهم نهائياً من بلاد الشام.

ومعركة اليرموك تعدّ من المعارك الفاصلة في التاريخ العسكري الإسلامي، ويمكن تشبيهها بالقادسية لجهة فتح بلاد الشام أمام القوات الإسلامية، فيما أن القادسية كانت مدخل هذه القوات إلى العراق، ومنها إلى فارس.

وكانت الأعمال العسكرية على جبهة الشام قد بدأت في عهد رسول الله ﷺ، ثمّ تحرّكت في عهد أبي بكر، لتستكمل فصولها في عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما). ويجمع المؤرّخون على أن أبا بكر لم يحضّر خطة مدروسة لفتح بلاد الشام والعراق، إنما كان يرسل القوة القبلية عندما كانت تصله من قلب شبه الجزيرة العربية، فيدفعها إلى بلاد الشام، تحرّكها العقيدة الدينية والرغبة في الغنائم.

فأفراد القبائل العربية كانوا يتقنون فنون القتال، وخاصة الأعمال الحربية السريعة، ويرفضون الالتزام بقواعد الزحف المنظّم. وكانت أسلحتهم خفيفة ومؤنهم قليلة للغاية. ورغم ذلك، كان على هذه القوى غير النظامية مقاتلة جيوش أعرق الأمبراطوريات في فنون القتال.

هزمت القوات العربية على جبهة الشام طلائع الجيوش البيزنطية بسرعة، ثمّ انضمّ إليها خالد بن الوليد الذي

اجتاز الصحراء ما بين العراق والشام في سرعة مدهشة حققت للمسلمين مفاجأة استراتيجية استغلّوها للانتصار في معركة اليرموك الشهيرة التي زعزعت الوجود البيزنطي في بلاد الشام وأمّنت فتحاً يسيراً، وفق البلاذري، لهذه البلاد التي سارعت مدنها وشعوبها إلى إعلان الولاء للدولة العربية الجديدة. وقسّم العرب بلاد الشام إلى خمس مناطق عسكرية دعي كلّ منها «جنداً» وهي: جند فلسطين، جند الأردن، جند دمشق، جند حلب وجند قنسرين.

إنما لا يمكن الادعاء بأن النفوذ البيزنطي قد زال كلياً عن بلاد الشام بعد معركة اليرموك، إذ بقي لدى الامبراطور هرقل حاميات موزعة في مختلف أنحاء تلك البلاد. وذلك رغم أن المسلمين عادوا، بعد معركة اليرموك، وافتتحوا دمشق والمناطق التي كانوا قد افتتحوها سابقاً ثمّ جلوا عنها لخوض المعركة الفاصلة مع الروم، وتابعوا زحفهم شمالاً حتى جبال طوروس، وفرّ هرقل نحو القسطنطينية وهو يردّد: «وداعاً يا سوريا، وداعاً لا لقاء بعده».

وإذا عدنا إلى درس خريطة الوجود العربي والبيزنطي في بلاد الشام بعد معركة اليرموك لجئنا بالحصيلة التالية:

١ - أصبح تحرّك المسلمين ما بين المدينة المنوّرة والأردن ودمشق آمناً، إذ أن هذه البقعة خلت من الوجود البيزنطي.

٢ - في فلسطين، كانت معظم المدن ما زالت تحت الإحتلال البيزنطي، وكذلك في جبل لبنان وساحله.

٣ - كانت الامبراطورية البيزنطية ما تزال ناشطة في سوريا الشمالية، إذ أن هرقل كان يجنّد الجيوش ويرسلها تباعاً لمحاربة المسلمين.

وقد ذكرنا في الجزء الخامس من هذه الموسوعة أن الخليفة طلب من الجيوش الإسلاميّة في الكوفة والبصرة دعم الجيوش الإسلاميّة في الشام، التي كانت تتعرّض لهجمات بيزنطية شرسة.

كما رأينا أنه، وبعد معركة اليرموك، قام القادة المسلمون بتطهير المناطق التي كلّفوا إزالة الوجود المعادي منها. كذلك اتجه يزيد بن أبي سفيان إلى دمشق، وكلّف فتح البلدان الواقعة غربها، بما فيها لبنان. واتجه

أبـو عـبـيـدة وخـالـد بـن الـولـيـد شـمـالاً لاستعادة حمص والمناطق الشمالية من بلاد الشام، ووجه شرحبيل بن حسنة إلى الأردن. أما عمرو بن العاص فقد كلف متابعة الفتوح في فلسطين.

سنعالج في هذا الجزء الفتوحات التي حصلت في بـلاد الشـام بـعـد مـعـركـة اليرموك، وصـولاً إلى فـتـح بـيـت المقـدس ومصر.

القسم الاول

إكمال الفتوحات في بلاد الشام

الفصل الأول
إكمال فتح شمال بلاد الشام

بعد انتصار المسلمين في معركة اليرموك كان عليهم إعادة فتح المناطق والمدن التي كانوا قد جلوا عنها لخوض معركة اليرموك. كما أصبح عليهم العمل على طرد البيزنطيين نهائياً من شمال بلاد الشام كي يتمكّنوا من توجيه جهودهم الحربية نحو فلسطين ومصر وشمال افريقيا.

أولاً – وقعة مرج الروم

بعد انتهاء معركة اليرموك هُزم الروم أيضاً في موقعة فِحل.[١] وفي السنة الخامسة عشرة للهجرة أراد أبو عبيدة مطاردة الفارين من جيش الروم والقضاء عليهم، فأمر خالداً ابن الوليد قائد فرقة خيالة المسلمين بتنفيذ عملية المطاردة شمالاً، على أن يتبعه بعد ذلك أبو عبيدة إلى دمشق.

لكن الامبراطور هرقل علم بواسطة جواسيسه بمسيرة المسلمين، فأرسل جيشاً بقيادة «توذرا» لمهاجمة دمشق، ثمّ عزّزه بجيش آخر بقيادة «شنس الرومي». وكان هدف هرقل منع المسلمين من فتح مدينة حمص.

التقت الجيوش الإسلاميّة بقيادة أبي عبيدة وخالد بجيوش الروم في مكان اسمه «مرج الروم» حيث جرى قتال سريع بعد أن انضمّ جيش يزيد بن أبي سفيان إلى جيوش المسلمين إثر خروجه من دمشق.

(١) انظر الجزء الرابع من هذه الموسوعة.

كتب ابن خلدون عن وقعة مرج الروم ما يلي:(١)

«لما انهزم الروم بفِحل سار أبو عبيدة وخالد إلى حمص واجتمعوا بذي الكلاع في طريقهم. وبعث هرقل توذر البطريق للقائهم فنزلوا جميعاً بمرج الروم، وكان توذر بإزاء خالد وشمر بطريق آخر بإزاء أبي عبيدة وأمسوا مستترين. ثمّ أصبح فلم يجدوا توذر وسار إلى دمشق واتبعه خالد، واستقبله يزيد من دمشق فقاتل وجاءه خالد من خلفه فلم يفلت منهم إلاّ القليل وغنموا ما معهم. وقاتل شنَسٌ أبا عبيدة بعد مسير خالد، فانهزم الروم وقتلوا واتبعهم أبو عبيدة إلى حمص ومعه خالد، فبلغ ذلك هرقل، فبعث بطريق حمص إليها، وسار هو في الرها».

وهكذا، انتصر المسلمون في مرج الروم وغنموا غنائم كثيرة أرسل خمسها إلى الخليفة ووزعت الأخماس الأربعة على المقاتلين.

أما الطبري فذكر وقعة مرج الروم كما يأتي:(٢)

«وفي هذه السنة(٣) كانت الوقعة بمرج الروم، وكان من ذلك أنّ أبا عبيدة خرج بخالد بن الوليد من فِحل إلى حِمْص، وانصرف بمن أضيف إليهم من اليرموك؛ فنزلوا جميعاً على ذي الكَلاع. وقد بلغ الخبر هرقل، فبعث توذرا البطريق حتى نزل بمرج دمشق وغربها، فبدأ أبو عبيدة بمرج الروم وجمعهم هذا، وقد هجم الشتاء عليهم والجراح فيهم فاشية. فلمّا نزل على القوم بمرْج الرّوم نازله يوم نزل عليه شنس الروميّ، في مثل خيل توذرا؛ إمداداً لتوذرا ورداً لأهل حمص؛ فنزل في عسكر على حِدَةٍ. فلمّا كان من الليل أصبحت الأرض من توذرا بلاقع، وكان خالد بإزائه وأبو عبيدة بإزاء شنس. وأتى خالداً الخبر أن توذرا قد رحل إلى دمشق، فأجمع رأيه ورأي أبي عبيدة أن يُتبعه خالد، فأتبعه خالد من ليلته في جريدة؛ وقد بلغ يزيد بن أبي سفيان

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٤٤.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٤٣.

(٣) سنة ١٥هـ.

الذي فعل، فاستقبله فاقتتلوا. ولحق بهم خالد وهم يقتتلون؛ فأخذهم من خلفهم، فقتلوا من بين أيديهم ومن خلفهم؛ فأناموهم ولم يفلت منهم إلاّ الشريد؛ فأصاب المسلمون ما شاءوا من ظَهرٍ وأداة وثياب. وقسم ذلك يزيد بن أبي سفيان على أصحابه وأصحاب خالد، ثمّ انصرف يزيد إلى دمشق، وانصرف خالد إلى أبي عبيدة، وقد قتل خالد توذرا.

وقد ناهد أبو عبيدة بعد خروج خالد في أثر توذرا شنس، فاقتتلوا بمرج الرّوم، فقتلهم مقتلة عظيمة، وقتل أبو عبيدة شنس، وامتلأ المرْج من قتلاهم، فأنتنت منهم الأرض، وهرب من هرب منهم، فلم يفلتهم، وركبوا أكساءهم إلى حمص».

ثانياً – فتح بعلبك وحمص وشمال سوريا

كان خالد بن الوليد قد تقدّم بالجيش في اتجاه حمص، فلحق به أبو عبيدة بن الجراح مع بقية الجيش الإسلامي مطارداً الفارين من جيش توذرا وشنس بعد وقعة مرج الروم، فالتقيا في سهل البقاع وسار الجيش بكامله شمالاً وفي مقدّمته خالد بن الوليد.

سلك الجيش الإسلامي طريق بعلبك، فحاصرها، وطلب أهلها الأمان فأمّنهم وصالحهم، وأكمل مسيرته نحو حمص حيث حاصرها حصاراً طويلاً.

عن هذا الحصار كتب ابن الأثير:[١]

«فلما فرغ أبو عبيدة من دمشق سار إلى حمص فسلك طريق بعلبك فحاصرها فطلب أهلها الأمان فأمّنهم وصالحهم وسار عنهم فنزل على حمص ومعه خالد. وقيل: إنما سار المسلمون إلى حمص من مرج الروم وقد تقدّم ذكره، فلما نزلوها قاتلوا أهلها فكانوا يغادونهم القتال ويراوحونهم في كلّ يوم بارد. ولقي المسلمون برداً شديداً و[لقي] الروم حصاراً طويلاً فصبر المسلمون، والروم. وكان هرقل قد أرسل إلى أهل حمص يَعِدُهُم المدد، وأمر أهل الجزيرة جميعها بالتجهز إلى حمص فساروا نحو الشام لمنع حمص عن المسلمين. فسيّر سعد بن أبي وقاص السرايا من العراق إلى

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٣٩.

هيت وحصروها، وسار بعضهم إلى قرقيسيا فتفرّق أهل الجزيرة وعادوا عن نجدة أهل حمص. فكان أهلها يقولون: تمسّكوا بمدينتكم فإنهم حفاة، فإذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم، فكانت أقدام الروم تسقط ولا يسقط للمسلمين إصبع. فلما خرج الشتاء قام شيخٌ من الروم فدعاهم إلى مصالحة المسلمين فلم يجيبوه، وقام آخر فلم يجيبوه، فناهدهم المسلمون فكبّروا تكبيرة فانهدم كثيرٌ من دور حمص وزلزلت حيطانهم فتصدّعت. فكبّروا ثانية فأصابهم أعظم من ذلك، فخرج أهلها إليهم يطلبون الصلح ولا يعلم المسلمون بما حدث فيهم فأجابوهم وصالحوهم على صلح دمشق.

وأنزلها أبو عبيدة السمط بن الأسود الكندي في بني معاوية، والأشعث بن ميناس في السكون، والمقداد في بلى، وأنزلها غيرهم. وبعث بالأخماس إلى عمر مع عبدالله بن مسعود. وكتب عمر إلى أبي عبيدة أن أقم بمدينتك وادع أهل القوة [والجلد] من عرب الشام فإني غير تارك البعثة إليك.

ثمّ استخلف أبو عبيدة على حمص عبادة ابن الصامت».

أما الطبري فذكر شروطاً للصلح إذ كتب:(١)

«وعن أشياخ من غسّان وبَلْقين، قالوا: أثوب الله المسلمين على صبرهم أيام حِمْص أن زلزل بأهل حِمْص؛ وذلك أنّ المسلمين ناهدوهم، فكبّروا تكبيرة زلزلت معها الرّوم في المدينة، وتصدّعت الحيطان، ففزعوا إلى رؤسائهم وإلى ذوي رأيهم ممن كان يدعوهم إلى المسالمة، فلم يجيبوهم وأذلّوهم بذلك. ثمّ كبّروا الثانية، فتهافتت منها دور كثيرة وحيطان؛ وفزعوا إلى رؤسائهم وذوي رأيهم، فقالوا: ألا ترون إلى عذاب الله! فأجابوهم: لا يطلب الصلح غيركم؛ فأشرفوا فنادوا: الصلح الصلح! ولا يشعر المسلمون بما حدث فيهم، فأجابوهم وقبلوا منهم على أنصاف دورهم، وعلى أن يترك المسلمون أموال الرّوم وبنيانهم؛ لا ينزلونه عليهم، فتركوه لهم. فصالح بعضهم على صُلْح دمشق على دينار وطعام، على كلّ جريب أبداً أيسروا أو أعسروا. وصالح بعضهم على قدر طاقته؛ إن

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٤٤.

زاد ماله زيد عليه، وإن نَقُص نَقُصَ. وكذلك كان صلح دمشق والأردن؛ بعضهم على شيء إن أيسروا وإن أعسروا، وبعضهم على قدر طاقته، وَوُلّوا مُعاملة ما جلا ملوكهم عنه».

وكتب أبو عبيدة إلى الخليفة عمر بن الخطاب يخبره بأن هرقل يظهر تارة ويختفي أخرى، فأمره بالمكوث في حمص وجعلها مقراً لقيادته العامة على أن يوجّه منها الجيوش لاستكمال فتح بلاد الشام.

وأجلى أبو عبيدة الروم عن حمص وأسكن مكانهم المسلمين مع عيالهم فاندمجوا في مجتمع المدينة التي استجاب أهلها للدعوة الإسلاميّة وراحوا يدخلون الاسلام، رغم أن بعضهم آثر البقاء على دين النصارى.

بعد حمص فتح أبو عبيدة حماه ومعرة النعمان صلحاً، واللاذقية عنوة، كما فتح سلمية وجبلة وأنطرطوس وشيزر.(١)

كتب ابن الأثير عن هذه الفتوحات:(٢)

«ثمّ استخلف أبو عبيدة على حمص عبادة بن الصامت وسار إلى حماه فتلقاه أهلها مذعنين فصالحهم أبو عبيدة على الجزية لرؤوسهم والخراج على أرضهم، ومضى نحو شيزَر(٣) فخرجوا إليه يسألون الصلح على ما صالح عليه أهل حماة.

وسار أبو عبيدة إلى معرّة، وهي معرة النعمان نُسِبت بعد إلى النعمان بن بشير الأنصاري فأذعنوا له بالصلح على ما صالح عليه أهل حمص. ثمّ أتى اللاذقية، فقاتله أهلها، وكان لها باب عظيم يفتحه جَمعٌ من الناس، فعسكر المسلمون على بعدٍ منها. ثمّ أمر فحفر حفائر عظيمة تستر الحفرة منها الفارس راكباً، ثمّ أظهروا أنهم عائدون عنها ورحلوا، فلما جنّهم الليل عادوا واستتروا في تلك الحفائر. وأصبح أهل اللاذقية وهم يرون أنّ المسلمين قد انصرفوا عنهم فأخرجوا سرحهم وانتشروا بظاهر البلد، فلم يرعهم إلاّ والمسلمون يصيحون بهم ودخلوا معهم المدينة، ومُلِكَت عنوة. وهرب قوم من النصارى، ثمّ طلبوا الأمان على أن يرجعوا إلى أرضهم، فقوطعوا على خراج يؤدّونه، قلّوا

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٤٥.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٤٠.

(٣) شيزر: قلعة قرب حماه.

أو كثروا، وتُركت لهم كنيستهم، وبنى المسلمون بها مسجداً جامعاً بناه عبادة بن الصامت، ثمّ وسع فيه بعد.

ولمّا فتح المسلمون اللاذقية جلا أهل جَبَلة من الروم عنها. فلما كان زمن معاوية بنى حصناً خارج الحصن الروميّ، وشحنه بالرجال. وفتح المسلمون مع عبادة بن الصامت أنطرطوس، وكان حصيناً فجلا عنه أهله، فبنى معاوية مدينة انطرطوس ومصرها، وأقطع بها القطائع للمقاتلة وكذلك فعل ببانياس. وفتحت سَلَمْية أيضاً، وقيل: إنّما سميت سلمية لأنه كان بقربها مدينة تدعى «المؤتفكة» انقلبت بأهلها، ولم يسلم منهم غير مائة نفس فبنوا لهم مائة منزل وسميت سلم مائة، ثمّ حرف الناس فقالوا: سلمية. وهذا يتمشى لقائلة لو كان أهلها عرباً، ولسانهم عربياً، وأما إذا كان لسانهم أعجمياً فلا يسوغ هذا القول».

ثالثاً – فتح قنسرين

كانت قنسرين مدينة عامرة، واقعة على مفترق الطرق الذي يربط حمص وحماه وشيزر وحلب وانطاكية.(١) وكانت حامية الروم فيها بقيادة الرجل الثاني في الامبراطورية بعد هرقل ويدعى «ميناس».

خرج خالد بن الوليد بجيش من أربعة آلاف فارس من قبائل لخم وجذام وطيء ونبهان وكهلان وخولان، وراح يغير على القرى الواقعة بجانب قنسرين بقصد تطهيرها من الروم كي لا تهدّد مؤخّرة جيشه.

ثمّ تابع تقدّمه نحو قنسرين، فعلم ميناس بقدومه فخرج من المدينة مع جيش الروم حيث اشتبك الجيشان في قتال عنيف، قتل بنتيجته ميناس. فهرب الروم ودخل العرب النصارى المدينة وأقفلوا أبوابها مصممين على الصمود داخلها.

---

(١) كان قد بنى قنسرين عرب من قبيلة تنوخ، وفيها حصن وقلعة وحامية كبيرة من الروم.

كتب ابن كثير عن قتال قنسرين:[1]

«لما فتح أبو عبيدة حمص بعث خالد بن الوليد إلى قنسرين، فلما جاءها ثار إليه أهلها ومن عندهم من نصارى العرب، فقاتلهم خالد فيها قتالاً شديداً، وقتل منهم خلقاً كثيراً، فأما من هناك من الروم فأبادهم وقتل أميرهم ميناس. وأما الأعراب فإنهم اعتذروا إليه بأن هذا القتال لم يكن عن رأينا فقبل منهم خالد وكف عنهم. ثمّ خلصوا إلى البلد فتحصّنوا فيه، فقال لهم خالد إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا. ولم يزل بهم حتى فتحها الله عليه ولله الحمد».

وصالح خالد قنسرين على أربعة آلاف دينار ملكية ومائة أوقية من الفضة وألف ثوب من متاع حلب وألف وسق من طعام.

وكان فتح قنسرين في السنة السادسة عشرة للهجرة، وهي السنة التي ارتحل فيها هرقل من الشام إلى القسطنطينية.

رابعاً – الدروس والعبر

أ – أحسن الامبراطور هرقل بنقله مكان المعركة من شمال سوريا إلى دمشق التي أرسل إليها جيشاً مهمّته فتحها ومنع المسلمين من فتح مدينة حمص. فنقل القتال إلى أرض العدو يؤمن حرية العمل ويسمح للقائد باختيار مكان وزمان المعركة فيحقق بذلك قاعدتين من قواعد الحرب.

ب – في المعركة حول دمشق، تمكّن خالد ابن الوليد من محاصرة الجيش البيزنطي الذي كان يحاصر بدوره المدينة، فحقق بذلك مبدأ الحرب الثاني (حرية العمل) للمسلمين وفاجأ جيش الروم فانتصر انتصاراً كبيراً عليه.

لكن عودة الجيوش البيزنطية إلى بلاد الشام في عمليات هجومية تظهر ان معركة اليرموك، ورغم الانتصار الكبير الذي حققه المسلمون فيها، لم تكن فاصلة بالنسبة للوجود البيزنطي في هذه البلاد. فكما سبق وأوردنا في الجزء السابق من هذه الموسوعة،

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٥١ – ٥٢.

تابع الصراع في بلاد الشام بين الجيوش العربية والجيوش البيزنطية حتى آخر العصور العباسية.

فبقاء شعوب سوريا على نصرانيتها ودخولها في ذمة المسلمين لقاء دفع الجزية سمح للامبراطور البيزنطي بإرسال حملات هجومية إليها دأبت على الإغارة على مدنها وحصونها، الأمر الذي دفع المسلمين إلى إقامة الثغور المحصّنة والتي سنتكلّم عنها لاحقاً.

ج - أثناء حصار حمص حاول كلّ من المسلمين والبيزنطيين تحقيق حرية عمله بحشد القوى وتوجيهها إلى حيث تفرض المعركة وجودها. ففيما أمر الامبراطور هرقل أهل الجزيرة بالتجهّز للتوجّه إلى حمص وتعزيز حاميتها، ردّ سعد بن أبي وقاص بتسيير السرايا إلى مناطق الجزيرة للضغط على سكانها ومنعهم من السير لمؤازرة حمص. وهكذا ظهر أن كلاً من القيادتين كان يحاول فرض إرادته على خصمه وتحديد مكان وزمان المعركة، وكان النصر للمسلمين الذين أظهروا إرادة أقوى وصبراً أطول.

د - بعد فتح حمص واعتمادها مقراً عاماً لقيادة الجيوش الإسلاميّة، اتخذ أبو عبيدة قراراً مهماً ساهم في اعتناق قسم كبير من أهل المدينة الإسلام. لقد أجلى أبو عبيدة الروم عن حمص وأسكن مكانهم المسلمين.

هذا التدبير عاد معاوية بن أبي سفيان لاعتماده في المدن الساحلية اللبنانية إذ أحضر قبائل عربية إليها، الأمر الذي سمح له بتعزيز حماية ثغورها في وجه هجمات الأسطول البيزنطي على سواحل بلاد الشام.

هـ - ساهم انتصار المسلمين في دمشق وحمص في دفع سكان المدن في شمال بلاد الشام إلى طلب مصالحة المسلمين والدخول في ذمتهم لقاء فتح مدنهم أمامهم ودفع الجزية لهم. ومن هذه المدن حماه ومعرة النعمان وسلمية وجبلة وأنطرسوس وشيزر.

وفي معركة اللاذقية عمد القائد العربي إلى خدعة عسكرية قديمة في التاريخ العسكري إذ أنه أخفى مقاتليه في حفر أمر بحفرها، فاعتقد أهل اللاذقية أن المسلمين قد انصرفوا عنهم فخرجوا من مدينتهم كالعادة ففاجأهم المسلمون وفتحوا مدينتهم عنوة.

هذه الخدعة تذكّر بحصار طروادة الذي تظاهر خلاله اليونانيون بالعودة إلى بلادهم قبل أن يعودوا ليلاً ويفاجئوا المدينة التي نام أهلها وهم سكارى بعد احتفالات نصرٍ مزعوم.

و – من الملاحظ أن المسلمين، ورغم فتح مدينة اللاذقية عنوة، فإنهم عادوا وأمّنوا أهلها على خراج يؤدّونه، وتركت لهم كنيستهم، وبنى المسلمون بها مسجداً جامعاً.

إن هذه المعاملة الحسنة للاّذقية تؤكد ما سبق وأوردناه في الجزء السابق من هذه الموسوعة عن دور الديانات السماوية في التخفيف من عنف الحروب وقسوتها ومجازرها التي كانت سائدة في العصور القديمة من التاريخ العسكري.

ز – قبل حصار قنسرين عمد القائد خالد ابن الوليد إلى تطهير طريقه إليها من حاميات الروم في القرى والحصون كي لا تهدد مؤخرة جيشه المتجه إليها. وهذا ما حقق للقائد العربي حرية العمل وأمّنَ جيشه وسلامته.

لقد أظهرت هذه الاستراتيجية نجاحها عبر قرون التاريخ العسكري الطويلة، لأن ترك جيوب مقاومة في مؤخرة القوات المتقدّمة في حملة عسكرية يفرض على قائد هذه القوات تكليف قسم منها لحماية مؤخراته فيكون بذلك قد أخلّ بقاعدتي حشد القوى وتجميعها. وقد يفقده ذلك حرية عمله عند تهديد مؤخرة جيشه الزاحف.

ح– أخطأ قائد حامية قنسرين البيزنطي بخروجه من المدينة لخوض معركة مع الجيش العربي خارج أسوارها التي كانت تحمي جيشه. فقد أخلّ هذا القائد بمبدأ الحرب الثاني (حرية العمل) والثالث (الحصيل الأقصى للوسائل) بتخلّيه عن أهم عناصر حماية لجيشه، أي أسوار المدينة.

خامساً – ارتحال هرقل إلى القسطنطينية

كتب الطبري عن ارتحال هرقل إلى القسطنطينية بعد فتح قنسرين ما يأتي:(١)

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٤٥ – ٤٤٦.

«ذكر سيف عن أبي الزّهراء القُشيريّ، عن رجل من بني قُشير، قالوا: لما خرج هرقل من الرّهاء واستتبع أهلها، قالوا: نحن ها هنا خير منّا معك، وأبَوا أن يتبعوه، وتفرّقوا عنه وعن المسلمين. وكان أوّل من أنبح كلابها، وأنفر دجاجها زياد بن حنظلة، وكان من الصحابة، وكان مع عمر بن مالك مسانده، وكان حليفاً لبني عبد بن قُصيّ. وقبل ذلك ما قد خرج هرقل حتى شِمشاط؛ فلما نزل القوم الرّهاء أدرب فنفذ نحو القسطنطينيّة، ولحقه رجل من الروم كان أسيراً في أيدي المسلمين، فأفلت، فقال له: أخبرني عن هؤلاء القوم، فقال: أحدّثك كأنّك تنظر إليهم؛ فُرسان بالنهار ورهبان بالليل، ما يأكلون في ذمّتهم إلاّ بثمن، ولا يدخلون إلاّ بسلام، يقفون على مَن حاربهم حتى يأتوا عليه، فقال: لئن كنت صدقتني ليرثُنّ ما تحت قدميّ هاتين.

وعن عبادة وخالد، أنّ هرقل كان كلّما حجّ بيت المقدس فخلّف سورية، وظعن في أرض الرّوم التفت فقال: عليك السّلام يا سورية تسليم مودّع لم يقض منك وطره، وهو عائد.[١] فلمّا توجّه المسلمون نحو حمص عَبَر الماء، فنزل الرّهاء، فلم يزل بها حتى طلع أهل الكوفة وفتحت قِنّسرين وقتل ميناس، فخنس عند ذلك إلى شمشاط؛ حتى إذا فصل منها نحو الرّوم علا على شرف، فالتفت ونظر نحو سورية، وقال: عليك السلام يا سورية، سلاماً لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك روميّ أبداً إلاّ خائفاً، حتى يولد المولود المشؤوم، ويا ليته لا يولد! ما أحلى فِعله، وأمرّ عاقبته على الرّوم! وأخذ أهل الحصون التي بين إسكندريّة وطرسوس معه؛ لئلاّ يسير المسلمون في عمارةٍ ما بين أنطاكية وبلاد الرّوم، وشعّث الحصون، فكان المسلمون لا يجدون بها أحداً، وربّما كمن عندها الرّوم؛ فأصابوا غرّة المتخلّفين، فاحتاط المسلمون بذلك».

سادساً – فتح حلب وانطاكية وغيرهما من العواصم

بعد قنسرين قرّر أبو عبيدة فتح مدينة حلب،[٢] فسار شمالاً حتى بلغ قرية صغيرة

(١) ذكرها أيضاً البلاذري، مرجع سابق، ص ١٨٦.

(٢) كانت حلب خلال هذه الحقبة من الزمن مدينة وافرة الخيرات، ولها سور حصين وقلعة متينة. قيل انها سميت حلب لأن النبيّ ابراهيم الخليل كان يحلب غنمه فيها ويتصدّق بالحليب على الفقراء، والمدينة لها سور أسود، وفي وسطها جبل مستدير عليه قلعة، ولها خندق عظيم حفرته المياه.

قبلها تدعى «حاضرة حلب» يقطنها عرب من قبيلة تنوخ. صالحهم أبو عبيدة فأسلموا بعد مدّة قصيرة.

كتب ابن الأثير عن فتح حلب:[1]

«لما فرغ أبو عبيدة من قِنسرين سار إلى حلب، فبلغه أنّ أهل قنسرين نقضوا وغدروا فوجّه إليهم السمط الكندي فحصرهم وفتحها وأصاب فيها بقراً وغنماً، فقسم بعضه في جيشه، وجعل بقيته في المغنم.

ووصل أبو عبيدة إلى حاضر حلب، وهو قريب منها. فجمع أصنافاً من العرب، فصالحهم أبو عبيدة على الجزية، ثمّ أسلموا بعد ذلك. وأتى حلب وعلى مقدّمته عياض ابن غنم الفهري فتحصّن أهلها، وحصرهم المسلمون فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وكنائسهم وحصنهم فأعطوا ذلك واستثنى عليهم موضع المسجد. وكان صالحهم عياض فأجاز أبو عبيدة ذلك.

وقيل: صولحوا على أن يقاسموا منازلهم وكنائسهم، وقيل: إنّ أبا عبيدة لم يصادف بحلب أحداً لأن أهلها انتقلوا إلى أنطاكية وراسلوا في الصلح، فلما تمّ ذلك رجعوا إليها».

وبعد فتح حلب اتجهت أنظار أبي عبيدة إلى انطاكية،[2] فسار إليها حتى وصل إلى مكان اسمه «مهروبة»، فعلم بطريق المدينة بحضوره. وكانت قد لجأت إلى انطاكية مجموعات من الجند الذين هربوا من قنسرين.

خرج بطريق المدينة إلى أبي عبيدة بجمع كبير من المقاتلين الروم والعرب النصارى فالتقى الجيشان على بعد ثلاثة كيلومترات من المدينة حيث جرى قتال عنيف هزم بنتيجته الروم الذين لجأوا إلى الأسوار وأقفلوها.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء٢ ، ص ٣٤٢.

(٣) انطاكية مدينة كبيرة وغنية. قيل ان انطاكية ابنة الروم بن القين بن سام بن نوح بنتها. لها سور عالٍ فيه ٣٦٠ برجاً طوله اثنا عشر ميلاً. وتحت كلّ برج مرابط للخيل ومنازل للحرس وله باب حديدي ضخم. ولها قلعة حصينة جداً.

كتب ابن الأثير عن قتال أبي عبيدة لأنطاكية:[١]

«وسار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكية، وقد تحصّن بها كثير من الخلق من قِنسرين وغيرها. فلما فارقها لقيه جمع العدو فهزمهم فألجأهم إلى المدينة، وحاصرها من جميع نواحيها. ثمّ إنهم صالحوه على الجلاء أو الجزية فجلا بعضٌ وأقام بعضٌ فأمّنهم. ثمّ نقضوا، فوجّه أبو عبيدة إليهم عياض بن غنم، وحبيب بن مسلمة ففتحاها علي الصلح الأول. وكانت أنطاكية عظيمة الذّكر عند المسلمين، فلما فتحت كتب عمر إلى أبي عبيدة أنْ رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين واجعلهم بها مرابطة ولا تحبس عنهم العطاء».

رجع أبو عبيدة من انطاكية إلى ناحية حلب، فبلغه اجتماع جماعة من الروم بين «معرة مصرين» وحلب، فسار إليهم وقاتلهم وهزمهم وقتل بطارقتهم وسبى ذراريهم وغنم غنائمهم وفتح معرة مصرين وصالح أهلها على مثل صلح حلب.

كتب ابن الأثير عن القتال في المناطق المتاخمة لانطاكية:[٢]

«وجالت خيوله فبلغت بوقا[٣] وفتحت قرى الجومة وسرمين[٤] وبيرين[٥] وغلبوا على جميع أرض قنسرين وانطاكية ثمّ أتى أبو عبيدة حلب وقد التاث أهلُها فلم يزل بهم حتى أذعنوا وفتحوا المدينة.

وسار أبو عبيدة يريد قورس وعلى مقدمته عياض فلقيه راهب من رهبانها يسأله الصلح فبعث به إلى أبي عبيدة فصالحه على صلح أنطاكية. وبثّ خيله فغلب على جميع أرض قورس، وفتح تل عزاز. وكان سلمان بن ربيعة الباهلي في جيش أبي عبيدة فنزل في حصن بقورس فنسب إليه فهو يعرف بحصن سلمان.

ثمّ سار أبو عبيدة إلى مَنبج[٦] وعلى مقدّمته عياض فلحقه وقد صالح أهلها

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٤٢ - ٣٤٣.
(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه،
(٣) بوقا، من قرى انطاكية.
(٤) الجومة وسرمين من قرى حلب.
(٥) بيرين من قرى حمص.
(٦) منبج: قرب حلب.

على مثل صلح أنطاكية. وسيّر عياضاً إلى ناحية دُلوك ورعبان[1] فصالحه أهلهما على مثل منبج، واشترط عليهم أن يخبروا المسلمين بخبر الروم. وولى أبو عبيدة كلّ كورة فتحها عاملاً وضمّ إليه جماعة وشحن النواحي المخوفة، وسار إلى بالس[2] وبعث جيشاً مع حبيب بن مسلمة إلى قاصرين، فصالحهم أهلها على الجزية أو الجلاء فجلا أكثرهم إلى بلد الروم وأرض الجزيرة وقرية جسر منبج، ولم يكن الجسر يومئذ وإنما اتخذ في خلافة عثمان للصوائف، وقيل: بل كان له رسم قديم. واستولى المسلمون على الشام، من هذه الناحية إلى الفرات.

وعاد أبو عبيدة إلى فلسطين. وكان بجبل اللكام مدينة يقال لها: جُرجُرومة وأهلها يقال لهم الجراجمة، فسار حبيب بن مسلمة إليها من أنطاكية فافتتحها صلحاً على أن يكونوا أعواناً للمسلمين.

وسيّر أبو عبيدة بن الجرّاح جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسي فسلكوا درب بغراس[3] من أعمال أنطاكية إلى بلاد الروم. وهو أول مَن سلك ذلك الدرب فلقي جمعاً للروم معهم عرب من غسان، وتنوخ، وإياد، يريدون اللحاق بهرقل، فأوقع بهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة. ثمّ لحق به مالك الأشتر النخعي مدداً من قبل أبي عبيدة، وهو بأنطاكية فسلموا وعادوا.

وسيّر جيشاً آخر إلى مَرعش[4] مع خالد ابن الوليد ففتحها على إجلاء أهلها بالأمان وأخربها. وسير جيشاً آخر مع حبيب بن مسلمة إلى حصن «الحَدَث»، وإنما سمّي الحدث لأن المسلمين لقوا عليه غلاماً حدثاً فقاتلهم في أصحابه فقيل: درب الحدث وقيل: لأن المسلمين أصيبوا به فقيل: درب الحدث، وكان بنو أمية يسمونه درب السلامة لهذا المعنى».

(١) دلوك ورعبان: قرب حلب.
(٢) بالس: قرب حلب.
(٣) بغراس: مدينة قريبة من انطاكية.
(٤) مرعش: مدينة بالثغور بين الشام وبلاد الروم.

وهكذا فتح المسلمون كلّ البلاد الشامية في الشمال وصالحوا أهلها، الذين كانوا بغالبيتهم من العرب النصارى، على الجزية.

سابعاً – فتح قيسارية

عيّن الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) معاوية بن أبي سفيان على قيسارته وكلفه فتحها.

نقل ابن كثير رواية فتح قيسارية على يد معاوية، كما نقلها الطبري وابن الأثير محددين خسائر أهلها بمائة ألف قتيل، فكتب:[1]

«قال ابن جرير: وفي هذه السنة[2] أمّر عمر معاوية بن أبي سفيان على قيسارية وكتب إليه: أما بعد فقد وليتك قيسارية فسر إليها واستنصر الله عليهم، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا فنعم المولى ونعم النصير. فسار إليها فحاصرها، وزاحفه أهلها مرات عديدة، وكان آخرها وقعة أن قاتلوا قتالاً عظيماً. وصمم عليهم معاوية، واجتهد في القتال حتى فتح الله عليه فما انفصل الحال حتى قتل منهم نحواً من ثمانين ألفاً، وكمل المائة الألف من الذين انهزموا عن المعركة، وبعث بالفتح والأخماس إلى أمير المؤمنين عمر رضي ولله عنه»

ثامناً – القتال حول حمص

كان أهل الجزيرة قد راسلوا هرقل وأغروه ببلاد الشام، وطلبوا منه أن يبعث الجنود إلى حمص، ووعدوه بمساعدة جيشه ضد المسلمين.

وكان هرقل، وقد بلغته أخبار هزائم جيوشه المتتالية وقيام الجيوش الإسلاميّة بالمزيد من الفتوحات في بلاد الشام، قد قرّر تجهيز جيش ضخم من البيزنطيين ومن عرب الجزيرة الموالين له وتوجيهه إلى بلاد الشام.

والجزيرة بلاد واسعة، تقع ما بين البلاد الشامية والبلاد العراقية جنوب تركيا، وغالبية سكانها من الأكراد.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٥٢ – ٥٣.

(٢) السنة ١٥هـ.

وهكذا كتب هرقل إلى عماله وولاته في المنطقة لتجنيد كلّ من يستطيع حمل السلاح، فتشكّل لديه جيش كبير بدأت طلائعه تطلّ على مشارف حمص.

كتب ابن الأثير عن هذا الموضوع:[1]

«وفي هذه السنة[2] قصد الروم أبا عبيدة ابن الجراح ومن معه من المسلمين بحمص، وكان المهيّج للروم أهل الجزيرة، فإنهم أرسلوا إلى ملكهم وبعثوه على إرسال الجنود إلى الشام ووعدوا من أنفسهم المعاونة، ففعل ذلك».

كما ذكر ابن خلدون أيضاً أنه «كان أهل الجزيرة قد راسلوا هرقل وأغروه بالشام، وأن يبعث الجنود إلى حمص وواعدوه المدد. وبعثوا الجنود إلى أهل هيت مما يلي العراق».[3]

أما أبو عبيدة فكان قد استقرّ في حمص لمدّة قصيرة من الزمن قبل أن تجابهه هذه الأحداث المهمّة، التي دفعته إلى استدعاء خالد بن الوليد من قنسرين والكتابة إلى الخليفة عمر بن الخطاب لإرسال المدد له. كما قام أبو عبيدة بضم مسالحه إليه، وانضمّ إليه خالد بفرسان المسلمين قادماً من قنسرين التي أبقى فيها حامية قوية.

كتب ابن الأثير عن تحضيرات المسلمين لمواجهة جيش الروم:[4]

«فلما سمع المسلمون باجتماعهم ضمّ أبو عبيدة إليه مسالحه وعسكر بفناء مدينة حمص. وأقبل خالد من قنّسرين إليهم فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة أو التحصين إلى مجيء الغياث فأشار خالد بالمناجزة وأشار سائرهم بالتحصين ومكاتبة عمر فأطاعهم، وكتب إلى عمر بذلك. وكان عمر قد اتخذ في كلّ مصر خيولاً على قدره من فضول أموال المسلمين عدة لكون إن كان. فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس، وكان القيّم عليها سلمان بن ربيعة الباهلي ونفر من أهل الكوفة. وفي كلّ مِصر

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٧٦.

(٢) السنة السابعة عشرة.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٥٢.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٧٦.

من الأمصار الثمانية على قدره فإن تأتهم أتية ركبها الناس، وساروا إلى أن يتجهز الناس. فلما سمع عمر الخبر كتب إلى سعد أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرّحهم من يومهم [الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص] فإن أبا عبيدة قد أحيط به.

وكتب إليه أيضاً: سرّح سُهيل بن عدي إلى الرقة فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص. وأمره أن يسرّح عبدالله بن عتبان إلى نصيبين ثمّ ليقصد حرّان والرها، وأن يسرّح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ، وأن يسرّح عياض بن غنم، فإن كان قتال فأمرهم إلى عياض.(١) فمضى القعقاع في أربعة آلاف من يومهم [الذي أتاهم في الكتاب] إلى حمص، وخرج عياض بن غنم وأمراء الجزيرة وأخذوا طريق الجزيرة وتوجّه كلّ أمير إلى الكورة التي أُمّر عليها. وخرج عمر من المدينة فأتى الجابية لأبي عُبيدة مغيثاً يريد حمص. ولمّا بلغ أهل الجزيرة الذي أعانوا الروم على أهل حمص، وهم معهم خير الجنود الإسلاميّة، تفرّقوا إلى بلادهم وفارقوا الروم. فلما فارقوهم استشار أبو عبيدة خالداً في الخروج إلى الروم. فأشار به فخرج إليهم فقاتلهم ففتح الله عليه.

وقدم القعقاع بن عمرو بعد الوقعة بثلاثة أيام فكتبوا إلى عمر بالفتح، وبقدوم المدد عليهم، والحكم في ذلك. فكتب إليهم أن أشركوهم فإنهم نفروا إليكم، وأنفرق لهم عدوكم، وقال: «جزى الله أهل الكوفة خيراً يكفون حوزتهم ويمدون أهل الأمصار». فلما فرغوا رجعوا».

إذن، كانت جحافل الروم قد وصلت إلى حمص مشددة الحصار عليها، حتى لحق بالمسلمين ضيق شديد. لذلك قام الخليفة بإرسال مدد إلى أبي عبيدة كالتالي:

- كتب إلى سعد بن أبي وقاص في العراق يأمره بإرسال نجدة إلى حمص بقيادة القعقاع بن عمرو، وبتجهيز جيش ثانٍ بقيادة عياض بن غنم مهمته فتح الجزيرة

---

(١) وكان عياض من أهل العراق الذين خرجوا مع خالد بن الوليد ممدين لأهل الشام وممن انصرف أيام انصراف أهل العراق ممدين لأهل القادسية، وكان يرافد أب عبيدة.

والمدن والقرى التي أرسلت نجدات من رجالها إلى جيش الروم.

- أمر سعد أيضاً بأن يرسل سهيلاً بن عدي إلى الرقّة لقتال أهل الجزيرة.
- كما أمره أن يرسل عبدالله بن قتبان إلى نصيبين، ومنها إلى حرّان والرها، وأن يرسل الوليد بن عقبة على رأس عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ.
- خرج الخليفة بنفسه من المدينة المنوّرة إلى الجابية ومنها إلى «سرح»[١] للمؤازرة.

العمليات:

تحرك عياض بن غنم نحو الجزيرة، وأرسل سهيلاً بن عدي إلى الرقة. فلما علم العرب النصارى بخروج عياض نحو مدنهم وقراهم، انسحبوا من الجيش الرومي الذي كان يحاصر مدينة حمص وعادوا إلى بلادهم ليدافعوا عنها.[٢]

أما قائد الجيش البيزنطي المحاصر حمص، فلما علم بالنجدات القادمة نحو المدينة، وخاصة بخروج الخليفة بنفسه نحو دمشق، أجرى مقارنة بين جيش المسلمين وجيشه الذي انسحبت منه القوات العربية، فقرر عدم المجابهة وانسحب من حمص نحو بلاد الروم.

إلاّ أن أبا عبيدة، وبعد التشاور مع خالد ابن الوليد، قرّر ملاحقة الجيش البيزنطي المنسحب نحو بلاد الروم، فخرج المسلمون من حمص وراحوا يلاحقون هذا الجيش الذي وألحقوا به هزيمة نكراء، رغم أن القعقاع تأخّر عن الوصول والالتحاق بهم. وغنم المسلمون غنائم كثيرة.[٣]

تاسعاً - فتح الجزيرة

قرر أبو عبيدة متابعة هجمات المسلمين وصولاً إلى فتح الجزيرة ومدنها وقراها. وبالفعل وصل عياض بن غنم إلى الجزيرة في السنة الثامنة عشرة للهجرة (وقيل

(١) سرح: جنوبي دمشق.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٥٣.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٧٧.

التاسعة عشرة)، وبدأ بمدينة الرها التي دخلها صلحاً، وسار منها إلى حرّان من دون أن يصادف مقاومة تذكر، فصالح أهلها على الجزية.(١)

ومن حرّان أرسل عياض أبا موسى الاشعري إلى نصيبين فافتتحها بسهولة، وخرج أهلها إليه يعرضون الصلح لقاء الجزية، فقبل بذلك. كما أرسل عمراً بن سعد بن أبي وقاص إلى رأس العين حيث لقي مقاومة عنيفة من أهلها الذين لجأوا إلى حصنهم مع قائد حامية الروم واسمه «شهرياض». إلا أنه، وبعد حصار شديد، تمكّن من الدخول إلى الحصن وفتح المدينة قبل أن يدخل بلاد الروم.(٢)

نقل ابن الأثير تفاصيل قتال أهل الجزيرة وهرب أياد بن نزار إلى بلاد الروم وتهديد الخليفة عمر بن الخطاب هرقل ملك الروم لإعادته إليه مع العرب الذين لجأوا معه إلى بلاد هرقل، فكتب:(٣)

«وفي هذه السنة فتحت الجزيرة قد ذكرنا إرسال سعد العساكر إلى الجزيرة، فخرج عياض بن غنم ومن معه فأرسل سهيل بن عدي إلى الرّقة، وقد أرفض أهل الجزيرة عن حمص إلى كورهم حين سمعوا بأهل الكوفة. فنزل عليهم فأقام يحاصرهم حتى صالحوه فبعثوا في ذلك إلى عياض وهو في منزل وسط بين الجزيرة، فقبل منهم وصالحهم وصاروا ذمة.

وخرج عبد الله بن عتبان على الموصل إلى نصيبين فلقوه بالصلح وصنعوا كصنع أهل الرقة فكتبوا إلى عياض فقبل منهم وعقد لهم.

وخرج الوليد بن عقبة فقدم على عرب الجزيرة فنهض معه مسلمهم وكافرهم إلاّ إياد ابن نزار فإنهم دخلوا أرض الروم فكتب الوليد بذلك إلى عمر. ولما أخذوا الرقة ونصيبين ضم عياض إليه سهيلاً، وعبدالله، وسار بالناس إلى حرّان، فلما وصل أجابه

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٥٣ – ٩٥٤.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٧٤.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص

أهلها إلى الجزية فقبل منهم. ثمّ إنّ عياضاً سرّح سهيلاً، وعبدالله إلى الرها فأجابوهما إلى الجزية ،أجروا كلّ ما أخذوه من الجزيرة عنوة مجرى الذمة فكانت الجزيرة أسهل البلدان فتحاً، ورجع سهيل، وعبدالله إلى الكوفة. وكتب أبو عبيدة إلى عمر بعد انصرافه من الجابية يسأله أن يضمّ إليه عياض بن غنم إذ أخذ خالداً إلى المدينة، فصرفه إليه فاستعمل حبيب بن مسلمة على عجم الجزيرة وحَربها، والوليد بن عقبة على عرَبها. فلما قدم كتاب الوليد على عمر بمن دخل الروم من العرب كتب عمر إلى ملك الروم: «بلغني أنَّ حَيّاً مِنْ أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك فوالله لتخرجنه إلينا أو لنخرجن النصارى إليك».

فأخرجهم ملك الروم، فخرج منهم أربعة آلاف وتفرّق بقيتهم فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الروم فكل إيادي في أرض العرب من أولئك الأربعة آلاف. وأبى الوليد بن عقبة أن يقبل من تغلب إلاّ الاسلام فكتب فيهم إلى عمر فكتب إليه عمر: إنّما ذلك بجزيرة العرب لا يقبل منهم [فيها] إلاّ الاسلام فَدَعْهُم على أن لا يُنصِّروا وليداً ولا يمنعوا أحداً منهم من الاسلام».

وهكذا خضعت الجزيرة بكاملها للمسلمين، ووضع عياض بن غنم في كلّ مدينة أو قلعة حامية من جنده، فدخل معظم أهل الجزيرة في الإسلام. أما تفاصيل باقي فتوح الجزيرة فقد أوردها ابن الأثير كما يلي:(١)

«فعلى هذا القول تكون الجزيرة من فتوح أهل العراق، والأكثر على أنها من فتوح أهل الشام، فإنّ أبا عبيدة سيّر عياض بن غنم إلى الجزيرة، وقيل: إنّ أبا عبيدة لما تُوُفي استخلف عياضاً فورد عليه كتاب عمر بولايته حمص، وقنسرين، والجزيرة فسار إلى الجزيرة سنة ثمان عشرة للنصف من شعبان في خمسة آلاف، وعلى ميمنته سعيد بن عامر بن حذيم الجحمي، وعلى ميسرته صفوان بن المعطل، وعلى مقدّمته هبيرة بن مسروق. فانتهت طليعة عياض

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٣٧٩ - ٣٨٠.

إلى «الرِّقَّة»[١] فأغاروا على الفلاحين وحصروا المدينة؛ وبثّ عياض السرايا فأتوه بالأسرى والأطعمة. وكان حصرها ستة أيام فطلب أهلها الصلح فصالحهم على أنفسهم وذراريهم وأموالهم ومدينتهم؛ وقال عياض: الأرض لنا قد وطئناها وملكناها. فأقرها في أيديهم على الخراج ووضع الجزية. ثمّ سار إلى حرّان فجعل عليها عسكراً يحصرها، عليهم صفوان بن المعطل، وحبيب بن مسلمة وسار هو إلى الرها فقاتله أهلها. ثمّ انهزموا، وحصرهم المسلمون في مدينتهم فطلب أهلها الصلح فصالحهم وعاد إلى حرّان فوجد صفوان وحبيباً قد غلبا على حصون وقرى من أعمال حرّان فصالحه أهلها على مثل صلح الرها. وكان عياض يغزو ويعود إلى الرها وفتح سميساط، وأتى سَروج[٢]، ورأس كيفا[٣]؛ والأرض البيضاء فصالحه أهلها على صُلح الرها. ثمّ إنّ أهل سميساط غدروا فرجع إليهم عياض فحاصرهم حتى فتحها. ثمّ أتى قريّات على الفرات وهي جسر منبج وما يليها ففتحها، وسار إلى رأس عين، وهي «عين الوردة» فامتنعت عليه. وتركها وسار إلى تل موزن ففتحها على صلح الرها سنة تسع عشرة، وسار إلى «آمِدْ»[٤] فحصرها فقاتله أهلها ثمّ صالحوه على صلح الرها، وفتح «مَيَّافارقِين»[٥] على مثل ذلك، وكفرتُوثا[٦] فسار إلى نصيبين فقاتله أهلها، ثمة صالحوه على مثل صلح الرها؛ وفتح طور عبدين، وحصن ماردين، وقصد الموصل ففتح أحد الحصنين، وقيل: لم يصل إليها. وأتاه بطريق الزوزان فصالحه ثمّ سار إلى أرزن ففتحها، ودخل الدرب فأجازه إلى بدليس، وبلغ خلاط فصالحه

(١) مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام.

(٢) بلدة قريبة من حران.

(٣) هي من ديار مضر بالجزيرة قرب حرّان.

(٤) هي من مدن ديار بكر وأجلها قدراً وأشهرها ذكراً.

(٥) مدينة بديار بكر.

(٦) قرية كبيرة من أعمال الجزيرة.

بطريقها وانتهى إلى العين الحامضة من أرمينية. ثمّ عاد إلى الرقة ومضى إلى حمص فمات سنة عشرين.

واستعمل عمر سعيد بن عامر بن حذيم فلم يلبث إلاّ قليلاً حتى مات؛ فاستعمل عمير بن سعد الأنصاري ففتح رأس عين بعد قتال شديد.

وقيل: إنّ عياضاً أرسل عمير بن سعد إلى رأس عين ففتحها بعد أن اشتدّ قتاله عليها. وقيل: إنّ عمر أرسل أبا موسى الأشعري إلى رأس عين بعد وفاة عياض. وقيل: إنّ خالد بن الوليد حضر فتح الجزيرة مع عياض ودخل حماماً بآمد فأطلي بشيء فيه خمر فعزله عمر، وقيل: إن خالداً لم يسر تحت لواء أحد غير أبي عبيدة والله أعلم.

ولما فتح عياض سميساط بعث حبيب بن مسلمة إلى ملطية ففتحها عنوة، ثمّ نقض أهلها الصلح، فلمّا ولي معاوية الشام والجزيرة وجّه إليها حبيب بن مسلمة أيضاً ففتحها عنوة ورتّب فيها جُنداً من المسلمين مع عاملها».

عاشراً – الدروس والعبر

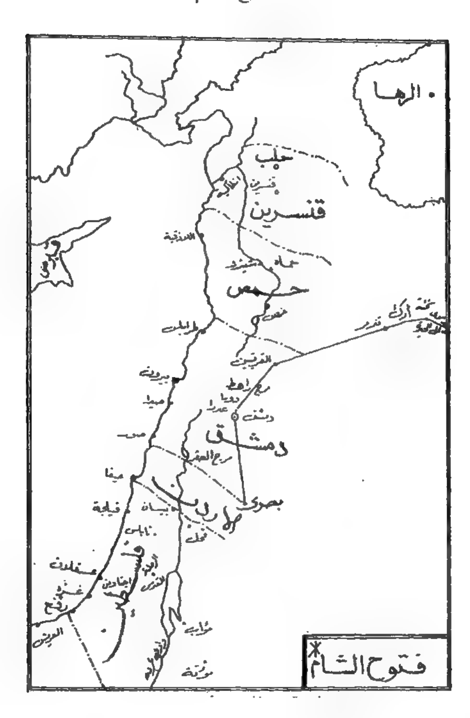
أ – ارتكب قائد حامية انطاكية البيزنطي الخطأ نفسه الذي سبق ووقع فيه قائد حامية قنسرين، وذلك بتخليه عن الحماية التي تؤمنها لجيشه أسوار المدينة المحصنة جداً. فسور انطاكية عالٍ وفيه ٣٦٠ برجاً تحت كلّ منها مرابط للخيل ومنازل للحرس، ولها قلعة حصينة.

بالمقابل، وبعد فتح المدينة، أمر الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) القائد أبا عبيدة بوضع حامية دائمة فيها نظراً لأهمية سورها وخوفاً من عودتها للخروج عن طاعة المسلمين كما كان يحصل في مدن كثيرة بعد فتحها.

ب – بعد فتح شمال بلاد الشام سار المسلمون إلى جبل اللكام وفتحوا مدينة جرجومة، التي يقال لسكانها «الجراجمة»، صلحاً على أن يكون أهلها أعواناً للمسلمين.

هاجر قسم من سكان جرجومة إلى لبنان فنزلوا في جبل لبنان حيث قاوموا الجيوش العربية الإسلاميّة خلال مدّة طويلة من

فتوح الشام



المستند: فيليب حتي، تاريخ العرب.

الزمن وقعت خلالها معارك عنيفة بين الجانبين. وقام الامبراطور البيزنطي بتعزيز الجراجمة بفرقة من فرسان آسيا الصغرى بلغت عشرة آلاف فارس ساعدتهم في حربهم ضد معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان، قبل أن يوقَعَ اتفاق بين عبد الملك والامبراطور البيزنطي يوستينانوس الأخرم الذي أمر بسحب فرقة التعزيز من جبل لبنان. رفض الجراجمة الانصياع لأوامر الامبراطور، فلقبوا بالمردة وأصبحوا لاحقاً الموارنة.

ج - أحسن أبو عبيدة بن الجراح بملاحقة الروم المنسحبين من بلاد الشام شمالاً للحاق بهرقل مطبقاً بذلك استراتيجية «استغلال النصر». فبالفعل، أوقع المسلمون بالروم وقتلوا منهم عدداً كبيراً.

د - رغم انتصارات العرب المسلمين وفتحهم للمدن السورية، ورغم هزيمة هرقل وتراجعه إلى عاصمة امبراطوريته، فإن الصراع العربي - البيزنطي لم ينتهِ بسقوط شمال بلاد الشام نظراً لتصميم الامبراطور البيزنطي على استعادة تلك البلاد. وكما سبق وأوردنا، فإن الصراع هذا دام حتى أواخر العصور العباسية مترافقاً مع عمليات هجومية للجانبين.

وطبّق هرقل في عملياته الاستردادية قواعد التعبئة وتجنيد كلّ من يستطيع حمل السلاح، وتأليب سكان المنطقة وحشد القوى، وذلك تحقيقاً لمبدأي الحرب الأول (نسبية الأهداف للوسائل) والثاني (حرية العمل). وبالفعل شكّل جيشاً كبيراً وسيّره في حملة استردادية إلى حمص.

رداً على هذا التهديد، اعتمد القائد العربي أبو عبيدة قاعدة تجميع قواته بهدف تحقيق حرية عمله. فمبدأ حرية العمل يفرض إمكانية تدخل جميع الوحدات العسكرية في المعركة قبل انتهائها. ولما كانت المعركة خلال المرحلة الزمنية التي نعالج أحداثها في هذا الجزء تدوم ساعات فقط، عمد أبو عبيدة إلى اتخاذ التدابير القتالية الآتية:

- ضمّ المسالح إلى عظيم القوى.
- استدعاء خالد بن الوليد وفرقة الفرسان من قنسرين.
- طلب مددٍ من الخليفة الذي كتب إلى سعد بن أبي وقاص وأمره بإرسال فرقة

من أربعة آلاف فارس بقيادة القعقاع بن عمرو لتعزيز جيش أبي عبيدة.

أما الخليفة، فقد سيّر جيوشاً أخرى إلى نصيبين وحرّان والرها والجزيرة لمنع سكانها من الالتحاق بالجيش الرومي الزاحف إلى حمص.

أعطت هذه التدابير نتائجها إذ منعت سكان بلاد الشام من الانضمام إلى جيش الروم فحققت بذلك مبدأ نسبية الأهداف للوسائل. أما قائد جيش الروم الذي كان يحاصر حمص، فانه، وتطبيقاً للمبدأ نفسه، ولما رأى أن ميزان القوى يميل إلى جانب المسلمين، قرّر عدم المجابهة وانسحب نحو بلاد الروم، فنجت حمص من السقوط.

هـ - أحسن أبو عبيدة في تطبيق استراتيجية «استغلال النصر» بعد تراجع جيش الروم عن حمص إذ قامت قواته بملاحقة هذا الجيش المنسحب واشتبكت معه في قتال جاءت نتيجته لمصلحتها.

وهنا لا بدّ من التأكيد على حقيقة استراتيجية عامة، وهي أن تراجع جيش في أرض العدو إثر حملة فاشلة هو عملية تكتيكية صعبة، خاصة إذا قامت وحدات العدو بملاحقة الجيش المتراجع والاشتباك معه. فالتراجع هذا ينبغي أن يخطط له وتنظم عملياته في إطار ما يسميه العسكريون «القتال التراجعي أو التأخيري»، فيقوم قسم من الجيش المتراجع بالتمركز في مواقع متتالية لحماية العظيم الذي ينسحب مبتعداً وقاطعاً تماسّه[١] مع عدوه.

و - ثمّ عمد أبو عبيدة إلى إخضاع المدن التي ساعد سكانها قائد جيش الروم في قتاله ضد المسلمين. والهدف من هذا التدبير هو تنظيف المنطقة التي يسيطر عليها أبو عبيدة من حلفاء الروم الذين قد يصبحون «طابوراً خامساً» يعمل لصالح العدو داخل المنطقة الصديقة. وبالفعل تمكّن أبو عبيدة من إعادة إخضاع الجزيرة التي اعتنق سكانها الإسلام وركز أبو عبيدة حاميات في مدنها وقلاعها خوفاً من عودتها للخروج عن طاعة المسلمين.

(١) يحقق التماس مع العدو عندما يصبح ضمن مسافة الرمي للوحدات الصديقة أي ضمن مسافة رمي السهام خلال المرحلة التي نعالجها في هذا الجزء من الموسوعة.

الفصل الثاني
فتح بيت المقدس

بعد إكمال فتح سوريا انتقل أبو عبيدة بن الجراح إلى دمشق وأقام فيها في إنتظار فتح فلسطين، ولا سيما بيت المقدس، وكانت تدعى يومذاك «إيلياء».

وبيت المقدس هي أشهر مدينة في بلاد الشام بعد دمشق، وهي كانت موطن الأنبياء، بناها داود واستكمل سليمان بناءها.

وفي المدينة عمارات كثيرة، ودروبها حجرية، وهي غنية بالفواكه والخضر، وفيها محراب مريم الذي كانت الملائكة تأتيها فيه بفاكهة الشتاء في الصيف، وبفاكهة الصيف في الشتاء. وبها محراب زكريا الذي بشرته الملائكة بيحيى، فيما كان يصلي، وبها كرسي سليمان الذي كان يدعو الله عليها.

استراتيجياً، تقع القدس في وسط فلسطين.

وكان عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة قد افتتحا مدن وقرى الأردن وفلسطين. كتب ابن خلدون عن هذه الفتوحات:(١)

«لما انصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص بعد واقعة مرج الروم نزل عمرو وشرحبيل على أهل بيسان، فافتتحها وصالح أهل الأردن، واجتمع عسكر الروم باجنادين وغزة وبيسان وعليهم أرطبون من بطارقة الروم. فسار عمرو وشرحبيل إليهم، واستخلف على الأردن أبا الأعور السَلَميّ. وكان الأرطبون قد أنزل بالرملة جنداً عظيماً من الروم وبيت

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٤٨.

المقدس كذلك. وبعث عمرو عَلقَمَة بن حكيم الفِراسِيّ، ومسروق بن العَكّيّ لقتال أهل بيت المقدس. وبعث أبا أيوب المالِكيّ إلى قتال أهل الرَملَة. وكان معاوية محاصراً لأهل قيساريّة فشغل جميعهم عنه. ثمّ زحف عمرو إلى الارطبون واقتتلوا كيوم اليرموك أو أشدّ.

وانهزم أرطبون إلى بيت المقدس، وافرج له المسلمون الذين كانوا يحاصرونها حتى دخل. ورجعوا إلى عَمرو وقد نزل أجنادين. وقد تقدّم لنا ذكر هذه الواقعة قبل اليرموك على رأي من جعلها قبلها، وهذا على قول من جعلها بعدها. ولما دخل أرطبون بيت المقدس فتح عمرو غزة. وقيل كان فتحها في خلافة أبي بكر. ثمّ فتح سبسطيّة وفيها قبر يحيى بن زكريا، وفتح نابلس على الجزية. ثمّ فتح مدينة لدّ ثمّ عَمَواس وبيت جِبْرين ويافا ورفح وسائر مدائن الأردن. وبعث إلى الأرطبون فطلب أن يصالح كأهل الشام، ويتولى العقد عمر، وكتبوا إليه بذلك».

وهكذا، وبعد أن فتح عمرو بن العاص مدن فلسطين وقراها، باستثناء القدس، سار إليها وحاصرها مشدداً الحصار عليها، وفي داخلها حامية الروم بقيادة الارطبون.

ثمّ سار أبو عبيدة بن الجراح بجيشه نحو القدس، فانضمّ إلى جيش عمرو بن العاص، وحاصر الجيشان المدينة حصاراً شديداً حتى ضجّ أهلها وطلبوا من الارطبون التفاهم مع المسلمين. فسار إلى الأسوار حيث تكلّم مع أبي عبيدة طالباً مصالحة المسلمين على صلح أهل مدن دمشق، إلاّ أنه أضاف شرطاً جديداً، وهو تسليم المدينة إلى الخليفة عمر ابن الخطاب نفسه.

روى ابن الأثير تفاصيل هذا الطلب وقدوم الخليفة عمر إلى أمام بيت المقدس وفتحها على يده، فكتب:(١)

«في هذه السنة فتح بيت المقدس – وقيل: سنة عشرة في ربيع الأول – وسبب ذلك أنه لما دخل أرطبون إيليا(٢) فتح عمرو غزة – وقيل: كان فتحها في خلافة أبي بكر، ثمّ فتح

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٤٧ – ٣٤٩.

(٢) إيليا إسم عبري معناه بيت الله.

سَبَسْطِيَةَ[1] وفيها قبر يحيى بن زكريا عليه السلام، وفتح نابلس بأمان على الجزية، وفتح مدينة لُدّ[2] ثمّ فتح تُبني[3]، وعمواس، وبيت جبرين، وفتح يافا – وقيل: فتحها معاوية – وفتح عمرو «مرج عيون». فلمّا تمّ له ذلك أرسل إلى أرطبون رجلاً يتكلّم بالرومية وقال له: «اسمع ما يقول»، وكتب معه كتاباً.

فوصل الرسول ودفع الكتاب إلى أرطبون وعنده وزراؤه فقال أرطبون: «لا يفتح والله عمرو شيئاً من فلسطين بعد أجنادين».

فقالوا له: مِنْ أين علمت هذا؟. فقال: صاحبها رجل صفته كذا وكذا وذكر صفة عمر.

فرجع الرسول إلى عمرو فأخبره الخبر فكتب إلى عمر بن الخطاب يقول: «إن أعالج عَدُوّاً شديداً وبلاداً قد ادُّخِرَت لك فرأيك».

فعلم عمر أنّ عَمراً لم يقل ذلك إلاّ بشيء سمعه فسار عمر عن المدينة.

وقيل كان سبب قدوم عمر إلى الشام أنّ أبا عبيدة حصر بيت المقدس فطلب أهله منه إن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام وأن يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب، فكتب إليه بذلك. فسار عن المدينة، واستخلف عليها عليّ بن أبي طالب. فقال له علي: أين تخرج بنفسك؟ إنّك تريد عدواً كلباً.

فقال عمر: أبادر بالجهاد قبل موت العباس إنكم لو فقدتم العباس لأنتقض بكم الشر كما ينتقض الحبل.

فمات العباس لستّ سنين من خلافة عثمان فانتقض بالناس الشر.

وسار عمر فقدم الجابية على فرس – وجميع ما قدم الشام أربع مرات، الأولى على فرس، والثانية على بعير، والثالثة على بغل، ورجع لأجل الطاعون، والرابعة على حمار. وكتب إلى أمراء الأجناد أن يوافوا بالجابية ليوم سماه لهم في الجردة ويستخلفوا على أعمالهم، فلقوه حيث رفعت لهم الجابية.

---

(١) سبسطية: بلدة من أعمال نابلس.

(٢) اللدّ: قرية قرب بيت المقدس – يقال ان عيسى بن مريم الدجال يقتل ببابها.

(٣) تُبني: بلدة بحوران من أعمال دمشق.

فكان أول من لقيه يزيد، وأبو عبيدة، ثمّ خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها وقال:

«ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم! إياي تستقبلون في هذا الزي؛ وإنما شبعتم منذ سنتين، وبالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم. فقالوا: يا أمير المؤمنين إنها يلامقة[1] وإنّ علينا السلاح. قال: فنعم إذن.

وركب حتى دخل عليه الجابية وعمرو وشرحبيل كأنهما لم يتحرّكا [مِنْ مكانهما]. فلما قدم عمر الجابية، قال له رجل من اليهود: «يا أمير المؤمنين إنّك لا ترجع إلى بلادك حتى يفتح الله عليك إيليا». وكانوا قد شجوا عَمْراً وأشجاهم ولم يقدر عليها ولا على الرملة. فبينما عمر مُعَسكر بالجابية فزع الناس إلى السلاح، فقال: ما شأنكم؟ فقالوا: ألا ترى إلى الخيل والسيوف.

فنظر فإذا كردوس يلمعون بالسيوف فقال عمر: مستأمنة فلا تُراعوا، فأمنوهم وإذا [هم] أهل إيليا وحيزها فصالحهم على الجزية وفتحوها له.

وكان الذي صالحه العوّام [من أهل إيلياء والرملة] لان أرطبون والتذارق دخلا مصر لمّا وصل عمر إلى الشام وأخذوا كتابه على إيلياء وحيزها، والرملة وحيزها. فشهد ذلك اليهودي الصلح فسأله عمر عن الدجال - وكان كثير السؤال عنه - فقال له: وما مسألتُك عنه يا أمير المؤمنين؟ أنتم والله [معشر العرب] تقتلونه دون باب لدّ ببضع عشرة ذراعاً؟

وأرسل عمر إليهم بالأمان، وجعل علقمة ابن حكيم على نصف فلسطين وأسكنه الرملة، وجعل علقمة بن مجزّز على نصفها الآخر وأسكنه إيلياء. وضمّ عمراً وشرحبيل إليه بالجابية فلقياه راكباً فقبّلا ركبته وضمّ كلّ واحدٍ منهما محتضنهما.

ثمّ سار إلى بيت المقدس من الجابية فركب فرسه فرأى به عَرَجاً فنزل عنه، وأتى ببرذون[2] فركبه فجعل يتجلجل به فنزل وضرب وجهه وقال: «لا أعلم مَنْ علّمك

(١) اليلمق: القباء المحشو.

(٢) البرذون: حصان غير عربي عظيم الخلقة والأعضاء وقوي الأرجل وعظيم الحوافر.

هذه الخُيَلاء»! ثمّ لم يركب برذوناً قبله ولا بعده.

وفتحت إيلياء وأهلها على يديه، وقيل: كان فتحها سنة ستة عشرة، ولحق أرطبون ومن أبي الصلح من الروم بمصر. فلما ملك المسلمون مصر قُتِل - وقيل: بل لحق بالروم، فكان يكون على صوائفهم والتقى هو وصاحب صائفة المسلمين ومع المسلمين رجل من قيس يقال له: ضريس فقطع يد القيسي وقتله القيسي». نهاية نص ابن الأثير.

وبعد فتح القدس كشف الخليفة عمر عن الصخرة، وأمر ببناء المسجد عليها، وانصرف الارطبون إلى مصر مع من أبى الصلح مع المسلمين. ثمّ فرق عمر بن الخطاب العطاء.(1)

نقل الطبري تفاصيل دخول عمر بن الخطاب إلى القدس، فكتب:(2)

«وعن رجاء بن حيْوة، عمّن شهد؛ قال: لما شخص عمر من الجابية إلى إيلياء، فدنا من باب المسجد، قال: ارقُوا لي كعباً. فلمّا انفرق به الباب، قال: لبّيْك، اللهم لبّيك، بما هو أحبُّ إليك! ثمّ قصد المحراب؛ محراب داود عليه السلام، وذلك ليلاً، فعلى فيه، ولم يلبث أن طلع الفجر، فأمر المؤذّن بالإقامة، فتقدّم فصلّى بالناس، وقرأ بهم «ص»، وسجد فيها، ثمّ قام، وقرأ بهم في الثانية صدْر «بني إسرائيل»، ثمّ ركع ثمّ انصرف، فقال: عليّ بكعب، فأُتِيَ به، فقال: أين ترى أن نجعل المصلّى؟ فقال: إلى الصخرة، فقال: ضاهيت والله اليهوديّة يا كعب، وقد رأيتك وخلعك نعليك، فقال: أحببت أن أباشره بقدميّ، فقال: قد رأيتُك، بل نجعل قبلته صدره، كما جعل رسول الله ﷺ قبلة مساجدنا صدورها، اذهب إليك، فإنا لم نؤمر بالصّخرة، ولكنّا أُمرنا بالكعبة. فجعل قبلته صدره، ثمّ قام من مُصلاّه إلى كُناسة قد كانت الروم قد دفنت بها بيت المقدس في زمان بني إسرائيل؛ فلمّا صار إليهم أبرزوا بعضها، وتركوا سائرها، وقال يا أيها الناس، اصنعوا كما أصنع، وجثا في أصلها، وجثا في فَرْج من فروج قبائه، وسمع التكبير من خلفه، وكان يكره سُوء الرِّعة في كلّ شيء،

(1) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٤٩ – ٩٥٠.

(2) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٥٠.

فقال: ما هذا؟ فقالوا: كبّر كعب وكبّر الناس بتكبيره فقال: عليّ به فأتي به، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنه قد تنبأ على ما صنعت اليوم نبيّ منذ خمسمائة سنة، فقال: وكيف؟ فقال: إنّ الرّوم أغاروا على بني إسرائيل فأديلوا عليهم، فدفنوه، ثمّ أديلوا فلم يفرغوا له حتى أغارت عليهم فارس فبَغوا على بني إسرائيل. ثمّ أديلت الرّوم عليهم إلى أن وَليت، فبعث الله نبياً على الكُناسة، فقال: أبشري أورى شلم، عليك الفاروق ينقّيك مما فيك. وبعث إلى القُسطنطينيّة نبيّ؛ فقام على تلّها، فقال: يا قُسطنطينيّة، ما فعل أهلك ببيتي! أخربوه وشبّهوك كعرشي؛ وتأوّلوا عليّ، فقد قضيت عليك أن أجعلك جَلْحاء يوماً ما، لا يأوي إليك أحد، ولا يستظلّ فيك على أيدي بني القاذر سَبَأ وودّان؛ فما أمسوْا حتى ما بقي منه شيء».

وأعطى الخليفة أهل القدس كتاب صلح جاء فيه:(١)

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبدُالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان؛ أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها؛ أنه لا تسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يُعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الرّوم واللصوت؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم؛ ومَن أقام منهم فهو آمن؛ وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحبّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الرّوم ويخلّي بيَعهم وصُلُبهم فإنّهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومَن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزْية، ومن شاء سار مع الرّوم؛ ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادهم؛ وعلى ما في

(١) الطبري، المرجع نفسه، ص ٤٤٩.

هذا الكتاب عهد الله وذمّة رسوله وذمّة الخلفاء وذمّة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية، شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف! ومعاوية بن أبي سفيان. وكتب وحَضَر سنة خمس عشرة».

أما الكتب إلى باقي فلسطين فجاء فيها:(١)

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل لُدّ ومَن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلُبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملّتهم؛ أنه لا تُسْكن كنائسهم ولا تُهدم ولا ينتقص منها ولا من حيّزها ولا مِللها، ولا من صُلُبهم ولا من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم؛ ولا يضارّ أحد منهم؛ وعلى أهل لُدّ ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يُعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام، وعليهم إن خرجوا مثل ذلك الشرط إلى آخر».

وبعد فتح كامل فلسطين، عين الخليفة علقمة بن حكيم على نصف فلسطين وأسكنه الرملة، وعين علقمة بن مجزّز على نصفها الثاني واسكنه إيليا، وكلف عمرو بن العاص بأن يكون أمير الجيوش التي ستزحف إلى مصر لفتحها.

نقل ابن كثير أن فتح بيت المقدس كان في السنة السادسة عشرة للهجرة.(٢)

وعن بناء المسجد نقل ابن كثير تفاصيل تفتيش الخليفة عمر بن الخطاب عن مكان الصخرة، وكيف وجدها وأمر ببناء المسجد وراءها فكتب:(٣)

«وقد روينا أن عمر حين دخل بيت المقدس سأل كعب الأحبار(٤) عن مكان الصخرة فقال: يا أمير المؤمنين اذرع من وادي جهنم كذا وكذا ذراعاً فهي ثمّ.

---

(١) الطبري، المرجع نفسه، ص ٤٤٩.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٥٦.

(٣) ابن كثير، المرجع نفسه، ص ٥٧.

(٤) كعب الأحبار هو من اليهود الذين أسلموا على يد عمر بن الخطاب.

فذرعوا فوجدوها وقد اتخذها النصارى مزبلة، كما فعلت اليهود بمكان القمامة.والمقصود أن النصارى لما حكموا على بيت المقدس قبل البعثة بنحو من ثلاثمائة سنة، طهروا مكان القمامة واتخذوه كنيسة هائلة بنتها أم الملك قسطنطين باني المدينة المنسوبة إليه، واسم أمه هيلانة الحرانية البندقانية. وأمرت ابنها فبنى للنصارى بيت لحم على موضع الميلاد، وبنت هي على موضع القبر يزعمون. والغرض أنهم اتخذوا مكان قبلة اليهود مزبلة أيضاً، في مقابلة ما صنعوا في قديم الزمان وحديثه. فلما فتح عمر بيت المقدس وتحقق موضع الصخرة، أمر بإزالة ما عليها من الكناسة حتى قيل إنه كنسها بردائه، ثمّ استشار كعباً أين يضع المسجد؟ فأشار عليه بأن يجعله وراء الصخرة، فضرب في صدره وقال: يا ابن أم كعب ضارعت اليهود: وأمر ببنائه في مقدم بيت المقدس».

وبقي الخليفة عمر في القدس خمسة أيام، من الاثنين حتى الجمعة، وروى بعض المؤرّخين أنه مكث عشرة أيام.

الدروس والعبر:

أ - خلال القتال ضد الروم في الرملة، أعاد العرب تطبيق الحركة الإفراجية التي سبق واعتمدها خالد بن الوليد بنجاح في معركة اليرموك. فقد كان قائد الروم الارطبون قد أنزل في الرملة جيشاً كبيراً تمكن العرب بقيادة عمرو بن العاص من تطويقه. حاول الروم الخروج من الطوق فدرس عمرو بن العاص الوضع فتبين له أنهم، ونظراً لكثرتهم وحسن تسليحهم، قد ينزلون خسائر جسيمة بالعرب الذين يحاصرونهم، فأمر بتنفيذ الحركة الإفراجية والسماح لهم بالخروج من الطوق.

لقد قارن عمرو بين قواته وقوات عدوه المحاصرة فوجد أن الكفة تميل إلى العدو. لذلك، وتطبيقاً لمبدأ «نسبية الأهداف للوسائل»، وخوفاً من استبسال الروم في القتال، أفرج عنهم فانضموا إلى حامية بيت المقدس.

وهنا لا بدّ من التساؤل: هل كان بإمكان الجيش الذي يقوده عمرو القضاء على الروم المحاصرين؟ وهل كان من الأفضل تركهم ينضمون إلى حامية

القدس التي عززت بهم ودافعت عن المدينة؟

إن نتائج معركة القدس تؤمن الإجابة على هذه الأسئلة، إذ أن العرب، وبعد تعزيز قواتهم بجيش أبي عبيدة بن الجراح، تمكّنوا من محاصرة مدينة القدس رغم انضمام جيش الأرطبون إلى حاميتها. ثمّ شددوا الحصار على حاميتها التي قبلت بتسليمها صلحاً.

ب – قبل الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بالتوجه إلى القدس وتسلّمها صلحاً بعد أن وضعت قيادة حاميتها شرطاً إضافياً عن شروط الصلح التي اعتمدت في بلاد الشام. وهذا الشرط يقضي بتسليم مفاتيحها للخليفة نفسه وليس لأحد قادة جيوشه.

كان بإمكان الخليفة الرفض، الأمر الذي يفرض متابعة محاصرة المدينة التي سينتهي وضعها بالسقوط بيد المسلمين. إلا أن الخليفة، ونظراً لوضع المدينة المقدّس، آثر اعتماد السياسة في حلّ هذه المسألة بدلاً من العنف. وهذا ما جنّب المدينة خسائر بالأرواح والممتلكات.

ج – قبل خروج الخليفة من المدينة المنوّرة، وبغية تجنّب الفراغ في السلطة في حال تعرضه لأخطار الطريق، استخلف على المدينة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه).

والفراغ في السلطة قد يؤدي إلى صراعات داخلية وربما إلى حرب أهلية. فعند وفاة النبيّ ﷺ كادت الأمور أن تخرج عن السيطرة في سقيفة بني ساعدة لولا إقدام وتصميم أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما). وبعد مقتل الخليفة عثمان وحصول فراغ في القيادة الاسلامية السياسية، وقعت الفتنة الكبرى في الإسلام التي سنعالج موضوعها في القسم الثاني من هذا الجزء.

لذلك، نرى أن استخلاف أحد القادة على عاصمة العالم الإسلامي يومذاك هو تدبير واقعي وصائب وحكيم.

د – كان لفتح بيت المقدس أهمية كبرى بالنسبة للمسلمين لأسباب أهمها:

١ – أهمية المدينة المقدسة التي أصبحت ثالثة الحرمين ومدينة جامعة للديانات السماوية الثلاث.

٢ - إكمال الجيوش العربية السيطرة على جنوب بلاد الشام التي كانت تشكل الطريق الإلزامي إلى مصر. وبالفعل تمكن عمرو بن العاص من متابعة الفتوحات جنوباً فسيطر على مصر وانطلقت الجيوش العربية منها لفتح شمال افريقيا. وهذا ما سنفصله في الجزء التالي من هذه الموسوعة.

٣ - إعطاء المثل عن حسن معاملة القيادة الاسلامية للمدن التي تفتح صلحاً، الامر الذي ساهم في دفع مقوقس مصر إلى التعاون مع الجيوش العربية ومساعدتها على فتح المدن المصرية.

ملحق رقم ١

سيرة الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)(١)

كتب المسعودي:

نَسَبُهُ:

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن قرط بن رياح بن عبدالله بن رزاح بن عدي بن كعب، وفي كعب يجتمع نسبه مع نسب النبي ﷺ. وأمه حنتمة بنت هشام ابن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم وكانت سوداء.

وإنما سمّي الفاروق لأنه فرق بين الحق والباطل، وكنيته أبو حفص، وهو أول من سمّي بأمير المؤمنين، سماه عديّ بن حاتم، وقيل غيره، والله أعلم.

وكان أول من سلّم عليه بها المغيرة بن شعبة، وأول من دعا له بهذا الإسم على المنبر أبو موسى الأشعري، وأبو موسى أول من كتب إليه: لعبد الله عمر أمير المؤمنين، من أبي موسى الأشعري، فلما قرىء ذلك على عمر قال: إني لعبد الله، وإني لعمر، وإني لأمير المؤمنين، والحمد لله ربّ العالمين.

المراجع: - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٢ - ٢٣.
- ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٣٤ - ١٣٥.

(١) خاض عمر بن الخطاب في عهد النبيّ ﷺ معارك عديدة. لذلك أوردنا سيرته كونه اعتبر قائداً عسكرياً قبل ان يصبح خليفة للمسلمين.

صِفاتُهُ:

وكان متواضعاً، خشن الملبس، شديداً في ذات الله، واتبعه عماله في سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه، كلّ يتشبّه به ممن غاب أو حضر. وكان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأدم وغيره، ويشتمل بالعباءة، ويحمل القربة على كتفه مع هيبة قد رزقها. وكان أكثر ركابه الإبل، ورحله مشدودة بالليف، وكذلك عماله، مع ما فتح الله عليهم من البلاد وأوسعهم من الأموال».

وكتب ابن كثير:

«كان رضي الله عنه رجلاً طوالاً أصلع أعسر أيسر أحور العينين، آدم[1] اللون. وقيل كان أبيض شديد البياض تعلوه حمرة، أشنب الأسنان[2]، وكان يصفر لحيته، ويرجل رأسه بالحناء.

واختلف في مقدار سنه يوم مات رضي الله عنه على أقوال عدتها - عشرة - فقال ابن جرير: حدثنا زيد بن أخزم ثنا أبو قتيبة عن جرير بن حازم عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال: قتل عمر بن الخطاب وهو ابن خمس وخمسين سنة. ورواه الدراوردي عن عبدالله عن نافع عن ابن عمر. وقاله عبد الرزاق عن ابن جريج عن الزهري، ورواه أحمد عن هشيم عن علي بن زيد عن سالم ابن عبدالله بن عمر، وعن نافع رواية أخرى ست وخمسون سنة. قال ابن جرير وقال آخرون: كان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، حدثت بذلك عن هشام بن محمد. ثمّ روى عن عمر الشعبي أنّه توفي وله ثلاث وستون سنة.

قلت: وقد تقدّم في عمر الصديق مثله. وروى عن قتادة أنّه قال: توفي عمر وهو ابن إحدى وستين سنة، وعن ابن عمر والزهري خمس وستون. وعن ابن عباس ست وستون، وروى ابن جرير عن أسلم مولى عمر أنّه قال توفي وهو ابن ستين سنة. قال الواقدي: وهذا أثبت الأقاويل عندنا. وقال المدائني: توفي عمر وهو ابن سبع وخمسين سنة.

(١) آدم اللون: مائل إلى السمرة.

(٢) أشنب الاسنان: في أسنانه رقة وعذوبة.

ذكر زوجاته وأبنائه وبناته

قال الواقدي وابن الكلبي وغيرهما: تزوج عمر في الجاهلية زينب بنت مظعون أخت عثمان بن مظعون فولدت له عبدالله وعبد الرحمن الأكبر، وحفصة رضي الله عنهم. وتزوّج مليكة بنت جرول فولدت له عبيد الله فطلقها في الهدنة، فخلف عليها أبو الجهم بن حذيفة، قاله المدائني.

وقال الواقدي هي أم كلثوم بنت جرول فولدت له عبيد الله وزيداً الأصغر. قال المدائني وتزوّج قريبة بنت أبي أمية المخزومي ففارقها في الهدنة، فتزوّجها بعده عبد الرحمن بن أبي بكر. قالوا: تزوّج أم حكيم بنت الحارث بن هشام بعد زوجها - حين قتل في الشام - فولدت له فاطمة ثمّ طلقها. قال المدائني وقيل لم يطلقها. قالوا: وتزوّج جميلة بنت عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح من الأوس. وتزوّج عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، وكانت قبله عند عبدالله بن أبي مليكة، ولما قتل عمر تزوّجها بعده الزبير ابن العوّام رضي الله عنهم، ويقال هي أم ابنه عياض فالله أعلم. قال المدائني: وكان قد خطب أم كلثوم ابنة أبي بكر الصديق وهي صغيرة وراسل فيها عائشة فقالت أم كلثوم: لا حاجة لي فيه، فقالت عائشة: أترغبين عن أمير المؤمنين؟ قالت: نعم، إنه خشن العيش. فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص فصده عنها ودله على أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، ومن فاطمة بنت رسول الله ﷺ. وقال تعلق منها بسبب من رسول الله ﷺ، فخطبها من علي فزوّجه إياها، فأصدقها عمر رضي الله عنه أربعين ألفاً، فولدت له زيداً ورقية. قالوا: وتزوّج لهية - امرأة من اليمن - فولدت له عبد الرحمن الأصغر، وقيل الأوسط. وقال الواقدي هي أمّ ولد وليست بزوجة. قالوا وكانت عنده فكيهة أم ولد فولدت له زينب. قال الواقدي وهي أصغر ولده. قال الواقدي وخطب أم أبان بنت عتبة بن شيبة فكرهته

---

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ٣٨٧ - ٢٨٩.

(٢) القيروان: مجموعة من الخيل - قافلة.

وقالت: يغلق بابه ويمنع خيره ويدخل عابساً ويخرج عابساً.

قلت: فجملة أولاده رضي الله عنه وأرضاه ثلاثة عشر ولداً، وهم زيد الأكبر، وزيد الأصغر، وعاصم، وعبدالله، وعبد الرحمن الأكبر، وعبد الرحمن الأوسط، قال الزبير بن بكار وهو أبو شحمة، وعبد الرحمن الأصغر وعبيد الله، وعياض، وحفصة، ورقية، وزينب، وفاطمة، رضي الله عنهم. ومجموع نسائه اللاتي تزوّجهن في الجاهلية والإسلام ممن طلقهن أو مات عنهن سبع، وهن جميلة بنت عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح، وزينب بنت مظعون، وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، وقريبة بنت أبي أمية، ومليكة بنت جرول، وأم حكيم بنت الحارث بن هشام، وأم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وأم كلثوم أخرى وهي مليكة بنت جرول. وكانت له أمتان له منهما أولاد، هما فكيهة ولهية، وقد اختلف في لهية هذه فقال بعضهم: كانت أم ولد، وقال بعضهم: كان أصلها من اليمن وتزوّجها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فالله أعلم».

الفصل الثالث
فتح مصر

تكمل مصر إقليم الشرق الأدنى جنوباً وتدخل في تكوينه نظراً إلى جغرافيتها التي تتناسب مع جغرافيته وبسبب العلاقات الوطيدة التي ربطت شعبها بشعوب بلاد الشام.

وتتميّز مصر بخصب أراضيها الزراعية في وادي النيل، وبقدم تاريخها، وباكتشافها الكتابة الهيروغليفية حوالى ٣٢٠٠ سنة قبل الميلاد. لكن ما يميّز التاريخ المصري هو مشابهته لبعضه طوال العصور "Uniformité"، بعكس تواريخ باقي الشعوب التي نلاحظ فيها تحولات هامة.

ومما لا شكّ فيه أن هناك تأثيرات غزو خارجي، لكنها طفيفة. فمصر الوسطى هي تطوّر طبيعي لمصر القديمة، ومصر بعد الهكسوس تبقى مصر الدائمة. وسبب هذه الموازاة أنّ الحضارة المصرية كانت دائماً نابعة من النيل ودائرة في فلكه.

وتنقسم مصر في صورة عامة إلى منطقتين: مصر السفلى التي تتألّف من منطقة دلتا النيل، وحوض النيل الضيق الطويل المعروف بمصر العليا، والذي تحوطه الصحراء من الجانبين.(١) وكان فيضان النيل السنوي يجلب الماء لري الأراضي، بالإضافة إلى طبقة من الطمي الرسوبي الخصيب. وكان ازدهار مصر الزراعي يعتمد على تقلّبات أحوال النهر التي كان من الممكن التنبؤ بها.

---

(١) انظر خريطة وادي النيل.

- السكان:

منذ العهد الباليوليتي القديم أي قدر ما يمكننا الصعود في التاريخ القديم، كان وادي النيل تسكنه شعوب بدائية نجهل إلى أي عرق تنتمي. لكن، ومنذ بداية العهد النيوليتي، وإثر جفاف في الصحاري، هاجرت شعوب مختلفة وسكنت بجوار الأنهر واندمجت حول النيل شعوب إفريقية مع شعوب قادمة من الشمال، من سيناء، وأخرى من الجنوب، من الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر. واندمج الساميون هؤلاء بالعرق الحامي فتشكل الشعب المصري القديم الذي اندمجت به أيضاً قبائل من النوبة. كلّ هؤلاء الساميون والحاميون والنوبيون يشكلون أصل الشعب المصري.

لقد حاولت الحضارة المصرية التغيير وتأثرت بالعوامل الخارجية خاصة بالموت الذي حاولت السيطرة عليه. وتعرّضت لمراحل إيمان وشك. وقد عرض الفن المصري منذ ٢٠٠٠ سنة قبل اليونان مشاعر الانسان وأعماله وفرحه وبؤسه، كما تعرض للحيوانات الداجنة والعصافير والأسماك والأشجار. وهذا الفن يؤثر فينا مباشرة لأنه وصلنا بواسطة الإغريق الذي تأثروا به تأثراً ظهر في أدبهم وفنهم ونقلوه لنا من خلالهما.

وفي العصور المتأخرة تعاقبت الأمم والشعوب على مصر وتمازجت مع المقيمين فيها، فسكنها الفراعنة والقبط قبل الفتح العربي. وتعرّضت لاحقاً لغزوات متعدّدة، ومن أشهر غزاتها نبوخذنصر البابلي والاسكندر المقدوني والفرس والروم الذين استطاعوا السيطرة عليها بعد أن أمر هرقل بمهاجمتها، فصمد أهلها وتحصّنوا في حصونهم.

واستمرّ حصار الروم ثلاث سنين، حتى أجهد أهلها فصالحوا هرقل على أن يدفعوا له ضريبة مقابل حمايته لهم. واختار هرقل رجلاً من الأقباط اسمه «المقوقس» جعله حاكماً لمصر من قبله، على أن يجبي الضرائب من سكانها لمصلحة البيزنطيين. ونزل المقوقس في الاسكندرية.

إلى جانب المقوقس كان قائد القوات البيزنطية في مصر في هذه الحقبة واسمه «الاعيرج» هو الحاكم الفعلي لهذه المنطقة من الشرق الأدنى.

هذا كان وضع مصر في بداية الدعوة الاسلامية. وكان النبيّ محمّد ﷺ قد كتب

إلى المقوقس ملك الاسكندرية، كما كتب إلى باقي الملوك والحكام. وجاء في الكتاب إلى المقوقس ما يلي:[1]

«بسم الله الرحمن الرحيم.

من محمّد بن عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط.

سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد،

فاني ادعوك بدعاية الاسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فعليك إثم القبط».

وارسل الكتاب مع حاطب بن أبي بلتعة الذي سلّمه إلى المقوقس الذي أرسل إلى رسول الله أربع جوارٍ، منهن مارية ام ابراهيم ابن رسول الله ﷺ. الذي توفي وهو طفلٌ.

أولاً – بدء الفتوحات في مصر

بعد أن تمّ للمسلمين فتح العراق والشام وفلسطين خاصة، وتحقيق انتصارات رائعة، اتجهت أنظارهم نحو مصر. وأهم من اتجهت أنظاره إليها الصحابي عمرو بن العاص، لا سيما أنه كان قد عرف مصر معرفة تامة قبل فتحها.

كتب ابن كثير عن ارسال عمرو بن العاص لفتح مصر:[2]

«لما استكمل عمر والمسلمون فتح الشام بعث عمرو بن العاص إلى مصر، وزعم سيف أنه بعثه بعد فتح بيت المقدس، وأردفه بالزبير ابن العوّام وفي صحبته بشر بن أرطأة، وخارجة بن حذافة وعمير بن وهب الجمحي».

وكان الخليفة عمر في الجابية، وكان عمرو ابن العاص أميراً على الجيش الإسلامي المتمركز في فلسطين بعد أن فتح بيت المقدس. وقد طلب عمرو من أمير المؤمنين الاذن بالتوجه إلى مصر لفتحها، لكن الخليفة تخوّف من الأمر، غير أن عمراً بقي يحرّضه ويزيّن له الأمر، حتى أقنعه بإرساله إليها لفتحها، فعيّنه على أربعة آلاف[3] مجاهد

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٢٨.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٩٥.

(٣) حدد البلاذري العدد بـ٣٥٠٠ وليس بأربعة آلاف، مرجع سابق، ص ٢٩٨.

ثلثهم من قبيلة «غافق»، والباقون من قبيلة «عك».

لكن البلاذري أورد رواية مختلفة، إذ ذكر أن عمراً توجه إلى مصر من دون رغبة الخليفة، فكتب:(١)

«قالوا: وكان عمرو بن العاص حاصر قَيْسارية بعد انصراف الناس من حرب اليرموك، ثمّ استخلف عليها ابنه حين ولي يزيد بن أبي سفيان ومضى إلى مصر من تلقاء نفسه في ثلثة ألف وخمس مائة. فغضب عمر لذلك وكتب إليه يوبّخه ويعنّفه على افتتانه عليه برأيه وأمره بالرجوع إلى موضع أن وافاه كتابه دون مصر، فورد الكتاب عليه وهو بالعَريش. وقيل أيضاً انّ عمر كتب إلى عمرو بن العاصي يأمره بالشخوص إلى مصر فوافاه كتابه وهو محاصر قَيْسارية، وكان الذي أتاه شريك بن عَبْدَة فأعطاه ألف دينار فأبى شريك قبولها، فسأله أن يستر ذلك ولا يُخبر به عمر.

قالوا: وكان مسير عمرو إلى مصر في سنة ١٩ فنزل العريش ثمّ أتى الفَرَماء، وبها قوم مستعدّون للقتال فحاربهم فهزمهم وحوى عسكرهم. ومضى قُدماً إلى الفسطاط فنزل جنان الرَّيحان وقد خندق أهل الفسطاط. وكان اسم المدينة إليونة فسمّاها المسلمون فسطاطاً لأنهم قالوا هذا فُسطاط القوم ومجمعهم. وقوم يقولون أنّ عمراً ضرب بها فسطاطاً فسمّيت بذلك».

أما الطبري فقد ذكر، بخلاف ذلك، ما يلي:(٢)

«حدثنا سلمة، أن عمر رضي الله عنه، حين فرغ من الشام كلها كتب إلى عمرو بن العاص أن يسير إلى مصر في جنده، فخرج حتى فتح باب إليون في سنة عشرين».

ابن خلدون من جهته كتب أنه «لما فتح عمر بيت المقدس، استأذنه عمرو بن العاص في فتح مصر فأغزاه، ثمّ اتبعه الزبير بن العوام، فساروا في سنة عشرين أو إحدى أو اثنين أو خمس...».(٣)

---

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ٢٩٨.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزئ ٢، ص ٥١٢.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٧٠.

وأما ابن الأثير فيحدد سنة فتح مصر بالسنة السادسة عشرة.(١)

الطبري أيضاً، ونقلاً عمن سبقه من المؤرّخين، كتب:(٢)

«حدثنا ابن حميد قال: افتتحنا الاسكندرية في خلافة عمر بن الخطاب سنة إحدى وعشرين، أو سنة اثنتين وعشرين...».

ومهما يكن من أمر فإن عمرو بن العاص سار نحو مصر وقرر أن يبدأ فتوحاته فيها، قرية قرية ومدينة مدينة، مطهّراً الأراضي التي سيتركها وراءه من الأعداد كي لا يهاجم من الخلف.

وكان عمرو بن العاص وجيش المسلمين قد وصلا مدينة اسمها «الفرما» فافتتحاها صلحاً، وكان سكانها عوناً للمسلمين على الروم وجيوشهم. وأقام عمرو في الفرما مدة قصيرة ثمّ تقدّم نحو بلدة «القواصر» التي افتتحها فتحاً يسيراً.(٣)

وبعد ذلك تابع المسلمون تقدّمهم حتى وصلوا مدينة «بلبيس» التي قاتلهم أهلها، فحاصر المسلمون المدينة وشدّدوا الحصار الذي بقي مدة شهر، وجد أهل المدينة بعده أن لا طاقة لهم على المقاومة ففتحوا مدينتهم صلحاً على أن يدفعوا الجزية.

وبعد بلبيس وصل عمرو أمام بلدة «أم دونين» فوجد أهلها قد تحصّنوا داخلها وقرروا المجابهة بعد أن وصلتهم فرقة من جيش المقوقس. عند ذلك طلب عمرو من أمير المؤمنين المدد، فأمدّه بأربعة آلاف مقاتل بحيث أصبح عديد جيشه ثمانية آلاف، فشدّد عمرو الحصار على أم دونين، لكنه لم يتمكّن من فتحها.

وهنا لجأ عمرو إلى استراتيجية جديدة، إذ أنه كلّف خمسمائة من فرسان المسلمين بالتسلل إلى خلف تلة مجاورة للبلدة على أن يهاجموا أهلها من الخلف عندما يبدأ القتال، وعين قائداً لهذه الفرقة «خارجة بن حذافة».

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٠٥.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥١٢.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٠٦.

وعندما بدأ القتال خرج الفرسان المسلمون من مخابئهم وهاجموا جيش الروم من الخلف، ما أدى إلى استسلام رجاله الذين رموا أسلحتهم وطلبوا الأمان مقابل الجزية والدخول في ذمة المسلمين. قبل عمرو بذلك ودخل أم دونين صلحاً.

ثانياً - فتح عين شمس أو بابليون

وعندما علم المقوقس بقدوم المسلمين إلى مصر ترك الاسكندرية واتجه إلى «عين شمس» حيث بدأ يجهّز الجيوش، فيما بقي قائد الحامية البيزنطية واسمه «الاعيرج» في الاسكندرية للدفاع عنها.

وكان في عين شمس قصر أطلق عليه اسم بابليون، وهو في موضع القاهرة اليوم. كما عرفت عين شمس لمدة طويلة باسم الفسطاط، وكانت كرسي عرش فرعون أيام يوسف، وبها قصوره وعمارات المدينة التي اندثرت تحت الرمال وقامت القاهرة على أنقاضها.

وسميت الفسطاط لكون عمرو بن العاص نصب، عندما وصل أمامها، خيمة كبيرة أي فسطاطاً. وفي ما بعد أقيم جامع عمرو بن العاص مكان الفسطاط قبل أن تُبنى حوله مدينة القاهرة.

وبعدما نزل المسلمون أمام بابليون أو عين شمس ونصبوا خيامهم، قدمت إليهم المدد من الخليفة، وقوامها أربعة آلاف مقاتل.

وكان الروم قد جعلوا خندقاً حول القصر لحمايته، ونشروا أسلاك الحديد والحسك في أفنية الماء ودعموا أبواب بيوتهم بأوتاد من الحديد.

أما المسلمون فكانوا قد نشروا قواتهم حول القصر واستعملوا المنجنيق لقصف أعدائهم بعدد كبير من القذائف، مما أوقع خسائر كبيرة في صفوف هؤلاء.

وكان في القصر قائد قوات الروم الاعيرج، إضافة إلى المقوقس وجاثليق مصر[1] أبو مريم والأسقف أبو مريام. وقد التقى عمرو بن العاص هذين الاخيرين لإقناعهما بالدخول في الإسلام، لكن

(١) أي رئيس أساقفة مصر.

الارطبون قائد جيش المقوقس لم يقبل ذلك، في حين كان المقوقس نفسه متردداً في المصالحة.

نقل ابن كثير تفاصيل القتال حول عين شمس بين المسلمين وجيوش الروم والقبط بقيادة الأعيرج والارطبون الذي كان قد فرّ من بيت المقدس بعد فتحها، فكتب:(١)

«قالوا: لما استكمل عمر والمسلمون فتح الشام بعث عمرو بن العاص إلى مصر وزعم سيف أنه بعثه بعد فتح بيت المقدس، وأردفه بالزبير بن العوام وفي صحبته بشر بن أرطاة، وخارجة بن حذافة وعمير بن وهب الجمحي. فاجتمعا على باب مصر فلقيهم أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف أبو مريام في أهل الثبات، بعثه المقوقس صاحب اسكندرية لمنع بلادهم. فلما تصافوا قال عمرو بن العاص لا تعجلوا حتى نعذر، ليبرز إلي أبو مريم وأبو مريام راهبا هذه البلاد، فبرزا إليه، فقال لهما عمرو بن العاص: أنتما راهبا هذه البلاد فاسمعا، إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق وأمره به وأمرنا به محمّد ﷺ، وأدى إلينا كلّ الذي أمر به. ثمّ مضى وتركنا على الواضحة، وكان مما أمرنا به الاعذار إلى الناس. فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه فمثلنا، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة، وقد أعلمنا أنا مفتتحوكم، وأوصانا بكم حفظاً لرحمنا منكم، وأن لكم إن أجبتمونا بذلك ذمة إلى ذمة. ومما عهد إلينا أميرنا استوصوا بالقبطيين خيراً، فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيراً، لأن لهم رحماً وذمة. فقالوا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلاّ الأنبياء معروفة شريفة، كانت ابنة ملكنا وكانت من أهل منف والملك فيهم فأديل عليهم أهل عين شمس فقتلوهم وسلبوهم ملكهم واغتربوا فلذلك صارت إلى إبراهيم عليه السلام مرحباً به وأهلاً. أمنّا حتى نرجع إليك. فقال عمرو: إن مثلي لا يخدع ولكنّ أؤجّلكما ثلاثاً لتنظرا ولتناظرا قومكما وإلا ناجزتكم. قالا: زدنا، فزادهم يوماً، فقالا: زدنا. فزادهم يوماً، فرجعا إلى المقوقس فأبى أرطبون أن يجيبهما وأمر بمناهدتهم، فقالا

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٩٥ – ٩٦.

لأهل مصر: أما نحن فسنجتهد أن ندفع عنكم ولا نرجع إليهم. وقد بقيت أربعة أيام قاتلوا وأشار عليهم بأن يبيتوا المسلمين، فقال الملأ منهم: ما تقاتلون من قوم قتلوا كسرى وقيصر وغلبوهم على بلادهم. فألح الأرطبون أن يبيتوا للمسلمين ففعلوا فلم يظفروا بشيء بل قتل منهم طائفة منهم الأرطبون. وحاصر المسلمون عين شمس من مصر في اليوم الرابع وارتقى الزبير عليهم سور البلد. فلما أحسوا بذلك خرجوا إلى عمرو من الباب الآخر فصالحوه واخترق الزبير البلد حتى خرج من الباب الذي عليه عمرو فأمضوا الصلح».

بعد الاتفاق على الصلح أعطى عمرو بن العاص أهل عين شمس كتاب أمان جاء فيه:(١)

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرّهم وبحرهم لا يدخل عليهم شيء من ذلك، ولا ينتقص ولا يساكنهم النوبة، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف وعليهم ما حق لصونهم، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة. وإن نقص نهرهم من غايته رفع عنهم بقدر ذلك ومن دخل في صلحهم من الروم والنوبة، فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا، عليهم ما عليهم أثلاثاً في كلّ ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً، وكذا وكذا فرساً على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة، شهد الزبير وعبدالله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر».

ابن الأثير، من جهته، روى رواية فتح عين شمس، فكتب:(٢)

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥١٤ - ٥١٥.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٠٦ - ٤٠٧.

«وسار عمرو، والزبير إلى عين الشمس وبها جمعهم، وبعث إلى فَرَما[1] أبرهة بن الصباح [فنزل عليها]، وبعث عوف بن مالك إلى الإسكندرية فنزل عليها، قيل: وكان الاسكندر وفرما أخوين.

ونزل عمرو بعين الشمس فقال أهل مصر لملكهم: ما تريد إلاّ قتال قوم هزموا كسرى وقيصر وغلبوهم على بلادهم؟ فلا تعرض لهم ولا تعرِّضنا، وذلك في اليوم الرابع.

[فأبى]، وناهدوهم، وقاتلوهم، فلما التقى المسلمون والمقوقس بعين الشمس واقتتلوا جال المسلمون فذمرهم عمرو فقال له رجل من اليمن: إنّا لم نخلق من [حجارة ولا] حديد فقال له عمرو: اسكت إنما أنت كلب قال: فأنت أميرُ الكلاب.

فنادى عمرو بأصحاب النبيّ ﷺ فأجابوه فقال: تقدّموا فبكم ينصر الله [المسلمين] فتقدّموا، وفيهم أبو بردة، وأبو برزة. وتبعهم الناس وفتح الله على المسلمين وظفروا وهزموا المشركين، فارتقى الزبير بن العوام سورها، فلما أحسوه فتحوا الباب لعمرو وخرجوا إليه مصالحين فقبل منهم.

ونزل الزبير عليهم عنوة حتى خرج على عمرو من الباب معهم فعقدوا صلحاً بعدما أشرفوا على الهلكة فأجروا ما أخذوا عنوة مجرى الصلح فصاروا ذمة. وأجروا مَن دخل في صلحهم من الروم والنوبة مجرى أهل مصر ومن اختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه.

واجتمعت خيول المسلمين بمصر وبنوا الفسطاط ونزلوه.

وجاء أبو مريم وأبو مريام إلى عمرو وطلبا منه السبايا التي أصيبت بعد المعركة فطردهما، فقالا: كلّ شيء أصبتموه منذ فارقناكم إلى أن رجعنا إليكم ففي ذمة.

فقال عمرو لهما: أتغيرون علينا وتكونون في ذمة؟ قالا: نعم.

فقسم عمرو بن العاص السبيَ على الناس، وتفرّق في بلدان العرب، وبعث بالأخماس إلى عمر بن الخطاب ومعها وفد، فأخبروا عمر بن الخطاب بحالهم كلّه وبما قال أبو مريم فردّ عمر عليهم سبي مَنْ لم يقاتلهم في تلك الأيام الأربعة وترك سبي من قاتلهم فردوهم».

(١) الفرما: بين العريش والفسطاط.

وفي نتيجة فتح بابليون فرّ منها المقوقس والاعيرج، فيما قتل الارطبون.

أما كتاب الصلح الذي أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر فإنه شمل ما فتح من أرض مصر، إضافة إلى عين شمس والقصر من دون الاسكندرية.

ثالثاً - فتح الاسكندرية

كانت الاسكندرية من أشهر مدن مصر خلال الحقبة المعنية بدراستنا، وقيل إن بانيها الأول هو شدّاد بن عاد، وإنّ الاسكندر المقدوني عاد وبناها مجدّداً، فدعيت بإسمه. ومن عجائب الاسكندرية المنارة وقاعدتها مربع من الصخر المنحوت، وفوقها منارة مثمّنة في أعلاها مرآة. والمدينة تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

وكان المقوقس، عندما فرّ من بابليون، قد توجّه إلى الاسكندرية. وعندما علم بكتاب الصلح الذي وجهه عمرو بن العاص إلى أهل مصر طلب من هرقل مصالحة المسلمين، لكن الامبراطور البيزنطي لم يقبل بذلك وأمره بالدفاع عن الاسكندرية. كما قيل أن المقوقس سأل عمراً أن يهادنه على الاسكندرية، فأبى عمرو إلاّ أن يختار المقوقس إحدى ثلاث: إما الإسلام أو الجزية أو الحرب.(١)

وكان عمرو بن العاص قد نزل في القصر وبابليون واستقرّت له الأمور في معظم المناطق المصرية التي افتتحها، لذلك قرر التوجّه إلى الاسكندرية لإكمال فتح مصر.

وهكذا، ترك عمرو حامية صغيرة في عين شمس وخرج إلى الاسكندرية بجيشه، بعد أن رافقه عدد كبير من القبط الذين أصلحوا له الجسر ورمّموا الطرق وأمّنوا تموين الجيش الإسلامي بالطعام والشراب، كما شارك عدد منهم في المعارك. وفي طريقه إلى الاسكندرية اصطدم عمرو بجيش من الروم كان قد قدم بالمراكب من بلاد الروم، وأعداده هائلة. والتقى الجيشان في مدينة اسمها «ترنوط» فاقتتلا قتالاً شديداً لم

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٩٧.

يصمد الروم خلاله، فخرج منه المسلمون منتصرين.(١)

وأكمل عمرو سيره نحو الاسكندرية فالتقت مقدمته بجمع من الروم في قرية اسمها «سلطيس» فهزمتهم ففروا إلى بلدة «الكريون».

أرسل عمرو في أثرهم ابنه عبدالله الذي حمل على الروم حملة قوية، رغم إصابته بجروح، فهزمهم وفروا باتجاه الاسكندرية.

وبوصوله أمام الاسكندرية إلى منطقة اسمها «بلهيب»، تحصّن أهلها وقرروا قتال المسلمين خلافاً لرأي المقوقس الذي كان يفضّل الصلح.

نقل الطبري رواية عن مخابرة صاحب الاسكندرية لعمرو بقصد الصلح، فكتب:(٢)

«قال: فلما انتهينا إلى بَلْهيب أرسل صاحب الإسكندرية إلى عمرو بن العاص: إنّي قد كنت أخرج الجزية إلى من هو أبغض إليّ منكم معشر العرب لفارس والروم، فإن أحببت أن أعطيك الجزية على أن تردّ عليّ ما أصبتم من سبايا فعلت.

قال: فبعث إليه عمرو بن العاص: إنّ ورائي أميراً لا أستطيع أن أصنع أمراً دونه، فإن شئت أن أمسِك عنك وتُمسِك عنّي حتى أكتب إليه بالذي عرضت عليّ، فإن هو قبِل ذلك منك قبلتُ، وإن أمرني بغير ذلك مضيتُ لأمره. قال: فقال: نعم. قال: فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب – قال: وكانوا لا يُخفون علينا كتاباً كتبوا به – يذكر له الذي عرض عليه صاحب الإسكندرية. قال: وفي أيدينا بقايا من سَبيهم. ثمّ وقفنا ببلْهيب؛ وأقمنا ننتظر كتاب عمر حتى جاءنا؛ فقرأه علينا عمرو وفيه: أما بعد؛ فإنه جاءني كتابك تذكر أنّ صاحب الإسكندرية عرض أن يعطيك الجزية على أن تردّ عليه ما أصيب من سبايا أرضه؛ ولعمري لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحبّ إليّ من فيء يقسَم، ثمّ كأنّه لم يكن؛ فاعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية؛ على أن تُخيّروا مَن في أيديكم من سبْيهم بين الإسلام وبين دين قومه، فمن اختار منهم الاسلام فهو من

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٠٧.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥١٣.

المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم. ومن اختار دين قومه، وُضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه. فأما من تفرّق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكّة والمدينة واليمن، فإنّا لا نقدر على ردّهم، ولا نحبّ أن نصالحه على أمر لا نفي له به. قال: فبعث عمرو إلى صاحب الإسكندرية يعلمه الذي كتب به أمير المؤمنين».

أما ابن كثير فنقل رواية عن مصالحه عمرو للمقوقس، فكتب:(١)

«ثمّ أرسل عمرو جيشاً إلى اسكندرية - وكان المقوقس صاحب الإسكندرية قبل ذلك يؤدي خراج بلده وبلد مصر إلى ملك الروم - فلما حاصره عمرو بن العاص جمع أساقفته وأكابر دولته وقال لهم: إن هؤلاء العرب غلبوا كسرى وقيصر وأزالوهم عن ملكهم ولا طاقة لنا بهم. والرأي عندي أن نؤدي الجزية إليهم. ثمّ بعث إلى عمرو بن العاص يقول: إني كنت أؤدّي الخراج إلى من هو أبغض إليّ منكم - فارس والروم - ثمّ صالحه على أداء الجزية، وبعث عمرو بالفتح والأخماس إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وذكر سيف أن عمرو بن العاص لما التقى مع المقوقس جعل كثير من المسلمين يفر من الزحف فجعل عمر يزمرهم(٢) ويحثهم على الثبات: فقال له رجل من أهل اليمن: إنما لم نخلق من حجارة ولا حديد. فقال له عمرو: اسكت فإنما أنت كلب. فقال له الرجل فأنت إذاً أمير الكلاب. فأعرض عنه عمرو ونادى يطلب أصحاب رسول الله ﷺ، فلما اجتمع إليه من هناك من الصحابة قال لهم عمرو: تقدّموا فبكم ينصر الله المسلمين - فنهدوا إلى القوم ففتح الله عليهم وظفروا أتم الظفر. قال سيف: ففتحت مصر في ربيع الأول من سنة ست عشرة وقام فيها ملك الإسلام ولله الحمد والمنة. وقال غيره: فتحت مصر في عشرين، وفتحت اسكندرية في سنة خمس وعشرين بعد محاصرة ثلاثة أيام عنوة، وقيل صلحاً على اثني عشر ألف دينار. وقد ذكر أن المقوقس سأل من عمرو أن يهادنه أولاً، فلم يقبل عمرو وقال له: قد

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٩٦ - ٩٧.

(٢) يزمر: يحث.

علمتم ما فعلنا بملككم الأكبر هرقل. فقال المقوقس لأصحابه صدق فنحن أحق بالإدعان. ثمّ صالح على ما تقدم. وذكر غيره أن عمراً والزبير سارا إلى عين شمس فحاصراها وأن عمراً بعث إلى الفرما أبرهة بن الصباح، وبعث عوف بن مالك إلى الإسكندرية فقال كلّ منهما لأهل بلده: إن نزلتم فلكم الأمان. فتربّصوا ماذا يكون من أهل عين شمس، فلما صالحوا صالح الباقون: وقد قال عوف بن مالك لأهل اسكندرية. ما أحسن بلدكم؟ فقالوا: إن اسكندر لما بناها قال: لأبنينّ مدينة فقيرة إلى الله غنية عن الناس. فبقيت بهجتها. وقال أبرهة لأهل الفرما، ما أقبح مدينتكم؟ فقالوا إن الفرما - وهو أخو الاسكندر - لما بناها قال لأبنينّ مدينة غنية عن الله فقيرة إلى الناس. فهي لا يزال ساقطاً بناؤها فشوهت بذلك».

وبالفعل، نفّذ القبط ما طلبه منهم عمرو من ضمانة للجسرين وإقامة الانزال والضيافة والاسواق والجسور ما بين عين شمس والاسكندرية، فصالحهم. إلا أن الروم تابعوا المقاومة داخل الإسكندرية، فشدّد المسلمون الحصار عليهم.

وأخذ القتال بين المسلمين وحامية الإسكندرية من الروم طابع المناوشات المتعدّدة التي كانت سجالاً بين الجانبين. كما جرت مبارزات فردية بينهما.

وفي أحد الأيام احتدم القتال واقتحم المسلمون الاسكندرية محاولين السيطرة عليها، لكن حاميتها صدّتهم وطردتهم خارجها.

وطال حصار المسلمين للاسكندرية حتى بلغ ثلاثة أشهر وفق ابن خلدون[1] وابن كثير،[2] ما دفع أمير المؤمنين للكتابة إلى عمرو يستحثه على فتحها.

بعد كتاب الخليفة، قرر عمرو الانتهاء من الاسكندرية، فعقد لواء الحرب لعبّادة بن الصامت، الذي أخذ يصف الصفوف ويوزع القوات تمهيداً لمهاجمة المدينة. وطلب عبّادة

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٧٢.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٩٧.

من المسلمين أن لا يتقدّم أحد إلا عندما يعطي الأمر بذلك.

وكان الروم قد اصطفوا مقابل المسلمين وأغار قسم منهم عليهم، ما دفع بعبّادة إلى إصدار أوامره بالهجوم العام على صفوف الروم نهار الجمعة في الأول من محرم السنة عشرين للهجرة، فاشتبك الجيشان في قتال عنيف أبلى فيه المسلمون بلاءاً حسناً جعل الروم ينسحبون إلى حصونهم. لكن المسلمين شدوا في أثرهم فدخلوا الإسكندرية وتابعوا القتال داخلها.

عند هذا الحد راح الروم يستسلمون، بعدما هرب قسم كبير منهم وقتل قسم آخر.

ودخل عمرو الإسكندرية بعد أن فتحت عنوة، وركز حامية صغيرة فيها، ثمّ خرج منها مع قواته ملاحقاً المنسحبين من الروم فأسر قسماً منهم وقتل قسماً آخر.

إنما، في هذه الأثناء، علم الروم الذين في البحر أن أعداد المسلمين داخل المدينة قليل، فهاجموها واحتلوها وقتلوا حاميتها، ثمّ أقفلوا أبوابها. وهذا ما دفع بعمرو بن العاص إلى إعادة فتحها عنوة حيث دخلها وطرد الروم منها، وكان دخوله الثاني إليها من باب «قنصرة سليمان».(١)

وبعد فتح الاسكندرية جمع عمرو الانفال والغنائم والسبي فوزع أربعة أخماسها على المقاتلين وأرسل الخمس إلى المدينة مع معاوية بن حديج.(٢)

وبعد ورود جواب الخليفة حول اقتراح المقوقس للصلح عرض عمرو ذلك على صاحب الاسكندرية فأجاب إليه، فجمعوا السبي، واجتمعت النصارى وخيّروهم واحداً واحداً، فمن اختار المسلمين كبروا، ومن اختار النصارى جزعوا عليه وسار عليه جزية حتى فرغوا.

وبفتح الإسكندرية يكون عمرو بن العاص قد أحكم سيطرته على القسم الشرقي من مصر.

كتب ابن خلدون عن فتح مصر والاسكندرية ما يلي:(٣)

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ٣١٠.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٩٦.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ٩٧٢ - ٩٧٣.

«قال: فدخل في ذلك أهل مصر كلّهم وقبلوا الصلح، ونزل المسلمون الفسطاط. وجاء أبو مريم الجاثليق يطلب السبايا التي بعد المعركة في أيام الأجل، فأبى عمرو من ردّها وقال: أغاروا وقاتلوا وقسمتهم في الناس. وبلغ الخبر إلى عمر فقال: من يقاتل في أيام الأجل فله الأمان. وبعث فيهم إلى الدقاق فردّهم عليهم. ثمّ سار عمرو إلى الإسكندرية، فاجتمع له من بينها وبين الفسطاط من الروم والقبط، فهزمهم وأثخن فيهم. ونازل الإسكندرية وبها المقوقس، وسأله الهدنة إلى مدة فلم يُجبه، وحاصرهم ثلاثة أشهر ثمّ فتحها عَنوَةً وغنم ما فيها وجعلهم ذمة. وقيل أن المقوقس صالح عمراً على اثني عشر ألف دينار على أن يخرج من يخرج ويقيم من يقيم باختيارهم وجعل عمرو فيها جنداً. ولما تمّ فتح مصر والإسكندرية أغزى عمرو العساكر إلى النوبة فلم يظفروا، فلما كان أيام عثمان وعبدالله بن أبي سرح على مصر صالحهم على عدة رؤوس في كلّ سنة ويهدي إليهم المسلمون طعاماً وكسوة فاستمرّ ذلك فيما بعد».

رابعاً – فسطاط عمرو

أراد عمرو بن العاص أن يسكن الإسكندرية، نظراً إلى أهميتها وأهمية مساكنها، ويعتمدها كمركز قيادة المسلمين، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك. وكان جواب عمر أن لا يجعل بينه وبين المسلمين ماءاً، أكان خلال فصلي الصيف أم الشتاء. لذلك قرّر عمرو التوجه نحو عين شمس حيث كان قد نصب فسطاطه.

أمر عمرو ببناء جامع مكان الفسطاط[١] فاختار المسلمون أرضاً واسعة حولها حدائق وبساتين وأقاموا بناء الجامع ووجهوه نحو القبلة، وكان ذلك في السنة الحادية والعشرين للهجرة.

(١) للفسطاط قصة طريفة رواها المؤرّخون وهي انه عندما أمر عمرو بنزع الفسطاط للسير نحو الإسكندرية، وجد المسلمون ان يمامة قد بنت عشاً وفرّخت صغارها، فأمر عمرو بإبقاء الفسطاط منصوباً. وعندما عاد المسلمون سألوا عمراً: أين تنزل؟ فقال: في الفسطاط – ومنذ ذلك الحين عرف المكان بهذا الإسم.

وبنى عمرو منزله مقابل الجامع، ثمّ أخذ كلّ مسلم أو جماعة من المسلمين يختارون أمكنة ويبنون فيها منازل لهم.

وهكذا عمرت مدينة الفسطاط وكثر سكانها وضُمّت عين شمس والقصر والجيزة إليها.

وفي عهد الخلافة الفاطمية قام جوهر، قائد المعزّ الذي احتل مصر، ببناء مدينة القاهرة التي ضمت الفسطاط والجيزة وعين شمس، وأمست لاحقاً أجمل وأكبر مدينة في مصر.

خامساً – الدروس والعبر

أ – أحسن الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بتعيين عمرو بن العاص قائداً للحملة المتجهة لفتح مصر نظراً لمعرفة هذا الأخير بأرض مصر وعادات شعبها إذ كان قد زادها مرات عدّة قبل الإسلام.

كما أحسن عمرو بن العاص باتّباع استراتيجية فتح مدينة اثر مدينة مع تنظيف الأراضي التي سيتركها وراءه من الاعداء، وذلك تحقيقاً لحرية عمله ولحماية مؤخرة جيشه ومنعاً لتعرضه إلى مفاجآت غير محمودة النتائج.

ب – تطبيقاً لمبدأ الحرب الأول (نسبية الأهداف للوسائل) ولميزان القوى، وبعد أن قارن عمرو بن العاص بين قواته وقوات القبط في بلدة أم دونين التي عزّزها المقوقس بفرقة من جيشه، طلب مدداً من الخليفة الذي أمدّه بأربعة آلاف مقاتل أعادوا التوازن بين الجيشين المتقابلين.

ج – وبعد أن حقّق مبدأ الحرب الأول، عمل على تحقيق المبدأ الثاني أي حرية العمل من خلال مفاجأة خصمه بكمين هاجمه من الخلف بعد بدء المعركة بين الفريقين.

وهذا ما دفع أهل أم دونين إلى طلب الأمان مقابل الجزية فتوصّل القائد العربي إلى بلوغ هدفه بأقل خسائر ممكنة. فكما سبق وأوردنا «أن الحرب هي متابعة السياسة بوسائل أخرى، أي بالعنف». وأن «الهدف السياسي هو الغاية، فيما الحرب هي الوسيلة، ولا يمكن تصوّر الوسيلة مستقلة عن الغاية».(١)

(١) CLAUSEWITZ, De la guerre, Ed. de Minuit, Paris, p 59 - 67.

لذلك، على القائد توقيف القتال عند بلوغ غايته وتحقيق هدفه.

د - اعتمد عمرو بن العاص في المفاوضة مع الأقباط أسلوب الترغيب والترهيب، فحاول أولاً ثنيهم عن الحرب والتقرّب منهم. ومما قاله لهم: «أن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيراً، لأن لهم رحماً وذمة». وبذلك حاول عمرو التفريق بين فريقي الصراع ضده في مصر، أي القبط والروم تمشياً مع سياسة «فرّق تسد». وقد نجح جزئياً في ذلك إذ أن المقوقس مال إلى الصلح في وقت رغب قائد القبط العسكري الارطبون في القتال.

هـ - بعد انتصاره في عين شمس، جاء كتاب الصلح الذي أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر رحوماً، الأمر الذي دفع القبط إلى الميل لمصالحة المسلمين. وبالفعل ساهم هؤلاء في تسهيل فتح مدن مصر الواحدة تلو الأخرى رغم مقاومة الروم الشرسة.

فمن مبادىء علم النفس العسكري وفن القيادة قاعدة تطمين العدو المتردّد بين المقاومة والاستسلام، ودفعه إلى تفضيل الحل الثاني الذي يجنّبه ويلات القتال وأخطار سقوط مراكزه عنوة بيد عدوه مع ما يتبع ذلك من قتل وتدمير وقهر. وهذا ما قام به القائد العربي الكبير عمرو بن العاص.

أعطت هذه السياسة السمحة نتائجها إذ إنّ المقوقس الذي فرّ من بابليون وعين شمس إلى الإسكندرية طلب من هرقل مصالحة المسلمين. كما انضمّت إلى الجيش العربي الزاحف إلى الإسكندرية مجموعات من الأقباط الذين أصلحوا الجسر ورمّموا الطرق وأمّنوا تموين الجيش الإسلامي بالتغذية، وشارك عدد منهم في المعارك.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن سياسة عمرو تجاه القبط ليست السبب الوحيد الذي دفعهم إلى التعاون مع المسلمين. فالخلافات الدينية والعقائدية بين الطائفة القبطية الشرقية، التي نادى علماؤها بطبيعة السيد المسيح الواحدة، وبين الامبراطورية البيزنطية صاحبة الدين الارثوذكسي القويم كان لها أيضاً دور في التفرقة بين شعب مصر والسلطة التي تحكمه.

و - خلال سير الجيش العربي نحو الاسكندرية حقّق عمرو بن العاص مبدأ

الحرب الأول (نسبية الأهداف للوسائل) بتركه حامية صغيرة في عين شمس وتوجيه عظيم الجيش لتنفيذ المهمة الجديدة. كما أحسن تطبيق مبدأ حرية العمل بإزالته العوائق العسكرية بين عين شمس والإسكندرية بهدف عدم تعريض مؤخرة الجيش الذي يحاصر المدينة للأخطار.

ز - بعد فتح الإسكندرية أخطأ عمرو بن العاص بترك حامية صغيرة فيها كونه لم يأخذ بعين الاعتبار سيطرة الروم على البحر وإمكانية مهاجمتهم للمدينة منه.

كما سبق القول، سيطر المسلمون على شرق مصر، لكن غربها وجنوبها لم يكونا قد فتحا بعد. لذلك أصبح على عمرو ابن العاص متابعة الفتوحات في إتجاه غرب مصر وجنوبها، ولاحقاً في إتجاه شمال أفريقيا والمغرب.

وبالفعل، كان عمرو بن العاص، بعد دخوله إلى أرض مصر، قد أرسل عدداً من القادة إلى مختلف نواحي البلاد لإكمال فتحها، ذكرهم البلاذري إذ كتب:(١)

«وحدّثني أبو أيوب الرّقي قال: حدّثني عبد الغفّار الحرّاني عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب عن الجَيشاني، قال سمعت جماعة ممّن شهد فتح مصر يخبرون أنّ عمرو بن العاصي لمّا فتح الفسطاط، وجّه عبدالله بن حُذافة السّهمي إلى عين شمْس، فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفُسطاط. ووجّه خارجة بن حُذافة العَدَويّ إلى الفيُّوم والأُشمونَين وإخميم والبَشْرُودات وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك. ووجّه عُمَير بن وهب الجُمَحي إلى تِنّيس ودِمْياط وتُونَة ودَميرة وشَطا ودِقَهْلَة وبَنَا وبُوصير، ففعل مثل ذلك. ووجّه عُقْبَة بن عامر الجُهَني ويقال وَردان مولاه صاحب سوق وَرْدان بمصر إلى سائر قرى أسفل الأرض ففعل مثل ذلك، فاستجمع عمر بن العاصي فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج».

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ٣٠٤.

وأخذ عمرو يستعلم عن القرى المحيطة بالفسطاط ويوجه الفرق نحوها، فراحت تفتتح هذه المناطق الجديدة.

أولاً – فتح الفيّوم

علم عمرو بن العاص أن مدينة اسمها الفيُّوم تقع في مكان غير محدّد بدقة في صعيد مصر، فاختار قائداً لفرقة الفرسان التي أرسلها إلى الفيّوم ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصدقي، وكلّف أحد الأقباط الذين اعتنقوا الإسلام القيام بدور الدليل.

سلكت الحملة طرقاً صعبة جداً احتجّ المسلمون على سلوكها، خاصة أنهم تأخروا في العثور على بلدة الفيّوم التي بلغوها أخيراً وهاجموها، فاستسلم أهلها فصالحهم ربيعة على دفع الجزية. وهكذا فتحت الفيّوم صلحاً.

ثانياً – فتح برقة

قرر عمرو بن العاص الخروج بنفسه للغزو، واختار مدينة برقة، في مصر الغربية. وكانت تقطن في برقة جماعات من بربر افريقيا من قبيلة «لواتة».

كتب البلاذري عن غزو برقة (أو انسطابُلُس): (١)

«حدّثني محمّد بن سعد، عن الواقدي، عن شُرَحْبيل بن أبي عَوْن، عن عبدالله بن هُبَيْرَة قال لمّا فتح عمرو بن العاص الإسكندرية سار في جنده يريد المغرب حتّى قدم بَرْقَة، وهي مدينة انْطابُلُس، فصالح أهلها على الجزية وهي ثلاثة عشر ألف دينار يبيعون فيها من أبنائهم من أحبّوا بيعه. حدّثني بكر بن الهَيْثم، قال حدّثنا عبدالله ابن هُبَيرة قال: صالح عمرو بن العاص أهل انْطابُلُس ومدينتها بَرْقَة وهي بين مصر وافريقية بعد أن حاصرهم وقاتلهم على الجزية، على أن يبيعوا من أبنائهم من أرادوا في جزيتهم، وكتب لهم بذلك كتاباً.

حدّثني محمّد بن سعد، عن الواقدي، عن مَسلَمة بن سعيد، عن اسحق بن عبدالله ابن أبي فَرْوَة قال: كان أهل برقة يبعثون بخراجهم إلى والي مصر من غير أن يأتيهم حاثّ أو مستحثّ فكانوا أخصب قوم

(١) البلاذري، مرجع سابق، صفحة ٣١٤ – ٣١٥.

بالمغرب، ولم يدخلها فتنة. قال الواقدي وكان عبدالله بن عمرو بن العاصي يقول: لولا مالي بالحجاز لنزلت برقة فما أعلم منزلاً أسلم ولا أعزل منها».

وهكذا، حاصر عمرو بن العاص برقة التي استسلمت من دون قتال ودخلت في ذمة المسلمين لقاء الجزية، ففرض على أهلها ثلاثة عشر ألف دينار.

ثالثاً – فتح زويلة

مكث عمرو بن العاص مدة وجيزة في برقة، حيث وجّه منها جيشاً بقيادة عقبة بن نافع الفهري[1] إلى زويلة التي يقطنها البربر أيضاً. كتب البلاذري عن فتح زويلة:[2]

«وحدّثني بكر بن الهيثم، قال حدّثنا عبدالله بن صالح عن معاوية بن صالح قال: كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطّاب يعلمه أنّه قد ولّى عُقبة بن نافع الفِهْري المغرب، فبلغ زَويلَة، وأنّ من بين زويلة وبَرْقة سلم كلّهم حسنة طاعتهم قد أدّى مسلمهم الصدقة وأقرّ معاهدهم بالجزية. وانّه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى انّهم يطيقونه، وأمر عمّاله جميعاً ان يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردّوها في الفقراء، ويأخذوا الجزية من الذمّة فتحمل إليه بمصر، وأن يُؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر، ومن أهل الصلح صلحهم.

وحدّثني بكر بن الهَيثم قال سألت عبدالله بن صالح عن البربر فقال هم يزعمون أنّهم ولد برّ بن قيس وما جعل الله لقيس ولداً يقال له برّ، وإنّما هم من الجبّارين الّذين قاتلهم داود وكانت منازلهم على أيادي الدهر فلسطين، وهم أهل عَمود، فأتوا المغرب فتناسلوا به. حدّثنا أبو عبيد القاسم بن سلاّم قال: حدّثنا عبدالله بن صالح عن اللّيث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب أنّ عمرو بن العاص كتب في شرطه على أهل لَوَاتة من البربر من أهل برقة، أنّ عليكم أن تبيعوا أبناءكم ونساءكم فيما

(١) عقبة بن نافع هو من أبرز القادة الذين ساهموا بفتح المغرب.

(٢) البلاذري، مرجع سابق، ص ٣١٥.

عليكم من الجزية. قال الليث فلو كانوا عبيداً ما حلّ ذلك منهم. وحدّثني بكر بن الهيثم، قال حدثنا عبدالله بن صالح عن ابن لَهِيْعَة، عن يزيد بن أبي حبيب أنّ عمر ابن عبد العزيز كتب في اللّواتيّات أنّ من كانت عنده لواتية فليخطبها إلى أبيها أو فليردها إلى أهلها، قال ولواتَة قرية من البربر كان لهم عهد».

رابعاً - فتح طرابلس

بعد برقة اتجه عمرو بن العاص غرباً نحو طرابلس[1]، وهي مدينة ساحلية محصّنة جداً ويحوطها سور عالٍ من جهات الشرق والجنوب والغرب، فيما يمتدّ البحر في شمالها.

مكث عمرو شهراً يحاصر طرابلس.

كتب البلاذري عن غزو طرابلس:[2]

«فحدّثني بكر بن الهيثم عن عبدالله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، قال سار عمرو بن العاص حتّى نزل أَطْرَابُلُس في سنة ٢٢ فقوتل ثمّ افتتحها عنوة، وأصاب بها أحمال بزيون كثيرة مع تجار من تجارها فباعه وقسم ثمنه بين المسلمين، وكتب إلى عمر بن الخطّاب إنّا قد بلغنا طرابلس، وبينها وبين افريقية تسعة أيّام فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل. فكتب إليه ينهاه عنها ويقول ما هي بافريقية ولكنّها مفرقة غادرة مغدور بها. وذلك أنّ أهلها كانوا يؤدّون إلى ملك الروم شيئاً فكانوا يغدرون به كثيراً، وكان ملك الاندلس صالحهم، ثمّ غدر بهم وكان خبرهم قد بلغ عمر».

أما طريقة فتح طرابلس رغم سورها المرتفع فقد كان للمدّ والجزر في البحر المتوسّط دور فيها. ففيما كان المسلمون يفكرون في طريقة لاقتحام الأسوار خرج بعضهم لناحية البحر. وصدف أن كان ذلك وقت المدّ وانحسار الماء عن اليابسة وعن سور المدينة. وهكذا أصبح في إمكان المسلمين مهاجمة

(١) هي حالياً عاصمة ليبيا وتدعى طرابلس الغرب تمييزاً لها عن طرابلس لبنان.

(٢) البلاذري، مرجع سابق، ص ٣١٦.

المدينة من جهة البحر، وبالتالي مفاجأة سكانها.

وهذا ما حصل بالفعل، إذ أن المسلمين دخلوا المدينة، الأمر الذي فاجأ الروم فراحوا يفرون في اتجاه السفن ويغادرون طرابلس التي دخلها المسلمون عنوة وغنموا منها غنائم كثيرة.

وبعد طرابلس تابع عمرو بن العاص غرباً، ففتح مدينة نبارة صلحاً، فيما قاومت مدينة سَبْرُت فاقتحمها المسلمون وقضوا على عدد كبير من حاميتها وغنموا منها غنائم كثيرة.

وأراد عمرو متابعة تقدّمه في شمال افريقيا غرباً، لكن الخليفة نهاه عن ذلك.(١)

خامساً – قتال بلاد النوبة

تقع بلاد النوبة جنوبي مصر، ويحدّها السودان جنوباً، وتسكنها أقوام طوال القامة، شديدو السواد ويشتهرون بدقّة الرمي بالنبال، كونهم يستعملونها للصيد الذي يعتاشون منه.

وعندما رفض الخليفة عمر بن الخطاب السماح لعمرو بن العاص بغزو افريقيا، تطلع هذا الأخير إلى غزو بلاد النوبة، وذلك بعد أن عاد من طرابلس إلى الفسطاط حيث راح يدير شؤون مصر ويجبي خراجها وجزيتها ويقيم فيها الطرق والجسور والقنوات وما شابه.

جهّز عمرو فرقة كبيرة وأرسلها إلى النوبة، لكنها لم تحقق أي نصر، بل هُزمت وعادت إلى الفسطاط.(٢)

كتب البلاذري عن هذه الغزوة ما يلي:(٣)

«حدّثني محمّد بن عمر الواقدي، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، قال: لمّا فتح المسلمون مصر بعث عمرو بن العاصي إلى القرى الّتي حولها الخيل ليطأهم، فبعث عُقبة بن نافع الفِهري وكان نافع أخا العاص لأمه، فدخلت خيولهم

(١) البلاذري، المرجع نفسه، ص ٣١٥.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٧٢.
(٣) البلاذري، مرجع سابق، ص ٣٣١.

أرض النوبة كما تدخل صوائف الروم، فلقي المسلمون بالنوبة قتالاً شديداً، لقد لاقوهم فرشقوهم بالنبل حتّى جرح عامّتهم، فانصرفوا بجراحات كثيرة وحدق مفقودة، فسمُّوا رُماة الحدق. فلم يزالوا على ذلك حتّى وليّ مصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح فسألوه الصلح والموادعة فأجابهم إلى ذلك على غير جزية، لكن على هدنة ثلاثمائة رأس في كلّ سنة، وعلى أن يهدي المسلمون إليهم طعاماً بقدر ذلك.

حدّثني محمّد بن سعد قال: حدّثني الواقدي قال حدّثنا ابراهيم بن جعفر، عن عمرو بن الحارث، عن أبي قَبيل حُيَيّ بن هاني المَعافِري، عن شيخ من حِميَر قال شهدتُ النوبة مرّتين في ولاية عمر بن الخطّاب فلم أر قوماً أحدّ في حرب منهم، لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم أين تُحِبّ أن أضع سهمي منك فربّما عبث الفتى منّا، فقال في مكان كذا فلا يخطئه. كانوا يكثرون الرمي بالنبل، فما يكاد يرى من نبلهم في الأرض شيء. فخرجوا إلينا ذات يوم فصافّونا، ونحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف فما قدرنا على معالجتهم، رمونا حتّى ذهبت الأعين فعُدّت مائة وخمسين عيناً مفقوءة. فقلنا ما لهؤلاء خير من الصلح، إنّ سلبهم لقليل، وأنّ نكايتهم لشديدة، فلم يصالحهم عمرو ولم يزل يكالبهم حتّى نزع وولي عبدالله بن سعد بن أبي سرح فصالحهم.

قال الواقدي: وبالنوبة ذهبت عين معاوية ابن حُدَيج الكِنْدي وكان أعور.

حدّثنا أبو عبيد القاسم بن سلاّم قال حدّثنا عبدالله بن صالح، عن ابن لَهِيْعَة، عن يزيد بن أبي حبيب قال: ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق، إنّما هي هدنة بيننا وبينهم على أن نعطيهم شيئاً من قمح وعدس، ويعطونا رقيقاً، فلا بأس بشراء رقيقهم منهم أو من غيرهم.

حدّثنا أبو عبيد، عن عبدالله بن صالح، عن الليث بن سعد قال: إنّما الصلح بيننا وبين النوبة على أن لا نقاتلهم ولا يقاتلونا، وأن يعطونا رقيقاً ونعطيهم بقدر ذلك طعاماً، فإن باعوا نساءهم وأبناءهم لم أر بذلك بأساً أن يشترى. ومن رواية أبي البُحتري وغيره، أنّ عبدالله بن عبدالله بن سعد بن أبي سرح، صالح أهل النوبة على أن يهدوا في

السنة أربعمائة رأس يخرجونها يأخذون بها طعاماً».

وقد أطلق على تلك الغزوة اسم «ذات الأحداق» ودعي رجال النوبة «رماة الأحداق» للسبب المشار إليه.

سادساً – فتح الاسكندرية الثاني

فتحت الاسكندرية على يد عمرو بن العاص، وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد ولاه على مصر. وفي السنة الثالثة والعشرين للهجرة اغتيل الخليفة عمر على يد أبي لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة كما سبق ذكره وأصبح عثمان بن عفان خليفة، فأقرّ عمرو بن العاص على ولاية مصر وعبدالله بن سعد ابن أبي سرح[1] على ولاية افريقيا، وكان قد ولاّه عليها الخليفة عمر.

واعتمد عمرو بن العاص طريقة إرسال السرايا والحملات نحو شمال افريقيا بقصد الغزو وليس الفتح، كون الخليفة عمر بن الخطاب لم يسمح بمتابعة الفتوحات غرباً. وبقي عمرو على هذا المنوال إلى أن عزله عثمان وكلف ابن أبي سرح بولايتي مصر وافريقيا.

نقل الطبري أن عثمان أراد إبقاء عمرو أميراً على الحرب، على أن يكون عبدالله الوالي على مصر، فرفض عمرو.[2]

كتب البلاذري عن هذه التغييرات:[3]

«قالوا: ولمّا ولّى عمرو مولاه وَردان الاسكندرية ورجع إلى الفسطاط فلم يلبث إلاّ قليلاً حتّى أتاه عزله فولّى عثمان بعده، عبدالله بن لُؤَيّ، وكان أخا عثمان من الرضاعة، وكانت ولايته في سنة ٢٥. ويقال: إنّ عبدالله بن سعد، كان على خراج مصر من قبل عثمان، فجرى بينه وبين عمرو كلام فعزله عثمان وجمع العملين لعبدالله بن سعد. وكتب إليه يعلمه أنّ الاسكندريّة فتحت مرّة عنوة وانتقضت مرّتين، ويأمره أن يلزمها رابطة لا تفارقها وأن يدرّ عليهم الأرزاق ويعقب بينهم في كلّ ستّة أشهر.

(١) عبدالله بن أبي سرح هو شقيق الخليفة عثمان بن عفان بالرضاعة.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥١٦.

(٣) البلاذري، مرجع سابق، ص ٣١٢ – ٣١٤.

وحدّثني محمّد بن سعد عن الواقدي أنّ ابن هُرمز الأعرج القارىء كان يقول خير سواحلكم رباطاً الاسكندرية، فخرج إليها من المدينة مرابطا فمات بها سنة ١١٧.

وحدّثني بكر بن الهَيثَم، عن عبدالله بن صالح، عن موسى بن عليّ، عن أبيه قال: كانت جزية الاسكندرية ثمانية عشر ألف دينار، فلمّا كانت ولاية هشام بن عبدالملك بلغت ستّة وثلاثين ألف دينار.

حدّثني عمرو، عن ابن وهب، عن ابن لُهَيعَة، عن يزيد بن أبي حبيب قال: كان عثمان عزل عمرو بن العاصي عن مصر، وجعل عليها عبدالله بن سعد. فلمّا نزلت الروم الاسكندرية سأل أهل مصر عثمان أن يقرّ عمراً حتّى يفرغ من قتال الروم لأنّ له معرفة بالحرب وهيبة في أنفس العدوّ ففعل حتّى هزمهم. فأراد عثمان أن يجعل عمراً على الحرب، وعبدالله على الخراج فأبى ذلك عمرو وقال: أنا كماسك قرني البقرة، والأمير يحلبها. فولّى عثمان ابن سعد مصر».

خلال هذه التبديلات أرسل الروم إلى الاسكندرية بحراً جيشاً كبيراً بقيادة «مانويل» انضم إليه الروم الموجودون فيها، فيما بقي المقوقس والقبط محافظين على صلحهم مع المسلمين. وتمكّن جيش الروم من الدخول إلى الإسكندرية وطرد المسلمين منها.

أمام هذا الواقع طلب المسلمون في مصر من الخليفة عثمان إبقاء عمرو بن العاص أميراً على الجند لقتال الروم لأن له معرفة بالحرب معهم، ففعل. ورضي عمرو بقتال الروم، فانضمّ إليه القبط وساعده المقوقس في حربه هذه. وحلف عمرو انه، إذا تمكّن من إعادة فتح الاسكندرية، فإنه سيهدم سورها.

وهكذا سار عمرو بن العاص على رأس جيشه نحو الإسكندرية التي خرج منها الروم لقتال المسلمين، فجرت معركة عنيفة قتل خلالها مانويل قائد الجيش البيزنطي وانهزم هذا الجيش فطارده المسلمون حتى أسوار الإسكندرية التي دخلوها عنوة.

كتب ابن الأثير عن إعادة فتح الاسكندرية:(١)

«في هذه السنة خالف أهل الاسكندرية ونقضوا صُلحهم، وكان سبب ذلك أنّ

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٧٦.

الروم عَظُم عليهم فتح المسلمين الإسكندرية وظنّوا أنهم لا يمكنهم المقام ببلادهم بعد خروج الإسكندرية عن ملكهم. فكاتبوا مَن كان فيها من الروم ودعوهم إلى نقض الصلح، فأجابوهم إلى ذلك فسار إليهم من القسطنطينية جيشٌ كثير وعليهم مانويل الخَصيّ فأرسوا بها، واتفق معهم مَن بها من الروم ولم يوافقهم المقوقس بل ثبت على صُلحه. فلمّا بلغ الخبر إلى عمرو بن العاص سار إليهم وسار الروم إليه فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم الروم وتبعهم المسلمون إلى أن أدخلوهم الاسكندرية وقتلوا منهم في البلد مقتلة عظيمة منهم مانويل الخصي. وكان الروم لما خرجوا من الإسكندرية قد أخذوا أموال أهل تلك القرى من وافقهم ومن خالفهم، فلما ظفر بهم المسلمون جاء أهل القُرى الذين خالفوهم فقالوا لعمرو بن العاص: إنّ الروم أخذوا دوابنا وأموالنا ولم نخالف نحن عليكم وكنا على الطاعة، فردّ عليهم ما عرفوا من أموالهم بعد إقامة البينة. وهدم عمر سور الإسكندرية وتركها بغير سور».

وبفتح الإسكندرية ثانية دخلت هذه المدينة نهائياً في عهدة المسلمين، فأمر عمرو ابن العاص بهدم سورها، وبنى مسجداً فيها سماه «مسجد الرحمة».

وبعد أن أعاد للقبط أملاكهم وأموالهم، جمع الغنائم ووزّع أربعة أخماسها على المقاتلين وأرسل الخمس إلى بيت المال.

بعد ذلك رفض عمرو البقاء أميراً على الجيش وسلّمه إلى والي مصر الجديد عبدالله ابن أبي سرح.

سابعاً – فتح افريقيا

اعتمد عمرو بن العاص، خلال ولايته على مصر، سياسة إرسال السرايا من مصر غرباً لفتح المدن والحصون الافريقية التي تقع غرب الإسكندرية. وكانت هذه السرايا تعود محمّلة بالغنائم لصالح ولاية مصر.

وتابع والي مصر الجديد عبدالله بن سعد ابن أبي سرح هذه السياسة أيضاً، فراح يبعث السرايا إلى شمال افريقيا تمهيداً لفتحها.

وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد نهى عمراً بن العاص عن التوغل غرباً في افريقيا

كي لا يجعل بينه وبين المسلمين ماءاً. لكن الخليفة عثمان بن عفّان غيّر هذه السياسة واعتمد استراتيجية عسكرية جديدة تقضي بإكمال فتح شمال افريقيا والمغرب.

لذلك، وما أن كتب إليه عبدالله بن أبي سرح يستأذنه بالمباشرة بفتح غرب مصر طالباً منه المدد والعون، حتى جهّز جيشاً من مسلمي أهل المدينة المنوّرة وأرسله مدداً لوالي مصر. وكلف بقيادته الحارث بن الحكم الذي كان عليه، وفور وصوله إلى مصر، وضع جيشه في تصرّف ابن أبي سرح.

كتب البلاذري عن سياسة عثمان الجديدة:(١)

«قالوا: لمّا ولي عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح مصر والمغرب، بعث المسلمين في جرائد خيل فأصابوا من أطراف افريقية وغنموا وكان عثمان بن عفّان «رضه» متوقفاً عن غزوها. ثمّ أنّه عزم على ذلك بعد أن استشار فيه، وكتب إلى عبدالله في سنة ٢٧، ويقال في سنة ٢٨، ويقال في سنة ٢٩، يأمره بغزوها وأمدّه بجيش عظيم فيه معبد بن العبّاس بن عبد المطّلب، ومروان بن الحكم ابن أبي العاص بن أميّة، والحارث بن الحكم أخوه، وعبدالله بن الزبير بن العوّام، والمِسْوَر ابن مخرَمة بن نوفل بن أُهَيب بن عبد مناف ابن زُهرة بن كلاب، وعبد الرحمن بن زيد ابن الخطّاب، وعبدالله بن عمر بن الخطّاب، وعاصم بن عمرو وعبيد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وبُسر بن أبي أرطاة بن عُوَيْمِر العامري وأبو ذُؤَيْب خُويلد بن خالد الهُذَلي الشاعر وبها توفّي فقام ابن الزبير حتّى واراه في لحده. وخرج في هذه الغزاة ممّن حول المدينة من العرب خلق كثير. حدّثني محمّد ابن سعد، عن الواقدي، عن أسامة بن زيد ابن أسلَم، عن نافع مولى آل الزبير، عن عبدالله بن الزبير قال: أغزانا عثمان بن عفّان افريقية، وكان بها بطريق سلطانه من أطرابُلس إلى طَنْجَة، فسار عبدالله بن سعد ابن أبي سَرْح حتّى حلّ بعَقُوبة فقاتله أيّاماً فقتله الله، وكنت أنا الذي قتلته، وهرب جيشه فتمزّقوا وبثّ ابن أبي سرح السرايا

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ٣١٧ – ٣١٨.

ففرّقها في البلاد فأصابوا غنائم كثيرة؛ واساقوا من المواشي ما قدروا عليه. فلمّا رأى ذلك عظماء افريقية اجتمعوا فطلبوا إلى عبدالله بن سعد أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار من ذهب على أن يكفّ عنهم ويخرج من بلادهم فقبل ذلك. وحدّثني محمّد بن سعد، عن الواقدي، عن أُسامة بن زيد اللّيثي، عن ابن كعب انّ عبدالله بن سعد ابن أبي سرح صالح بطريق افريقية على ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار».

ثامناً – فتح قرطاجنة

كان سكان المدن والقرى الواقعة في شمال افريقيا من البربر الموالين للامبراطورية البيزنطية التي تمدّ سكان شمال افريقيا بالغلال. وكان يتولّى هذه المنطقة حاكم عام يقيم في قرطاجة، يملك السلطةالمطلقة على مختلف الشؤون الإدارية والمالية والقضائية، يساعده عدد كبير من المستشارين والموظّفين.

وكان البربر قد نفّذوا ثورات عدّة للتخلّص من الحكم البيزنطي، لذلك اعتمد هؤلاء خطة ضرب قبائل البربر ببعضها البعض بغية تسهيل حكمهم لها. لكن هذه الخطة أدّت إلى انتشار الفوضى والاضطرابات وروح التذمّر من الحكم الاستبدادي، وبالتالي أصبح من السهل فتح تلك المنطقة.

وهكذا، لمّا وصل الحارث بن الحكم مع جيشه إلى مصر انضمّ إلى جيش عبدالله بن أبي سرح، الذي اتجه على رأس جيش بلغ عشرة آلاف مقاتل[١] وبدأ بفتح القرى والحصون، إلى أن وصل إلى مدينة قرطاجنة أو قرطاجة التي كان الامبراطور البيزنطي هرقل قد عيّن والياً عليها اسمه «جرجير»، وهو بطريق الروم الذي يسمونه «غريغوريوس».

تمركز الجيش الإسلامي في سهل متسع مقابل لقرطاجة، حيث نصب عبدالله مخيمه ووزع جنده وراح يدرس الأرض بهدف مهاجمة المدينة. لكن البربر الذين كان عددهم يفوق بأضعاف عدد المسلمين، خرجوا من المدينة واتجهوا نحو المسلمين بقصد المواجهة المباشرة.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٤٧.

وبعد المبارزات الإفرادية اشتبك الجيشان في قتال عنيف كادت نهايته أن تكون لصالح البربر بسبب كثرة العدد ونظراً إلى أنّ الوالي جرجير كان على رأسهم، ما زاد في حماسهم.

كتب ابن خلدون عن القتال أمام قرطاجة حيث كان جيش البربر قد بلغ مائة وعشرين ألف مقاتل:(١)

«ثمّ لمّا وَلِيَ عبدالله بن أبي سرح استأذن عثمان في ذلك واستمدّه، فاستشار عثمان الصحابة فأشاروا به، فجهّز العساكر من المدينة وفيهم جماعة من الصحابة، وساروا مع عبدالله بن أبي سرح سنة ست وعشرين. ولقيهم عُقْبَة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ثمّ ساروا إلى طرابلس فنهبوا الروم عندها. ثمّ ساروا إلى افريقية وبثّوا السرايا في كلّ ناحية، وكان ملكهم جرجير يملك ما بين طرابلس وطَنْجَة تحت ولاية هرَقْل، ويحمل إليه الخراج. فلما بلغه الخبر جمع مئة وعشرين ألفاً من العساكر ولقيهم على يوم وليلة من سُبَيطِلَة، دار ملكهم وأقاموا يقتتلون، ودعوه إلى الإسلام أو الجزية. فاستكبر ولحقهم عبد الرحمن ابن الزبير مدداً بعثه عثمان لما ابطأت أخبارهم. وسمع جرجير بوصول المدد ففتّ في عضُده. وشهد ابن الزبير معهم القتال وقد غاب ابن أبي سرح وسأل عنه فقيل: إنه سمع منادي جرجير يقول: من قتل ابن أبي سرح فله مئة ألف دينار وأزوّجه ابنتي، فخاف وتأخّر عن شهود القتال. فقال له ابن الزبير تنادي أنت بأن من قتل جرجير نفلته مئة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده، فخاف جرجير أشدّ منه.

ثمّ قال عبدالله بن الزبير لابن أبي سرح أن يترك جماعة من أبطال المسلمين المشاهير متأهّبين للحرب ويقاتلوا الروم بباقي العسكر إلى أن يضجروا. فركب عليهم في الآخرين على غرّة فلعلّ الله ينصرنا عليهم. ووافق على ذلك أعيان أصحابه ففعلوا ذلك وركبوا من الغد إلى الزوال وألحّوا عليهم حتى اتبعوهم ثمّ افترقوا. وأركب عبدالله الفريق الذين كانوا مستريحين، فكبّروا وحملوا

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٠٣ - ١٠٠٥.

حملة رجل واحد حتى غشوا الروم في خيامهم، فانهزموا وقتل كثير منهم، وقتل ابن الزبير جرجير وأخذت ابنته سَبيّة فنفلها ابن الزبير وحاصر ابن أبي سرح سبيطلة ففتحها. وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار، وسهم الراجل ألف. وبثّ جيوشه في البلاد إلى قفصه، فسبوا وغنموا.

وبعث عسكر إلى حصن الأجم، وقد اجتمع به أهل البلاد فحاصره وفتحه على الأمان. ثمّ صالحه أهل افريقية على ألفي ألف وخمسمئة ألف دينار. وأرسل ابن الزبير بالفتح والخمس فاشتراه مروان بن الحكم بخمسمئة ألف دينار. وبعض الناس يقول أعطاه إياه ولا يصح، وإنما أعطى ابن سرح خمس الخمس من الغزوة الأولى. ثمّ رجع عبدالله ابن أبي سرح إلى مصر بعد مقامه سنة وثلاثة أشهر».

وهكذا، انتهت المعركة لصالح المسلمين وذلك بعد أن قتل الوالي جرجير وفرّ البربر أمام هجمات المسلمين القوية. ولاحق المسلمون المنهزمين من البربر فدخلوا المدينة.

وهنا حصل أمر غريب حقاً، إذ أن عبدالله ابن أبي سرح قَبِلَ مصالحة البربر في قرطاجة رغم أنه دخلها عنوة. كما أنه لم يستخلف أحداً عليها، بل عاد إلى مصر بالغنائم.

كتب ابن كثير عن الغنائم:(1)

«وأخذ عبدالله خمس الخمس من الغنيمة وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان. وقسّم أربعة أخماس الغنيمة بين الجيش، فأصاب الفارس ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار. قال الواقدي: وصالحه بطريقها على ألفي ألف دينار وعشرين ألف دينار، فأطلقها كلّها عثمان في يوم واحد لآل الحكم، ويقال لآل مروان».

لكن قرطاجة عادت ووقعت في أيدي الروم الذين كانوا ما يزالون مسيطرين على البحر الأبيض المتوسّط ببحريتهم الحربية، وذلك في إنتظار معركة «ذات الصواري» التي لن يتأخّر حصولها.

كتب ابن خلدون عن عودة الروم للسيطرة على قرطاجة:(2)

---

(1) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٤٧.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٠٥.

«ولمّا بلغ هِرَقْل أن أهل أفريقية صالحوه بذلك المال الذي أعطوه غضب عليهم، وبعث بطريقاً يأخذ منهم مثل ذلك، فنزل قرطاجنة وأخبرهم بما جاء له فأبوا وقالوا: قد كان ينبغي أن يساعدنا مما نزل بنا. فقاتلهم البطريك وهزمهم وطرد الملك الذي ولّوه بعد جرجير، فلحق بالشام. وقد اجتمع الناس على معاوية بعد علي (رضي الله عنه) فاستجاشه على افريقية فبعث معه معاوية ابن حديج السكوني في عسكر. فلما وصل الاسكندرية وهلك الرومي ومضى ابن حديج في العساكر فنزل قونية، وتسرّح إليه البطريق ثلاثين ألف مقاتل وقاتلهم معاوية، فهزمهم معاوية وحاصر حصن جلولاء فامتنع معه حتى سقط ذات سوره فملكه المسلمون وغنموا ما فيه».

ملاحظة:

لن نتابع معالجة فتوحات شمال افريقيا في هذا الجزء نظراً لأن هذا الموضوع سيبحث في جزء مستقل من هذه الموسوعة تحت عنوان «العرب في المغرب والأندلس».

تاسعاً – الدروس والعبر من فتوحات افريقيا

١ – بعد فتح الإسكندرية طبّق عمرو بن العاص استراتيجية «استغلال النصر» ومدّ السيطرة إلى المناطق المجاورة فسيّر السرايا إلى مختلف نواحي مصر لإكمال فتحها تمهيداً لمتابعة الفتوحات غرباً. هذه الاستراتيجية أعطت نتائج إيجابية إذ أنها لم تسمح للعدو بإعادة تجميع قواته وتحضيرها للقيام بعمليات هجومية ضد العرب المسلمين.

كما أحسن عمرو بالاستعانة بإدلاء من أهل مصر سيّرهم مع وحداته المتوجة لإكمال الفتوحات لا سيما جنوباً نظراً للطرق والمسالك الصعبة التي كان على هذه الوحدات اجتيازها لبلوغ أهدافها.

٢ – ولما كانت مدينة برقة تعتبر المدخل إلى شمال افريقيا، فقد سار إليها عمرو بنفسه على رأس فرقة كبيرة فحاصرها وفتحها صلحاً. وخلال المعركة مع أهل برقة حصل أول صدام بين العرب المسلمين وبربر شمال افريقيا، فكان مدخلاً إلى صراع طويل بين الشعبين دفع ثمنه كلّ منهما غالياً. ودام

الصراع سبعين سنة قبل أن ينضوي بربر شمال افريقيا، أو المغرب كما دعاه العرب، تحت راية الإسلام ويحاربون في صفوفه فيتمكّنون من تثبيت السيطرة الإسلاميّة الدائمة على المغرب ومن فتح اسبانيا وإلحاقها بعالم الإسلام طوال قرون ثمانية من الزمن.

٣ - أما فتح زويلة فكان المعركة الأولى التي يقود فيها الجيش الإسلامي قائد عربي سيلعب دوراً بارزاً في عمليات فتح شمال افريقيا، هو عقبة بن نافع الفهري. لقد كان عقبة أول قائد عربي يصل بجيوشه المحيط الأطلسي في أقاصي المغرب ويفتح المدن والحصون قبل أن يستشهد في كمين نصبه له البربر.(١)

٤ - كانت متابعة الفتوحات العربية غرباً تفرض توفر أسطول بحري لديهم يمكنه محاصرة المدن الساحلية من البحر في وقت تحاصرها الجيوش البرية من جهة البرّ. وهذا ما سيحقّقه المسلمون بعد معركة ذات الصواري التي سنعالج تفاصيلها في هذا الجزء من الموسوعة.

هذه الحقيقة جعلت حامية مدينة طرابلس تهمل حماية مدينتها من جهة البحر وتوجه عملياتها الدفاعية إلى جهة البر دون أخذ قضية المد والجزر بعين الاعتبار. لذلك، فإن إهمال أي عنصر من عناصر المدافعة قد يؤدي إلى الفشل في تنفيذ المهمة. وهذا ما حصل أثناء محاصرة طرابلس، إذ أن تراجع مياه البحر سمح للمقاتلين العرب بمهاجمة المدينة من ناحية البحر حيث كانت ضعيفة التحصين والحماية.

- هذه الحقيقة جعلت الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يوقف الفتوحات الإسلاميّة غرباً في مدينة طرابلس ويمنع جيوشه من متابعة التقدّم في شمال افريقيا. وهذا ما سيدفع والي مصر إلى توجيه الجيوش جنوباً لخضاع بلاد النوبة.

لقد تبيّن لاحقاً، وخلال مرحلة متابعة الفتوحات غرباً، أن الخليفة الراشدي الثاني كان محقاً في نهيه للمسلمين عن التوغّل في شمال افريقيا كون الأسطول البيزنطي سيلعب دوراً كبيراً في استعادة الروم للمناطق الساحلية التي افتتحها المسلمون.

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن انجازات عقبة، يمكن مراجعة الجزء السابع من هذه الموسوعة.

وهذا الأمر سيجبر المسلمين على إعادة فتحها المرة تلو الأخرى، بانتظار تأمين السيطرة الإسلاميّة على البحر المتوسّط الغربي بعد معركة ذات الصواري.

٥ - فوجيء المسلمون في بلاد النوبة بغزارة ودقة رمي النبال، الأمر الذي جعل جيشهم يُهزم ويعود إلى مصر. كان بإمكان قائد الجيش العربي المتجه إلى تلك المناطق المجهولة إرسال مفرزة استطلاع أمامه لتجنّب المفاجآت، لكنه لم يفعل.

٦ - أجرى الخليفة عثمان بن عفان تغييرات في ولاية مصر قبل تثبيت الحكم العربي فيها، فعزل عمرو بن العاص رغم خبرته في الشؤون المصرية وعيّن شقيقه في الرضاعة عبدالله بن سعد بن أبي سرح. وهذا ما سمح للبيزنطيين بشن حملة استردادية تمكّنوا خلالها من استرجاع مدينة الإسكندرية التي خرجت من السيطرة العربية.

فخلال الحملات العسكرية الهادفة للسيطرة على منطقة معينة، يعتبر تغيير القائد العام للحملة مغامرة غير مأمونة العواقب. كان على الخليفة إرضاء عمرو بن العاص وعدم تغييره إلاّ بعد انتهاء فتح مصر وتثبيت الأمن فيها لمصلحة المسلمين.

وهكذا، وبناء لطلب المسلمين في مصر، أعاد الخليفة تكليف عمرو بقتال الروم فاتخذ ترتيبات لإعادة فتح الإسكندرية فنجح في مهمته. كما أحسن بهدم سور المدينة خوفاً من وقوعها مجدداً بيد الروم الذين كانوا، خلال هذه المرحلة، يسيطرون سيطرة تامة على البحر المتوسّط، الأمر الذي يسهّل عليهم إعادة فتحها.

٧ - استراتيجياً، اخطأت حامية الروم بالخروج من الإسكندرية لقتال المسلمين خارج أسوارها متخلية بذلك عن الحماية التي تؤمنها الأسوار لا سيما وأن معدات الحصار لم تكن متوفرة بكثرة لدى الجيش العربي.

من جهة أخرى، لم يتمكّن الروم من استعادة ولاء القبط الذين خالفوهم الرأي ولم يساهموا في الدفاع عن الإسكندرية. لذلك، فإن معركة الروم كانت خاسرة لأسباب أهمها:

أ - خروج أهل البلاد الاقباط عن ولائهم لهم ومساعدتهم للمسلمين في حربهم ضدهم.

ب - طول خطوط مواصلاتهم مع مصر واقتصار وسيلة التواصل معها وتموينها على الخط البحري.

ج - تفوق الجيوش العربية في الحرب البرية.

د - انخفاض معنويات جنودهم بسبب الهزائم المتتالية التي نزلت بجيوشهم في الشرق.

٨ - لا بدّ من الإشادة بالقائد الكبير عمرو بن العاص الذي كان قد عُزل عن ولاية مصر ورفض أن يكون أميراً على الجند فيما ابن أبي سرح هو الوالي على مصر. إلاّ أنه، وأمام الخطر الخارجي المتمثل بعودة الروم للسيطرة على الإسكندرية، تخلّى عن كبريائه وقَبِل تنفيذ المهمّة العسكرية التي كُلّف بها، فأعاد الإسكندرية إلى كنف الإسلام ثمّ ترك القيادة العسكرية لابن أبي سرح، وكأنه يقول: «أنا لا أحارب من أجل عثمان، إنما من أجل رب عثمان».(١)

٩ - اعتمد والي مصر استراتيجية إرسال السرايا غرباً لفتح المدن والحصون الافريقية بعد أن منعه الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من تسيير حملة كبيرة لفتح شمال افريقيا. لقد أعطت هذه السرايا نتيجة عسكرية واقتصادية وسياسية جيدة إذ أنها حققت للمسلمين الآتي:

أ - فتح مدن وحصون عدّة.

ب - جمع معلومات أكيدة عن العدو والأرض في شمال افريقيا تمهيداً لفتحها.

ج - الحصول على غنائم كثيرة لصالح المسلمين.

١٠- أحسن الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) بتغيير سياسة الفتوحات في افريقيا من إرسال السرايا إلى تحضير وإرسال حملة كبرى تمكنت من فتح مدن عديدة أبرزها قرطاجنة.

وكان الخليفة قد عزّز جيش مصر تمهيداً للحملة محققاً بذلك مبدأ الحرب الأول (نسبية الأهداف للوسائل). كما حقق المسلمون مبدأ الحرب الثاني (حرية العمل) بانتقالهم من مرحلة الانتظار والمراوحة والدفاع إلى مرحلة الهجوم والتمدّد غرباً في افريقيا.

---

(١) سبق وأوردنا هذا القول نقلاً عن خالد بن الوليد الذي عزله الخليفة عمر عن القيادة العامة للجيوش العربية في الشام، فتابع القتال وكأنه لم يُعزل قائلاً: «أنا لا أقاتل من أجل عمر، بل من أجل رب عمر».

١١ - وكان الصراع في شمال افريقيا لمصلحة المسلمين لأسباب نذكر منها:

أ - حماس واندفاع وارتفاع معنويات جنودهم بعد انتصاراتهم المتتالية في مصر وما جاورها غرباً.

ب - تحقيقهم لمبدأي الحرب الأول والثاني كما ذكرنا أعلاه.

ج - انتشار الفوضى والاضطرابات لدى البربر بسبب سياسة الامبراطورية البيزنطية القاضية بضربهم بعضهم بالبعض الآخر.

د - روح التذمّر لدى السكان من الحكم الاستبدادي للروم.

هـ - الخلافات بين أهل البلاد (البربر) وحكامها (الروم).

و - تراجع معنويات قائد الروم جرجير بعدما وصلته الأخبار عن التعزيزات العسكرية التي وصلت للمسلمين.

ز - اعتماد القائد العربي استراتيجية هجومية خلال معركة سبيطلة مع الاحتفاظ باحتياط جاهز للتدخل، واستعمال هذا الاحتياط لشنّ هجوم صاعق على الروم في اليوم التالي بعد أن استراح عناصره يوماً كاملاً.

ح - توجيه فرقة إسلامية إلى مركز القيادة البيزنطية تمكنت من قتل القائد جرجير، الأمر الذي أنهى القتال لمصلحة المسلمين.

١٢ - قَبِل عبدالله بن أبي سرح بمصالحة البربر في قرطاجة رغم أن جيشه فتحها عنوة، كما تخلّى عن المدينة وعاد إلى مصر، وهذا ما سمح للروم بإعادة السيطرة عليها.

إستغرب بعض المؤرّخين تصرف القائد العربي هذا. لكن تحليلاً استراتيجياً للوضع يفسّر هذا التصرّف. فخطوط مواصلات وتموين الجيش العربي الممتدّة من الاسكندرية إلى قرطاجة أصبحت طويلة جداً في وقت كانت هذه الخطوط محصورة بالمسالك الساحلية إذ كان الأسطول البيزنطي ما يزال مسيطراً على البحر وبإمكانه تهديد هذه الخطوط.

من جهة أخرى درج البيزنطيون على إرسال حملات بحرية لإعادة السيطرة على مدن افريقيا الشمالية بعد فتحها من قبل الجيوش العربية كما جرى في الإسكندرية. ونظراً لوقوع المدن والحصون التي فتحها عبدالله بن أبي سرح على ساحل البحر،

فانها كانت مهددة دوماً من قبل الأساطيل البيزنطية.

وبالفعل، قامت الجيوش العربية بحملات عدّة على شمال افريقيا تمكّنت في كلّ منها من فتح تلك البلاد وصولاً إلى المحيط الأطلسي غرباً. لكنها كانت، في كلّ مرّة، تتعرّض لكمائن برية ينصبها البربر ولإنزالات بحرية ينفّذها الروم الذين يوقعون الهزائم بالجيوش العربية المتراجعة نحو مصر.[1]

(١) هذا الموضوع سنفصله في الجزء السابع من هذه الموسوعة.

ملحق رقم ٢

سيرة عمرو بن العاص

- هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك. أمه النابغة بنت خزيمة من عنيزة.

- شارك إلى جانب المشركين في موقعة بدر الكبرى، وكان من المرافقين لأبي سفيان في قيادة قافلة قريش التي اعترضها المسلمون خلال هذه المعركة.

إسلام عمرو:

- كتب ابن الأثير عن إسلام عمرو:(١)

«في هذه السنة(٢) في صفر قدم عمرو بن العاص مسلماً على النبي ﷺ وقدم معه خالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة العبدري.

وكان سبب إسلام عمرو أنه قال: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق قلت لأصحابي: إني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً. وإني قد رأيت أن نلحق بالنجاشي، فإن ظهر محمدٌ على قومنا كنا عند النجاشي وإن ظهر قومنا على محمد فنحن من قد عرفوا. قالوا: إنّ هذا لرأي. قال: فجمعنا له أدماً كثيراً وخرجنا إلى النجاشي حتى قدمنا

المستند: - ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٩٥.
- ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٠٨ - ١٠٩.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٠٩ - ١١٠.

(٢) سنة ٨ هـ.

عليه. فوالله إنّا لعنده إذ وصل عمرو بن أمية الضمري رسولاً من النبي ﷺ في أمر جعفر وأصحابه. قال: فدخلت على النجاشي وطلبتُ منه أن يسلّم إليّ عمرو بن أمية الضمري لأقتله تقرباً إلى قريش بمكة. فلما سمع كلامي غضب وضرب أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، يعني النجاشي، فخفته ثمّ قلت: والله لو ظننتُ أنك تكره هذا ما سألتكه، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله!

قال: قلت: أيها الملك، أكذلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو، أطعني واتبعه فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على مَن خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده. قال: فقلت فبايعني له على الإسلام.

فبسط يده فبايعته، ثمّ خرجت إلى أصحابي وكتمتهم إسلامي، وخرجتُ عائداً إلى رسول الله ﷺ لأسلم. ولقيني خالد بن الوليد، وذلك قبل الفتح وهو مُقبل من مكة. فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام الميسم وإنّ الرجل لنبي، أذهب والله أسلم، فحتى متى؟

فقلت: والله ما جئت إلاّ للإسلام. فقدمنا على النبي ﷺ، فتقدّم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثمّ دنوت فأسلمت، وتقدّم عثمان بن طلحة فأسلم».

- غزوة ذات السلاسل:(1)

«أرسل رسول الله ﷺ، عمرو بن العاص، إلى أرض بلى وعذرة يدعو الناس إلى الإسلام، وكانت أمه من بلى فتألفهم رسول الله ﷺ بذلك. فسار حتى إذا كان على ماء بأرض جذام، يقال له: السلاسل وبه سميت تلك الغزوة ذات السلاسل، فلما كان به خاف، فبعث إلى النبي ﷺ يستمدّه. فبعث إليه رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين فيهم أبو بكر، وعمر، وقال لأبي عبيدة حين وجهه: لا تختلفا. فخرج أبو عبيدة فلما قدم عليه قال عمرو: وإنما جئت مدداً إليّ. فقال له أبو عبيدة: يا عمرو إنّ رسول الله ﷺ قال: لا

(1) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١١٠.

تختلفا فإن عصيتني أطعتُك. قال: فأنا أميرٌ عليك. قال: فدونك. فصلى عمرو بن العاص بالناس.

- زيارته إلى مصر:

- زار عمرو بن العاص مصر في الجاهلية فعرف طرقاتها ومسالكها وأهلها. فقد ذكرت كتب السير أن عمرو كان في تجارة له إلى بلاد الشام حيث تعرف إلى شمّاس من القبط اصطحبه معه إلى الإسكندرية التي أعجب عمرو بعمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها وما بها من الأموال.

واستطاع عمرو أن يعرف مداخل الإسكندرية ومخارجها وطرقات مصر. ثمّ أخذ يذهب بتجارته إليها.

* * *

واشتهر عمرو بحدة ذكائه وشدة دهائه وحسن تقديره للأمور، وكان مولعاً بحب السلطة والإمارة والقيادة. وكان قوي الشخصية ومحاوراً بارعاً.

ساهم في فتوحات بلاد الشام وفتح مصر كما سبق وأوردنا في النصوص السابقة.

الفصل الخامس

العمليات الإسلامية في البحر

درج العرب منذ الجاهلية على الحرب البرية، ولا سيما على ظهور الخيول والجمال، وكانوا من أفضل الرماة بالقوس والنبال. كما عُرف العربي بسرعة تحركه وصبره على المكاره وشدة بأسه في القتال. واستمرّ العرب المسلمون على هذه العادات وتميّزوا بالقتال البري، إذ أنهم انتصروا في غالبية معاركهم ضد الروم والفرس، رغم أنهم كانوا يخوضون هذه المعارك بأعداد قليلة من المقاتلين نسبة إلى أعداد خصومهم.

إلاّ أن خوض غمار القتال البحري كانت له رواية مغايرة لدى العرب المسلمين، الذين كانوا يهابون ركوب البحار ويفضلون البقاء على أرضٍ صلبة. وهذا أمر طبيعي إذ أن طبيعة البادية في شبه الجزيرة العربية كانت قد عوّدتهم على الصحاري والفلوات وركوب الأهوال البرية.

ومن مراجعة سجل المعارك التي سبق الحديث عنها في هذه الموسوعة، يمكن الملاحظة أنها كانت جميعها معارك برية وعلى أرض صلبة، وقلّما لجأ العرب المسلمون إلى ملاحقة أعدائهم عبر البحار، أو حتى مجاري الأنهار الكبرى، إن في بلاد ما بين النهرين أو في مصر.

وقد سبق أن ذكرنا جواب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص الذي رغب في متابعة فتح المدن المصرية إذ قال له: «لا تجعل بيني وبين المسلمين ماءً».

كما ذكرنا أنه، وبعد فتح قرطاجة، تراجع عنها عبدالله بن سعد رغم دخولها عنوة، وذلك نظراً لوقوعها على ساحل البحر وسهولة مهاجمتها من قبل الأساطيل البحرية البيزنطية

التي كانت تسيطر سيطرة تامة، على هذا البحر. وبالفعل، رأينا أن الامبراطور هرقل أرسل أسطولاً بحرياً أعاد احتلال المدينة بعد أن جلا عنها المسلمون.

وسنرى لاحقاً في الجزء المخصّص في هذه الموسوعة لمعالجة موضوع فتح شمال افريقيا والمغرب، أن العرب المسلمين أمضوا سبعين سنة ليتمكّنوا من الفتح النهائي لتلك المناطق. وسنرى أيضاً في الجزء نفسه أن من أسباب تأخر المسلمين في السيطرة النهائية على شمال افريقيا أن خطوط مواصلاتهم الممتدة من مصر إلى المغرب الأقصى لم تكن آمنة. لذلك قام القادة المسلمون بفتح شمال افريقيا مرات عدّة، وفي كلّ مرّة كانت تنتهي معركتهم بوقوع جيشهم المتراجع شرقاً في كمين ينصبه إما البربر أو الروم القادمون من البحر.

حتى قرطاجة التي كانت تقع على شاطىء البحر، وعندما سيطر المسلمون على منطقتها، أقدموا على هدمها نهائياً لعدم تمكين الروم من إعادة الإنزالات البحرية على ساحلها. وأقاموا بدلاً منها مدينة تونس في مكان وسط ما بين ساحل البحر والداخل. وهكذا أمنوا أخطار الإنزالات البحرية، من جهة، وهجمات البربر من الداخل الافريقي من جهة أخرى.

وبعد السيطرة النهائية على شمال افريقيا، وخاصة المغرب الأقصى، رغب والي المغرب موسى بن نصير في فتح الأندلس بعد اجتياز مضيق أعمدة هرقل، فكتب إلى الخليفة يصف المضيق وأرض اسبانيا التي يشاهدها الناظر من سبته في إتجاه الشمال. لكن الخليفة، ورغم ذلك، كتب له بما يلي:

«خضها بالسرايا ولا تغرّر بالمسلمين، ولا تجعل بيني وبين المسلمين ماءً».

أما أول من ركب البحر من الولاة المسلمين فكان معاوية بن أبي سفيان، وكان والياً على الشام، إذ أنه كلّف سكان السواحل في بلاد الشام صنع سفن حربية للمسلمين، ففعلوا. ولمّا أمر المسلمين بركوب هذه السفن، ركبها قبلهم كي يشجعهم على ذلك، رغم أن قباطنتها كانوا من سكان سواحل بلاد الشام.

لكلّ ما تقدّم نرى أن تعوّد العرب المسلمين على ركوب البحر، وصولاً إلى انتصارهم في معركة «ذات الصواري» التي

سنتكلّم عنها في هذا الفصل، يمكن اعتباره إنجازاً عسكرياً ضخماً.

أولاً - فتح قبرص

جرى فتح قبرص على يد معاوية بن أبي سفيان في السنة الثامنة والعشرين للهجرة.

وقبرص، وفق ابن كثير، «جزيرة غربي بلاد الشام في البحر، مخلصة وحدها، ولها ذنب مستطيل إلى نحو الساحل مما يلي دمشق، وغربيها أعرضها، وفيها فواكه كثيرة، ومعادن، وهي بلد جيد».(1)

كتب ابن خلدون عن غزوة قبرص:(2)

«كان أبو عبيدة لما احتضر(3) استخلف على عمله عياض بن غَنْم وكان ابن عمه وخاله، وقيل استخلف معاذ بن جبل. واستخلف عياض بعده سعد بن حُذَيْم الجُمَحيّ، ومات سعيد فولى عمر مكانه عُمَيْرَ ابن سعيد الأنصاري. ومات يزيد بن أبي سفيان فجعل عمر مكانه على دمشق أخاه معاوية، فاجتمعت له دمشق والأردن ومات عمر وهو كذلك وعمير على حمص وقنسرين. ثمّ استعفى عمير عثمان في مرضه فأعفاه، وضمّ حمص وقنسرين إلى معاوية، ومات عبد الرحمن بن أبي علقمة وكان على فلسطين فضمّ عثمان عمله إلى معاوية.

فاجتمع الشام كلّه لمعاوية لسنتين من إمارة عثمان. وكان يلحّ على عمر في غزو البحر، وكان وهو بحمص كتب إليه في شأن قبرص أن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلاب قبرص وصياح دجاجهم، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صف لي البحر وراكبه! فكتب إليه: هو خلق كبير يركبه خلق صغير ليس إلاّ السماء والماء. إن ركد فل القلوب، وإن تحرّك أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلّة والشك كثرة. وراكبه دود على عود إن مال غرق وإن نجا برق.

فكتب عمر إلى معاوية: والذي بعث محمّداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً. وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول

(1) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٤٨.

(2) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٠٧ - ١٠٠٨.

(3) يقصد استحضر.

شيء من الأرض فيستأذن الله كلّ يوم وليلة في أن يغرق الأرض، فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر. وبالله لمسلم واحد أحبّ إليّ ممّا حوت الروم، فإياك أن تعرض لي في ذلك. فقد علمت ما لقي العلاء مني. ثمّ كاتب ملك الروم عمر وقاربه واقصر عن الغزو. ثمّ ألح معاوية على عثمان بعده في غزو البحر فأجابه على خيار الناس وطوعهم.

فاختار الغزو جماعة من الصحابة فيهم أبو ذرّ وأبو الدرداء وشدّاد بن أوس وعبادة بن الصامت وزوجه أم حرام بنت ملحان، واستعمل عليهم عبدالله بن قيس حليف بني فزارة. وساروا إلى قبرص، وجاء عبدالله ابن أبي سرح من مصر فاجتمعوا عليها وصالحهم أهلها على سبعة آلاف دينار بكلّ سنة. ويؤدّون مثلها للروم ولا منعة لهم عن المسلمين ممن أرادهم من سواهم، وعلى أن يكونوا عيناً للمسلمين على عدوّهم، ويكون طريق الغزو للمسلمين عليهم. وكانت هذه الغزاة سنة ثماني وعشرين وقيل تسعة وعشرين وقيل ثلاثة وثلاثين».

وبقي عبدالله بن قيس أميراً على البحر، فغزا خمسين غزوة، من بين شاتية وصائفة، في البر والبحر.(١)

أكمل ابن كثير الرواية عن فتح قبرص، فكتب:(٢)

«فلما كان عثمان ألحّ معاوية عليه في ذلك فأذن له فركب في المراكب فانتهى إليها، ووافاه عبدالله بن سعد بن أبي سرح إليها من الجانب الآخر. فالتقيا على أهلها فقتلوا خلقاً كثيراً وسبوا سبايا كثيرة، وغنموا مالاً جزيلاً جيداً، ولما جيء بالأسارى جعل أبو الدرداء يبكي، فقال له جبير بن نفير: أتبكي وهذا يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك إن هذه كانت أمة قاهرة لهم ملك، فلما ضيعوا أمر الله صيرهم إلى ما ترى، سلط الله عليهم السبي، وإذا سلط على قوم السبي فليس لله فيهم حاجة. وقال ما أهون

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٩٠.
والطبري مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦٠١.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٤٩.

العباد على الله تعالى إذا تركوا أمره؟! ثمّ صالحهم معاوية على سبعة آلاف دينار في كلّ سنة، وهادنهم. فلما أرادوا الخروج منها قدمت لأم حرام بغلة لتركبها فسقطت عنها فاندقت عنقها فماتت هناك فقبرها هنالك يعظمونه ويستسقون به ويقولون قبر المرأة الصالحة».

ومن الشروط التي وُضعت لصلح قبرص ذكر الطبري:(١)

«أن صلح قبرص وقع على جزية سبعة آلاف دينار يؤدونها إلى المسلمين في كلّ سنة، ويؤدّون إلى الروم مثلها، ليس للمسلمين أن يحولوا بينهم وبين ذلك، على ألا يغزوهم ولا يقاتلوا من وراءهم ممن أرادهم من خلفهم، وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوّهم من الروم إليهم؛ وعلى أن يبطرق إمام المسلمين عليهم منهم.

قال الواقدي: وفي العهد الذي بين معاوية وبينهم ألا يتزوّجوا في عدوّنا من الروم إلاّ بإذننا».

ثانياً – معركة ذات الصواري

ضمن إطار المعارك البحرية للعرب المسلمين نتكلّم عن أهم موقعة بحرية جرت العام ٣٥ للهجرة (وقيل ٣٤) وانتصر فيها الأسطول الإسلامي على أسطول الروم، ألا وهي وقعة ذات الصواري، التي جمعت ألف سفينة بيزنطية ومائتي سفينة عربية إسلامية. وسميت «ذات الصواري» لكثرة صواري السفن التي غطت صفحة البحر.

وتفاصيل المعركة أن عبدالله بن سعد بلغه أن الروم يحشدون أسطولاً بحرياً كبيراً مؤلفاً من ألف سفينة لغزو الإسكندرية، بعد أن كانت قد فتحت من قبل المسلمين، فأمر بتجهيز أسطول للمسلمين.كما اشترك في المعركة البحرية أيضاً أسطول الشام، واعتبرت أول موقعة بحرية يخوضها الأسطول الإسلامي ضد الأسطول البيزنطي فعلياً وينتصر فيها.

كتب ابن الأثير عن ظروف المعركة:(٢)

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦٠٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٣ – ١٤.

«وأما سبب هذه الغزوة فإنّ المسلمين لما أصابوا من أهل إفريقية وقتلوهم وسبوهم خرج قسطنطين بن هرقل في جمع له لم تجمع الروم مثله مُذ كان الإسلام فخرجوا في خمسمائة مركب أو ستمائة. وخرج المسلمون وعلى أهل الشام معاوية بن أبي سفيان، وعلى البحر عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وكانت الريح على المسلمين لما شاهدوا الروم فأرسى المسلمون والروم وسكنت الريح، فقال المسلمون: الأمان بيننا وبينكم فباتوا ليلتهم والمسلمون يقرأون القرآن ويصلّون ويدعون، والروم يضربون بالنواقيس. وقرّبوا من الغد سفنهم وقرّب المسلمون سفنهم فربطوا بعضها مع بعض واقتتلوا بالسيوف والخناجر وقتل من المسلمين بشرٌ كثير، وقتل من الروم ما لا يحصى. وصبروا يومئذ صبراً لم يصبروا في موطن قط مثله. ثمّ أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم قسطنطين جريحاً ولم ينج من الروم إلاّ الشريد. وأقام عبدالله بن سعد بذات الصواري بعد الهزيمة أياماً ورجع، فكان أول ما تكلم به محمّد بن أبي حذيفة، ومحمد بن أبي بكر في أمر عثمان في هذه الغزوة وأظهرا عيبه وما غيّر وما خالف به أبا بكر، وعمر، ويقولان: استعمل عبدالله بن سعد رجلاً كان رسول الله ﷺ قد أباح دمه، ونزل القرآن بكفره؛ وأخرج رسول الله ﷺ قوماً أدخلهم، ونزع أصحاب رسول الله ﷺ، واستعمل سعيد بن العاص، وابن عامر.

فبلغ ذلك عبدالله بن سعد فقال: لا تركبا معنا فركبا في مركب ما معهما إلاّ القبط فلقوا العدو فكانا أقل المسلمين نكاية وقتالاً. فقيل لهما في ذلك فقالا: كيف نقاتل مع عبدالله بن سعد؟ استعمله عثمان وعثمان فعل كذا وكذا. فأرسل إليهما عبدالله ينهاهما ويتهدّدهما ففسد الناس بقولهما، وتكلّموا ما لم يكونوا ينطقون به.

وأما قسطنطين فإنه سار في مركبه إلى صقلّيّة فسأله أهلها عن حاله فأخبرهم فقالوا: أهلكت النصرانية وأفنيت رجالها لو أتانا العرب لم يكن عندنا مَن يمنعهم. ثمّ أدخلوه الحمام وقتلوه وتركوا من كان معه في المركب، وأذنوا لهم في المسير إلى القسطنطينية».

روى ابن كثير تفاصيل أُخرى عن الموقعة، فكتب:(١)

«صفَّ عبدالله بن سعد أصحابه صفوفاً في المركب، وأمرهم بذكر الله وتلاوة القرآن. قال بعض من حضر ذلك: فأقبلوا إلينا في أمر لم ير مثله من كثرة المراكب، وعقدوا صواريهم، وكانت الريح لهم وعلينا. فأرسينا ثمّ سكنت الريح عنا، فقلنا لهم: إن شئتم خرجنا نحن وأنتم إلى البر فمات الأعجل منا ومنكم. قال فنخروا نخرة رجل واحد وقالوا: الماء الماء. قال فدنونا منهم وربطنا سفننا بسفنهم، ثمّ اجتلدنا وإياهم بالسيوف، يثب الرجال على الرجال بالسيوف والخناجر. وضربت الأمواج في عيون تلك السفن حتى ألجأتها إلى الساحل وألقت الأمواج جثث الرجال إلى الساحل حتى صارت مثل الجبل العظيم، وغلب الدم على لون الماء. وصبر المسلمون يومئذ صبراً لم يعهد مثله قط، وقتل منهم بشر كثير، ومن الروم أضعاف ذلك، ثمّ أنزل الله نصره على المسلمين فهرب قسطنطين وجيشه – وقد قلوا جداً – وبه جراحات شديدة مكينة مكث حيناً يداوى منها بعد ذلك. وأقام عبدالله بن سعد بذات الصواري أياماً، ثمّ رجع مؤيداً منصوراً مظفراً».

ثالثاً – الدروس والعبر والنتائج

أ – طلب معاوية بن أبي سفيان مرات عدّة غزو جزيرة قبرص، لكن الخليفة كان يرفض طلبه خوفاً من تشتت المسلمين في أمرٍ لم يعهدوه وهو ركوب البحر.

ب – وأول مغامرة بحرية إسلامية كانت تلك التي قام بها العلاء بن الحضرمي والي البحرين. وقد آلت هذه المغامرة إلى فشل ذريع للمسلمين.

ج – أخيراً قبل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أن يركب معاوية البحر شرط أن لا يُلزم إحداً من المسلمين على ذلك.

أما غزو قبرص فحصل في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه).

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٥٢ – ١٥٣.

د - أما الأسباب التي دفعت الخليفة عمر ابن الخطاب إلى اتخاذ موقف معارض للعمليات البحرية، فيمكن إعادتها إلى المعطيات الآتية:

* خوفه من تشتت المسلمين الذين لم يعهدوا ركوب البحر مقاتلين في زمن كان للروم فيه تاريخ عريق في القتال البحري.
* فشل العلاء بن الحضرمي والي البحرين سابقاً في الغزوة البحرية التي نفّذها على بلاد فارس.
* وصف عمرو بن العاص غير المشجع عن ركوب البحر إلى الخليفة.
* عدم توفر أسطول بحري كبير لدى المسلمين يمكّنهم من غزو قبرص أو القيام بعمليات بحرية واسعة.

هـ - وبالفعل، كان العرب سيفقدون في العمليات البحرية ما كانوا يتميّزون به في القتال البري من سرعة التحرّك والتمرّس في القتال من على صهوات الخيول، والمعرفة العميقة بفنون الغزو والكر والفر.

وهكذا تريث الخليفة بانتظار بناء أسطول عربي قادر على مجابهة الأسطول البيزنطي في معركة بحرية، الأمر الذي تحقق مع معاوية ابن أبي سفيان.

أما عثمان بن عفان، فلمّا ألحّ عليه معاوية في ركوب البحر، وافق على ذلك واضعاً عليه شروطاً منها أن لا ينتخب الناس بل يخيّرهم، فمن اختار الغزو طائعاً حمله معه.

وهكذا سار معاوية على رأي الخليفة وبنى أسطولاً بأيدٍ وطنية فكان نواة للأسطول الإسلامي الذي تمكّن من الانتصار في معركة ذات الصواري ومن السيطرة على الشواطىء في بلاد الشام وأسيا الصغرى وصولاً إلى جزيرة رودس.

و - من العوامل السياسية والعسكرية التي ساهمت في وقوع معركة ذات الصواري نذكر:

* توجيه المسلمين ضربات قوية للروم في افريقيا.
* تهديد الروم في سواحلهم الشرقية والجنوبية بعد أن سيطر المسلمون بأسطولهم عليها.
* خوف الروم من أن يقوى الأسطول الإسلامي فيتجه إلى القسطنطينية لفتحها.

* رغبة الإمبراطور البيزنطي في استرداد هيبة الروم بعد هزائمهم المتتالية مقابل المسلمين، ورغبة الروم في خوض معركة تثبّت سيطرتهم على البحر المتوسّط الشرقي وجزره، والإغارة منها على سواحل بلاد الشام وافريقيا واستعادتها من المسلمين.
* محاولة استعادة الإسكندرية نظراً لمركزها الاستراتيجي وأهميتها المعنوية للروم.

ز - أما نتائج المعركة فنذكر أهمها كالآتي:

* انتهاء السيطرة البيزنطية البحرية على البحر المتوسّط وبداية السيطرة الإسلاميّة عليه.
* بدء خوض العرب المسلمين للحروب البحرية بكلّ جرأة، وقيامهم بدراسة العلوم البحرية وصناعة السفن وكيفية تسليحها وأساليب القتال من على متن السفن، وعلوم الفلك المتصلة بتسيير الأساطيل في البحار.
* إدراك الروم صعوبة استرداد ما فقدوه في الشرق وشمال افريقيا.
* تثبيت أقدام المسلمين في شمال افريقيا.
* فتح العرب جزر قبرص وكريت وكورسيكا وسردينيا وصقلية وجزر البااليار، وبلوغ أساطيلهم جنوه ومرسيليا.
* تسيير حملة بحرية وبرية ضخمة، انطلاقاً من بلاد الشام، استهدفت القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية.

ومن نتائج المعركة التي ذكرها ابن الأثير إقدام سكان صقلية على قتل الامبراطور البيزنطي قسطنطين بن هرقل.

ح - من العوامل التي ساهمت في انتصار المسلمين في هذه المعركة البحرية، قيام بحارتهم بربط سفنهم إلى سفن أعدائهم بالخطاطيف، الأمر الذي أمّن لهم سهولة القتال وكأنهم يقاتلون على الأرض الصلبة مستعملين السيوف والخناجر والنبال والنيران الحارقة. وهكذا حرموا الروم سيطرتهم ومنعوهم من الاستفادة من خبراتهم الطويلة في القتال البحري بين السفن.

كما نقل المؤرخون أن المسلمين صبروا في قتال ذات الصواري صبراً لم يعهدون مثله قط.

ط - وفي الخلاصة، أنهت معركة ذات الصواري عصر السيادة البيزنطية على شرق البحر المتوسّط، الأمر الذي طمأن المسلمين إلى ابتعاد هجمات الروم المفاجئة على شواطئهم والتي أصبحت بعيدة الاحتمال.

رابعاً - غزو جزائر في البحر المتوسّط

وبعدما انتصر العرب المسلمون في موقعة «ذات الصواري» البحرية نشروا في البحر المتوسّط أسطولاً بحرياً لغزو جزره المختلفة، فغزوا صقلية بقيادة معاوية بن حديج الكندي في خلافة معاوية بن أبي سفيان. كما فتح قسماً منها بنو الأغلب بن سالم الافريقي، وقيل انهم فتحوا نحواً من عشرين مدينة بقيت في أيدي المسلمين زمناً. وفتح أحمد بن محمّد بن الأغلب، في خلافة المتوكّل، «قصريانة» و«حصن غليانة».(١)

كتب البلاذري عن غزو البحر المتوسّط:(٢)

«وقال الواقدي سبى عبدالله بن قيس بن مَخلَد الدِزقي سِقيلّية، فأصاب أصنام ذهب وفضّة مكلّلة بالجوهر فبعث بها إلى معاوية، فوجّه بها معاوية إلى البصرة لتحمل إلى الهند، فتباع هناك ليثمن بها. قالوا: وكان معاوية بن أبي سفيان يُغزي براً وبحراً، فبعث جَنادَة بن أبي أميّة الأزدري إلى رُودِس، ففتحها عنوة، وكانت غيضة في البحر. وأمره معاوية فأنزلها قوماً من المسلمين وكان ذلك في سنة ٥٢. قالوا: ورُودس من أخصب الجزائر وهي نحو من ستّين ميلاً، فيها الزيتون والكروم والثمار والمياه العذبة. وحدّثني محمّد بن سعد، عن الواقدي وغيره قالوا: أقام المسلمون برُودس سبع سنين في حصن اتُّخذ لهم، فلمّا مات معاوية كتب يزيد إلى جنادة يأمره بهدم الحصن، والقفل وكان معاوية يعاقب بين الناس فيها، وكان مُجاهِد ابن جَبْر مقيماً بها يقريء الناس القرآن.

---

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ٣٢٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

وفتح جَنادة بن أبي أميّة في سنة ٥٤ أرواد، وأسكنها معاوية المسلمن، وكان ممّن فتحها مُجاهد، وتُبيع بن امرأة كعب الاحبار. وبها اقرأ مجاهد تُبَيعاً القرآن، ويقال إنّه اقرأه القرآن برُودس. وأرْواد جزيرة بالقرب من القسطنطينية. وغزا جَنادَة إقْريطِش، فلما كان زمن الوليد فتح بعضها ثمّ اغلق، وغزاها حِمَيد بن مَعيُوق الهَمْداني في خلافة الرشيد، ففتح بعضها ثمّ غزاها في خلافة المأمون، أبو حفص عمر بن عيسى الاندلسي المعروف بالاقريطشي، وافتتح منها حصناً واحداً، ونزله ثمّ لم يزل يفتح شيئاً بعد شيء، حتّى لم يبق فيها من الروم أحد وأخرب حصونهم».

الفصل السادس

متابعة المعارك ضمن خطة الفتوحات الكبرى

تابع العرب المسلمون المعارك الهادفة إلى فتح المناطق المختلفة في بلاد الشام والعراق وافريقيا، وذلك ضمن الخطة العامة الهادفة إلى نشر الدين الإسلامي.

ونظراً إلى أن هذه المعارك، التي سنتكلّم عنها في الفصول اللاحقة من هذا الجزء، لا يمكن جمعها في منطقة واحدة أو تحت عنوان واحد، فسنتكلّم عنها تباعاً وبالسنين، بدءاً من السنة السابعة والعشرين للهجرة، وذلك باستثناء المعارك الهادفة إلى فتح شمال افريقيا أو المغرب والأندلس، لأنها ستجمع في جزء خاص تحت عنوان «العرب في المغرب والأندلس».

أولاً – عمليات في بلاد فارس

– في السنة التاسعة والعشرين للهجرة عزل عثمان بن عفان أبا موسى الاشعري من ولاية البصرة وأمّر على خراسان عُميراً بن عثمان بن سعد، وعلى سجستان عبدالله ابن عمير الليثي من كنانة. فغزا هذا الأخير سجستان وأثخن فيها حتى وصل إلى كابل، كما غزا عُمير في خراسان حتى بلغ فرغانة فلم يدع منطقة أو بلدة إلاّ وصالح أهلها على الجزية.(١)

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦٠٤.

وبعث عمير بن عبيدالله بن معمّر التيمي إلى مكران فغزاها بنجاح حتى بلغ النهر.[١]

وجرى قتال في اصطخر كتب عنه الطبري ما يلي:[٢]

«استعمل الخليفة عبيدالله بن معمر على فارس. فجاشت فارس وانتقضت بعبيدالله ابن معمر، فاجتمعوا له بإصطخر، فالتقوا على باب اصطخر، فقتل عبيدالله وهُزم جنده. وبلغ الخبر عبدالله بن عامر، فاستنفر أهل البصرة، وخرج معه الناس، وعلى مقدمته عثمان بن أبي العاص، فالتقوا هم وهم بإصطخر، وقتل منهم مقتلة عظيمة لم يزالوا منها في ذلّ، وكتب بذلك إلى عثمان».

ثانياً – غزو قبرص

وفي السنة الثالثة والثلاثين للهجرة كان مسير الاحنف إلى خراسان وفتح المروين ومسير ابن عامر إلى نيسابور وفتحها. وفيها كانت غزوة قبرص.

كتب ابن الأثير:[٣]

«وفيها كانت غزوة قبرص في قول بعضهم، وقد تقدّم ذكرها، وقيل إن فتحها كان سنة ثمان وعشرين. فلما كان سنة اثنتين وثلاثين أعان أهلها الروم على الغزاة في البحر بمراكب اعطوهم إياها فغزاهم معاوية سنة ثلاث وثلاثين ففتحها عنوة فقتل وسبى، ثمّ أقرهم على صلحهم وبعث إليهم اثني عشر ألفاً فبنوا المساجد وبنى مدينة».

وقيل كانت غزوته الثانية سنة خمس وثلاثين.

وذكر الطبري أنه، وخلال السنة الثانية والثلاثين كانت غزوة معاوية بن أبي سفيان مضيق القسطنطينية.[٤]

(١) الطبري، المرجع نفسه.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦٢٧.

(٣) إبن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٠.

(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦٢٧.

ملحق رقم ١

سيرتا عبدالله بن مسعود وأبي ذر الغفاري(١)

أولاً - عبدالله بن مسعود

ابن غافل بن حبيب بن سمح بن فار بن مخزوم بن صاهلة ابن كاهل بن الحارث بن تيم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر الهذليّ، أبو عبد الرحمن حليف بني زهرة. أسلم قديماً قبل عمر، وكان سبب إسلامه حين مرّ به رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، وهو يرعى غنماً فسألاه لبناً فقال: إني مؤتمن. قال فأخذ رسول الله ﷺ عناقاً(٢) لم ينز(٣) عليها الفحل فاعتقلها ثمّ حلب وشرب وسقى أبا بكر. ثمّ قال للضرع: «إقلص فقلص»(٤) فقال علمني من هذا الدعاء فقال: إنك غلام مُعلّم، الحديث.

وروى محمد بن إسحاق عن يحيى بن عروة عن أبيه أن ابن مسعود كان أول من جهر بالقرآن بمكة، بعد النبي ﷺ عند البيت، وقريش في أنديتها قرأ سورة ﴿الرَّحْمٰن عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ فقاموا إليه فضربوه. ولزم رسول الله ﷺ، وكان يحمل نَعْلَيْه وسَوَاكَهُ(٥)، وقال له إذنك على أن تسمع سوادي(٦) ولهذا كان يُقال له صاحب السّواك والسّواد.

(١) المرجع: ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٥٦ - ١٦٠.

(٢) العناق: انثى المعز.

(٣) لم ينز عليها الفحل: لم يثب عليها.

(٤) قلص: ارتفع.

(٥) السواك: المسواك.

(٦) السواد: السرار.

وهاجر إلى الحبشة ثمّ عاد إلى مكة ثمّ هاجر إلى المدينة، وشهد بدراً، وهو الذي قتل أبا جهل بعد ما أثبته ابنا عفراء، وشهد بقية المشاهد. وقال له رسول الله ﷺ يوماً: «اقْرَأْ عَلَيَّ» فقال اقرأ عليك وعليك أُنزل؟ فقال: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي» فقرأ عليه من أول سورة النساء إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هؤلاء شَهِيدًا[1]﴾ فبكى رسول الله ﷺ وقال: «حَسْبُكَ». وقال أبو موسى: قدمت أنا وأخي وأمي من اليمن وما كنا نظن إلاّ أن ابن مسعود وأمه من أهل بيت النبي ﷺ، لكثرة دخولهم بيت النبي ﷺ. وقال حذيفة ما رأيت أحداً أشبه برسول الله ﷺ في هديه ودله وسمته من ابن مسعود، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله زلفى. وفي الحديث «وتَمَسَّكُوا بِعَهْدِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ» وفي الحديث الآخر الذي رواه أحمد عن محمد بن فضيل عن مغيرة عن أم حرسي عن علي أن ابن مسعود صعد شجرة يجتني الكباث فجعل الناس يعجبون من دقة ساقيه. فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُدٍ». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وقد نظر إلى قصره وكان يوازي بقامته الجلوس - فجعل يتبعه بصره ثمّ قال: هو كنيف[2] مليء علماً. وقد شهد ابن مسعود بعد النبي ﷺ مواقف كثيرة، منها اليرموك وغيرها، وكان قدم من العراق حاجاً فمر بالربذة فشهد وفاة أبي ذر ودفنه. ثمّ قدم إلى المدينة فمرض بها فجاءه عثمان بن عفان عائداً، فيروى أنه قال له: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا آمر لك بطبيب؟ فقال: الطبيب أمرضني، قال: ألا آمر لك بعطائك؟ - وكان قد تركه سنتين - فقال: لا حاجة لي فيه. فقال: يكون لبناتك من بعدك. فقال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي أن يقرأن كلّ ليلة سورة الواقعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ قَرَأَ

---

(١) النساء: ٤١.

(٢) الكنيف: الوعاء.

الوَاقِعَةَ كُلَّ لَيْلَةٍ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ أبداً». وأوصى عبدالله بن مسعود إلى الزبير ابن العوّام، فيقال إنه هو الذي صلّى عليه ليلاً، ثمّ عاتب عثمان الزبير على ذلك، وقيل بل صلّى عليه عثمان، وقيل عمّار، فالله أعلم. ودفن بالبقيع عن بضع وستين سنة.

ثانياً – أبو ذرّ الغفاري

واسمه جندب بن جنادة على المشهور، أسلم قديماً بمكّة فكان رابع أربعة أو خامس خمسة. وقصة إسلامه تقدمت قبل الهجرة، وهو أول من حيا رسول الله ﷺ بتحية الإسلام، ثمّ رجع إلى بلاده وقومه، فكان هنالك حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة فهاجر بعد الخندق، ثمّ لزم رسول الله ﷺ حضراً وسفراً. وروي عنه أحاديث كثيرة، وجاء في فضله أحاديث كثيرة، من أشهرها ما رواه الأعمش عن أبي اليقظان عثمان بن عمير عن أبي حرب بن أبي الأسود عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مَا أَظَلَّتِ الْخَضْرَاءُ، وَلا أَقَلَّتِ الغَبْرَاءُ أَصْدَقَ لَهْجَةً مِنْ أَبِي ذَرٍّ» وفيه ضعف. ثمّ لما مات رسول الله ﷺ ومات أبو بكر خرج إلى الشام فكان فيه حتى وقع بينه وبين معاوية فاستقدمه عثمان إلى المدينة، ثمّ نزل الربذة فأقام بها حتى مات وليس عنده سوى امرأته وأولاده. فبينما هم كذلك لا يقدرون على دفنه إذ قدم عبدالله بن مسعود من العراق في جماعة من أصحابه، فحضروا موته وأوصاهم كيف يفعلون به، وقيل قدموا بعد وفاته فولوا غسله ودفنه. وكان قد أمر أهله أن يطبخوا لهم شاة من غنمه ليأكلوه بعد الموت، وقد أرسل عثمان بن عفان إلى أهله فضمهم مع أهله.

القسم الثاني

الفتنة الكبرى في الإسلام

في السنة الخامسة والثلاثين للهجرة وقع حادث مهم في التاريخ الإسلامي غيّر مجرى هذا التاريخ وجعله أكثر مأساوية وانقساماً، وهو مقتل الخليفة الراشدي الثالث عثمان ابن عفان.

وكان سبق مقتل الخليفة عثمان اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب، لكن هذا الاغتيال لم تكن له ذيول مؤثرة في مجرى التاريخ الإسلامي لأسباب أهمها:

- مقتله كان حادثاً خاصاً إذ أن من ارتكبه هو أحد الناقمين الذي يعتبر أن عمراً ظلمه ورتّب عليه ضريبة أكثر مما يجب.

- لم يطالب أحد بالثأر من قاتل عمر بن الخطاب كونه لا ينتمي إلى جماعة محدّدة أو إلى فئة من الفئات البارزة في الإسلام.

- بعد مقتله اجتمع الصحابة الكبار بسرعة وسمّوا عثماناً خليفة من دون أن يحتج أحد.

- لم تكن لحادثة اغتيال الخليفة عمر، بعكس الخليفة عثمان، أسباب بعيدة من النقمة عليه أو من الشكوى من أعماله واستئثار عائلته بالسلطة.

كلّ هذه الأسباب أبقت حادث اغتيال الخليفة عمر محصوراً في الظروف والنتائج.

لكن اغتيال الخليفة عثمان بن عفان كانت له ذيول خطيرة أدت إلى الانشقاق الكبير في الإسلام وإلى فرقة بين المسلمين. لذلك دعي هذا الحادث، وما تبعه من ذيول، بـ «الفتنة الكبرى».

يروى أن عثمان قال أثناء حصاره: «فوالله لئن قتلوني، لا يتحابون بعدي أبداً ولا يصلّون بعدي جميعاً أبداً، ولا يقاتلون بعدي عدواً جميعاً أبداً». وهذا ما حصل بالفعل.

فما هي الظروف والعوامل التي أدت إلى هذه الفتنة؟

الفصل السابع
النقمة على الخليفة عثمان بن عفان

في السنة الخامسة والثلاثين للهجرة، وبعد حصار للخليفة عثمان بن عفان في منزله من قبل جماعات ناقمة قادمة من مصر، دخل هؤلاء عليه وقتلوه.

فما هي الظروف والعوامل والأسباب التي أوصلت الأمور إلى هذه النتيجة؟

أولاً – أسباب النقمة على الخليفة عثمان

كان عثمان بن عفان أحد الصحابة المقرّبين من النبيّ ﷺ وأحد كبار البيت الأموي. لذلك فتح اختياره للخلافة الباب واسعاً أمام استئثار أفراد أسرة أمية بالسلطة والمناصب في الدولة الراشدية، وذلك رغم العهود والمواثيق التي أُخذت على عثمان.

وسبب استئثار أفراد عائلة أمية بالسلطة يعود إلى ضعف عثمان أمام عائلته، وكونه مسناً وليّناً تجاه هذه العائلة. كما أن هذا الخليفة كان مقتنعاً بأنه يستطيع حلّ المشكلات التي اعترضته بواسطة أفراد عائلته. ومن هذه القضايا ما يتعلّق بالغنائم وطبيعة الدولة وسياستها العامة.

ورغم أن عثمان اتّبع سياسة عمر بن الخطاب نفسها بالنسبة إلى الغنائم، فإن انطلاق موجات الاحتجاج حصل بقوة في عهده، وذلك يعود إلى شخصية الخليفة عمر القوية بالقياس إلى شخصية عثمان الضعيفة. كما أن الخليفة عمر كان يقوم بزيارات للأمصار وللولايات والمعسكرات، ما

خفّف من إمكان قيام ثورات أو تحرّكات ضد حكمه، وذلك رغم أنه اتخذ أحياناً قرارات ليست في مصلحة الجند، لا سيما عند تقرير كيفية قسمة أملاك سواد العراق حين عطّل عملية القسمة هذه متخذاً قرارات تشريعية جديدة.

أما الخليفة عثمان، فإن عمره وضعفه لم يسمحا له بالقيام بمثل تلك الزيارات للأمصار والمعسكرات، كما أن هذه الزيارات كانت ضد سياسته في الحكم. لذلك تجرّأ عليه أهل الأمصار.

زد على ذلك أن تراجعه عن قراراته تحت ضغط المحتجّين كان له دور أيضاً في تجرّؤ هؤلاء عليه، كما حصل في الكوفة عندما عيّن سعيداً بن العاص أميراً عليها، فخرج أهلها عليه بالسلاح بقيادة الاشتر النخعي ومنعوه عن تسلّم ولايته. فعاد عثمان وتخلّى عن هذا التعيين وعزل سعيداً وأقرّ تعيين أبي موسى الاشعري، الذي طالب به المحتجّون، والياً على الكوفة.

عدّد جرجي زيدان أسباب النقمة على عثمان، فكتب:(1)

«وفي زمن عثمان حدثت الفتنة، ثم استشرى أمرها بمقتله سنة ٣٥هـ. فغيّرت طور التاريخ الإسلامي. وسببها أن عمر لما طعنه أبو لؤلؤة سنة ٢٣هـ. وأحسّ بدنوّ الأجل أهمّه أمر المسلمين بعده، فعمد إلى طريقة لانتخاب من يتولاهم بعده بالأكثرية فسمى نفراً من الصحابة فيهم عثمان بن عفّان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعلي بن أبي طالب. وأوصاهم أن يجتمعوا في بيت عائشة زوج النبيّ ويختاروا واحداً منهم يتولّى الخلافة بعده، فاختاروا عثمان ابن عفان وهو من بني أميّة وأكبرهم سناً.

وكان بنو أميّة أوفر بطون قريش عدداً وقوة، لكن أكثرهم لم يدخلوا في الإسلام إلاّ بعد فتح مكّة وبعد أن أسلم أبو سفيان زعيمهم، فلم يكن لهم جهاد في الغزوات التي قامت عليها دعائم الدولة الإسلاميّة فلما تولّى أبو بكر لم يولهم الأعمال، إلا قليلاً منهم، وربّما كان السبب في ذلك أنه لم يكن يثق بصدق إسلامهم لحداثة عهدهم فيه، أو لأنهم أسلموا مضطرّين فطالبوه بزيادة نصيبهم في الولايات فقال

(1) جرجي زيدان، المؤلّفات الكاملة، دار نوبليس، بيروت، ٢٠٠٤، جزء ٣١، صفحة ٨٥ – ٨٦.

لهم: «أدركوا إخوانهم في الجهاد». وأنفذهم لحروب الردّة، ثمّ بعثهم عمر لحروب الشام. وهم مع ذلك يرون أنهم أولى بطون قريش بالسلطة، لأنهم أعزّ من بني هاشم جانباً وأكثر عدداً، وكانت القيادة في الحروب قبل الإسلام إليهم كما رأيت في كلامنا عن مناصب الجاهلية، وزاد نفوذهم بعد موت أبي طالب عمّ النبي. وكانت بين الهاشميين والأمويين منافسة متصلة بزمن الجاهلية.

فلما تولّى عثمان بن عفان اعتزّوا به، وكان رجلاً صالحاً لكنّه كان يؤثر أقرباءه فجعل يوليهم الأعمال في الأمصار ويعهد إليهم بمصالح الدولة، فشق ذلك على الصحابة الذين كانت الأعمال إليهم من قبل. وحدثت أسباب أخرى يطول شرحها آلت إلى نقمة أهل الأمصار على عثمان، فجاؤوا إلى المدينة وفيهم أهل مصر والكوفة وأهل البصرة وطلبوا إليه أن يخلع نفسه، فأبى فقتلوه وهو يقرأ القرآن فتلطّخ قميصه بالدم».

أما ابن خلدون، فقد ذكر ظروف النقمة على عثمان فكتب:[1]

«لما استكمل الفتح واستكمل للملة الملك ونزل العرب بالأمصار في حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر، وكان المختصّون بصحابة الرسول ﷺ والاقتداء بهَديه وآدابه المهاجرين والأنصار من قريش وأهل الحجاز، ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم. وأما سائر العرب من بني بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة والأزد وكِندة وتميم وقُضاعة وغيرهم فلم يكونوا من تلك الصحبة بمكان إلاّ قليلاً منهم، وكان لهم في الفتوحات قدم.

فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة من الصحابة ومعرفة حقهم، وما كانوا فيه من الذهول والدهش لأمر النبوّة وتردّد الوحي وتنزل الملائكة. فلما انحسر ذلك العباب، تنوسي الحال بعض الشيء، وذلّ العدوّ واستفحل الملك.

كانت عروق الجاهلية تنبض ووجدوا الرياسة عليهم للمهاجرين والأنصار من قريش وسواهم فأنفت نفوسهم منه، ووافق

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٢٦ – ١٠٢٨.

أيام عثمان، فكانوا يظهرون الطعن في ولاته بالأمصار، والمؤاخذة لهم باللحظات والخطرات، والاستبطاء عليهم في الطاعات، والتجني بسؤال الاستبدال منهم والعزل، ويفيضون في النكير على عثمان.

وفشت المقالة في ذلك من أتباعهم، وتنادوا بالظلم من الأمراء في جهاتهم، وانتهت الأخبار بذلك إلى الصحابة بالمدينة فارتابوا لها، وأفاضوا في عزل عثمان وحمله على عزل أمرائه. وبعث إلى الأمصار من يأتيه بصحيح الخبر: محمّد بن مَسلَمة إلى الكوفة، وأُسامة بن زَيد إلى البصرة، وعبدالله ابن عمر إلى الشام، وعمّار بن ياسر إلى مصر، وغيرهم إلى سوى هذه.

فرجعوا إليه فقالوا: ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعيان المسلمين ولا عوامهم إلاّ عمّاراً فإنه استماله قوم من الأشرار انقطعوا إليه، منهم عبدالله بن سبأ ويعرف بابن السوداء، وكان يهودياً وهاجر أيام عثمان فلم يَحسُن أسلامه، وأُخرج من البصرة فلحق بالكوفة ثمّ بالشام، وأخرجوه فلحق بمصر، وكان يكثر الطعن على عثمان ويدعو في السرّ لأهل البيت، ويقول أن محمّداً يرجع كما يرجع عيسى.

وعنه أخذ ذلك أهل الرجعة وإن علياً (رضي الله عنه) وصيّ رسول الله ﷺ حيث لم يجز وصيّته، وأن عثمان أخذ الأمر بغير حقّ، ويحرض الناس على القيام في ذلك والطعن على الأمراء. فاستمال الناس بذلك في الأمصار، وكاتب به بعضهم بعضاً. وكان معه خالد بن مُلجم وسودان بن حمران وكنانة ابن بِشر، فثبّطوا عمّاراً عن المسير إلى المدينة».

ثانياً – أول أعمال الفتنة

إبدال والي الكوفة:

ظهر أول أعمال العنف والعصيان لأوامر الخليفة عثمان في السنة أربعة وثلاثين للهجرة في الكوفة، إذ رفض أهلها الوالي الذي عينه الخليفة وهو سعيد بن العاص، وطالبوا بتعيين أبي موسى الأشعري مكانه، فنزل الخليفة عند مطالبتهم.

وتفاصيل الحادث أن الخليفة عثمان كان قد عيّن في السنة الثالثة والثلاثين للهجرة سعيداً بن العاص والياً على الكوفة.

ومنذ بداية ولايته تجاسر عليه أهل الكوفة، إذ وقع حادث رواه ابن الأثير كما يلي:[1]

«وقيل: بل كان السبب في ذلك أنّه كان يسمر عند سعيد بن العاص وجوه أهل الكوفة منهم مالك بن كعب الأرحبي، والأسود بن يزيد، وعلقمة بن قيس النخعيان، ومالك الأشتر، وغيرهم، فقال سعيد: «إنما هذا السواد بستان قريش». فقال الأشتر: أتزعم أنّ السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستانٌ لك ولقومك؟.

وتكلّم القوم معه فقال عبد الرحمن الأسدي وكان على شرطة سعيد: أتردُّون على الأمير مقالته! وأغلظ لهم؟

فقال الأشتر: مِنْ ها هنا لا يفوتنكم الرجل.

فوثبوا عليه فوطأوه وَطأً شديداً حتى غشي عليه، ثمّ جروا برجله فنُضِح بماء فأفاق فقال: قتلني مَنْ انتخبت.

فقال: والله لا يسمر عندي أحدٌ أبداً.

فجعلوا يجلسون في مجالسهم يشتمون عثمان، وسعيداً، واجتمع إليهم الناس حتى كثروا فكتب سعيد وأشراف أهل الكوفة إلى عثمان في إخراجهم، فكتب إليهم أن يلحقوهم بمعاوية، وكتب إلى معاوية: إنّ نفراً قد خلقوا للفتنة فأقم عليهم وانههم، فإن آنست منهم رُشْداً فاقبل وإن أعيوك فارْدُدْهم عليّ».

وتطوّر الأمر إلى أن كانت السنة الرابعة والثلاثون للهجرة حين طرد أهل الكوفة سعيداً بن العاص وطالبوا بتولي أبي موسى الأشعري على مدينتهم، فرضخ الخليفة لمطالبتهم.

وتفاصيل هذا الحادث جاء بها ابن الأثير إذ كتب:[2]

«ووفد سعيد بن العاص إلى عثمان سنة إحدى عشرة من خلافة عثمان. وكان سعيد قد ولّى قبل مخرجه إلى عثمان بسنة وبعض أخرى الأشعث بن قيس أذربيجان، وسعيد ابن قيس الريّ، والنُّسَيْر العجلي همذان، والسائب بن الأقرع أصبهان، ومالك بن

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣١ – ٣٢.

(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٣٩ – ٤٠.

حبيب ماه، وحكيم بن سلام الحزامي الموصل، وجرير بن عبدالله قرقيسيا، وسلمان ابن ربيعة الباب. وجعل القعقاع بن عمرو على الحرب، وعلى حُلوان عُتَيبة بن النهاس. وخلت الكوفة من الرؤساء فخرج يزيد بن قيس وهو يريد خلع عثمان ومعه الذين كان ابن السوداء يكاتبهم فأخذه القعقاع بن عمرو فقال: إنما نستعفي من سعيد. فقال: أما هذا فنَعَم، فتركه.

وكاتب يزيد المسيرين في القدوم عليه فسار الأشتر والذين عند عبد الرحمن بن خالد فسبقهم الأشتر فلم يفجأ الناس يوم الجمعة إلاّ والأشتر على باب المسجد يقول: «جئتكم من عند أمير المؤمنين عثمان وتركت سعيداً يريده على نقصان نسائكم على مائة درهم، وردّ أولي البلاء منكم إلى ألفين، ويزعم أنّ فيئكم بستان قريش».

فاستخفّ الناس، وجعل أهل الرأي ينهونهم فلا يُسمع منهم، فخرج يزيد وأمر منادياً: من شاء أن يلحق بيزيد لردّ سعيد فليفعل. فبقي أشراف الناس وحلماؤهم في المسجد وعمرو بن حريث يومئذ خليفة سعيد فصعَد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وأمرهم بالاجتماع والطاعة فقال له القعقاع: «أترد السيل عن أدراجه! هيهات، لا والله لا يُسَكّن الغرغاء إلاّ المشرفية[1] ويوشك أن تُنتضى ويَعِجُّون عجيج العتدان[2] ويتمنون ما هم فيه اليوم فلا يرده الله عليهم أبداً فاصبر.

قال: أَصْبِر. وتحول إلى منزله، وخرج يزيد ابن قيس فنزل الجَرَعة[3] وهي قريب من القادسية ومعه الأشتر. فوصل إليهم سعيد ابن العاص فقالوا: لا حاجة لنا بك. قال: إنّما كان يكفيكم أن تبعثوا إلى أمير المؤمنين رجلاً وإليّ رجلاً، وهل يخرج الألف لهم عقول إلى رجل واحد.

ثمّ انصرف عنهم، وأحسّوا بمولى له على بعير قد حُسِر[4] فقال: والله ما كان ينبغي

(١) المشرفية: سيوف نسبت إلى قين كان يعمل السيوف.

(٢) العيدان.

(٣) الجَرَعة: موضع قرب الكوفة.

(٤) حُسِرَ: تعب.

لسعيد أن يرجع. فقتله الأشتر، ومضى سعيد حتى قدم على عثمان فأخبره بما فعلوا وأنهم يريدون البَدَل، وأنهم يختارون أبا موسى، فجعل أبا موسى الأشعريّ أميراً، وكتب إليهم: أمّا بعد فقد أمّرْت عليكم مَن اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، ووالله لأقرضنكم عِرْضِي، ولأبذُلنّ لكم صبري، ولأستصلحنكم بجهدي، فلا تَدَعوا شيئاً أحببتموه لا يُعصى الله فيه إلاّ سألتموه، ولا شيئاً كرهتموه لايعصى الله فيه إلاّ ما استعفيتم منه أنزل فيه عندما أحببتم حتى لا يكون لكم على الله حجة. ولنصبرن كما أُمرنا حتى تبلغوا ما تريدون».

ثالثاً – ازدياد النقمة على عثمان

وحصل في البصرة مثل ما حصل في الكوفة من الطعن. كتب ابن خلدون عن حادثة البصرة ما يلي:(١)

«قدم المدينة قوم فسعوا بعامر بن عبد القيس أنه لا يرى التزويج ولا يأكل اللحم ولا يشهد الجمعة، فألحقه عثمان بمعاوية وأقام عنده حتى تبينت براءته وعرف فضله وحقّه، وقال: ارجع إلى صاحبك! فقال: لا أرجع إلى بلد استحل أهله مني ما استحلوا! وأقام بالشام كثير العبادة والانفراد بالسواحل إلى أن هلك».

وكثر الطعن بالخليفة عثمان في الأمصار، وصولاً إلى المدينة. كتب ابن خلدون أيضاً عن ازدياد النقمة على عثمان:(٢)

«ولمّا كثر هذا الطعن في الأمصار، وتواتر بالمدينة، وكثر الكلام في عثمان والطعن عليه، وكان له منهم شيعة يذبّون عنه: مثل زيد بن ثابت وأبي أُسيد الساعِديّ وكعب ابن مالك وحسّان بن ثابت، فلم يغنوا عنه. واجتمع الناس إلى عليّ بن أبي طالب وكلّموه وعدّدوا عليه ما نقموه. فدخل على عثمان وذكر له شأن الناس وما نقموا عليه، وذكّره بأفعال عُمَر وشِدّته ولينه هو لعمّاله،

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٣٤.
(٢) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص ١٠٣٧ – ١٠٣٨.

وعرض عليه ما يخاف من عواقب ذلك في الدنيا والآخرة. فقال له: إن المغيرة بن شعبة ولّيناه وعمر ولاّه ومعاوية كذلك. وابن عامر تعرفون رحِمه وقرابته. فقال له عليّ: إن عمر كان يطأ على صِماخ من ولاّه، وأنت ترفق بهم، وكان أخوف لعمر من غلامه يرفأ. ومعاوية يستبدّ عليك ويقول هذا أمر عثمان فلا تغير عليه. ثمّ تكالما طويلاً وافترقا، وخرج عثمان على أثر ذلك وخطب، وعرض بما هو فيه من الناس وطعنهم، وما يريدون منه، وأنهم تجرّأوا عليه لرفقه بما لم يتجرّأوا بمثله على ابن الخطّاب، ووافقهم برجوعه في شأنه إلى ما يقدمهم».

الفصل الثامن
مقتل الخليفة عثمان بن عفّان

وفي السنة الخامسة والثلاثين للهجرة، وبعد أن عزل عثمان عمراً بن العاص عن ولاية مصر، نقم عليه هذا الأخير وراح يؤلب الناس ضده. أما والي مصر الجديد عبدالله بن سعد بن أبي سرح فإنه انشغل عن الناقمين بقتال أهل المغرب وفتح بلاد البربر.

كتب ابن كثير عن وضع الناقمين في مصر على سياسة الخليفة عثمان:(١)

«وكان السبب في ذلك أن عمرو بن العاص حين عزله عثمان عن مصر ولّى عليها عبدالله بن سعد بن أبي سرح. وكان سبب ذلك أن الخوارج من المصريين كانوا محصورين من عمرو بن العاص، مقهورين معه لا يستطيعون أن يتكلّموا بسوء في خليفة ولا أمير.

فما زالوا حتى شكوه إلى عثمان لينزعه عنهم ويولي عليهم من هو ألين منه. فلم يزل ذلك دأبهم حتى عزل عمراً عن الحرب وتركه على الصلاة، وولّى على الحرب والخراج عبدالله بن سعد بن أبي سرح. ثمّ سعوا فيما بينهما بالنميمة فوقع بينهما، حتى كان بينهما كلام قبيح. فأرسل عثمان فجمع لابن أبي سرح جميع عمالة مصر، خراجها وحربها وصلاتها، وبعث إلى عمرو يقول له: لا خير لك في المقام عند من يكرهك، فأقدم إلي. فانتقل عمرو بن العاص إلى المدينة وفي نفسه من عثمان أمر عظيم وشرّ كبير، فكلمه فيما كان من

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٦٥.

أمره بنفس، وتقاولا في ذلك، وافتخر عمرو ابن العاص بأبيه على عثمان، وأنه كان أعز منه. فقال له عثمان: دع هذا فإنه من أمر الجاهلية. وجعل عمرو بن العاص يؤلب الناس على عثمان. وكان بمصر جماعة يبغضون عثمان ويتكلّمون فيه بكلام قبيح على ما قدمنا، وينقمون عليه في عزله جماعة من عليّة الصحابة وتوليته من دونهم، أو من لا يصلح عندهم للولاية. وكره أهل مصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح، بعد عمرو بن العاص، واشتغل عبدالله بن سعد عنهم بقتال أهل المغرب، وفتحه بلاد البربر والأندلس وإفريقية».

أولاً - مسير الناقمين في مصر إلى المدينة

تابع ابن كثير الرواية حول مسير الناقمين في مصر على الخليفة إلى المدينة لاستنكار أفعال الخليفة، فكتب:(١)

«ونشأ بمصر طائفة من أبناء الصحابة يؤلبون الناس على حربه والإنكار عليه. وكان عظم ذلك مسنداً إلى محمّد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، حتى استنفرا نحواً من ستمائة راكب يذهبون إلى المدينة في صفة معتمرين في شهر رجب، لينكروا على عثمان فساروا إليها تحت أربع رفاق. وأمر الجميع إلى عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وعبد الرحمن بن عديس البلوي، وكنانة بن بشر التجيبي، وسودان بن حمران السكوني. وأقبل معهم محمّد بن أبي بكر، وأقام بمصر محمّد بن أبي حذيفة يؤلب الناس ويدافع عن هؤلاء. وكتب عبدالله بن سعد بن أبي سرح إلى عثمان يعلمه بقدوم هؤلاء القوم إلى المدينة منكرين عليه في صفة معتمرين. فلما اقتربوا من المدينة أمر عثمان علي بن أبي طالب أن يخرج إليهم ليردهم إلى بلادهم قبل أن يدخلوا المدينة. ويقال: بل ندب الناس إليهم، فانتدب علي لذلك فبعثه، وخرج معه جماعة الأشراف وأمره أن يأخذ معه عمار بن ياسر. فقال علي لعمار فأبى عمار أن يخرج معه، فبعث عثمان سعد ابن أبي وقاص أن يذهب إلى عمار ليحرضه على الخروج مع علي إليهم، فأبى عمار كلّ

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٦٥ - ١٦٦.

الإباء، وامتنع أشد الامتناع. وكان متعصّباً على عثمان بسبب تأديبه له فيما تقدّم على أمر وضربه إياه في ذلك، وذلك بسبب شتمه عباس بن عتبة بن أبي لهب، فأدّبهما عثمان. فتأمر عمار عليه لذلك، وجعل يحرض الناس عليه، فنهاه سعد بن أبي وقاص عن ذلك ولامه عليه، فلم يقلع عنه ولم يرجع ولم ينزع. فانطلق علي بن أبي طالب إليهم وهم بالجحفة، وكانوا يعظمونه ويبالغون في أمره، فردهم وأنبهم وشتمهم، فرجعوا على أنفسهم بالملامة، وقالوا: هذا الذي تحاربون الأمير بسببه، وتحتجون عليه به. ويقال إنه ناظرهم في عثمان، وسألهم ماذا ينقمون عليه، فذكروا أشياء منها أنه حمى الحمى، وأنه حرق المصاحف، وأنه أتمّ الصلاة وأنه ولّى الأحداث الولايات وترك الصحابة الأكابر وأعطى بني أمية أكثر من الناس. فأجاب علي عن ذلك: أما الحمى فإنما حماه لا بل الصدقة لتسمن، ولم يحمه لإبله ولا لغنمه وقد حماه عمر من قبله. وأما المصاحف فإنما حرق ما وقع فيه اختلاف، وأبقى لهم المتفق عليه، كما ثبت في العرضة الأخيرة، وأما إتمامه الصلاة بمكة، فإنه كان قد تأهّل بها ونوى الإقامة فأتمّها. وأما توليته الأحداث فلم يولّ إلاّ رجلاً سوياً عدلاً، وقد ولّى رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد على مكة وهو ابن عشرين سنة، وولّى أسامة بن زيد بن حارثة وطعن الناس في إمارته فقال إنه لخليق بالإمارة. وأما إيثاره قومة بني أمية فقد كان رسول الله ﷺ يؤثر قريشاً على الناس، ووالله لو أن مفتاح الجنة بيدي لأدخلت بني أمية إليها. ويقال إنهم عتبوا عليه في عمار ومحمّد بن أبي بكر، فذكر عثمان عذره في ذلك، وأنه أقام فيهما ما كان يجب عليهما. وعتبوا عليه في إيوائه الحكم ابن أبي العاص، وقد نفاه رسول الله ﷺ إلى الطائف فذكر أنّ رسول الله ﷺ كان قد نفاه إليها، قال فقد نفاه رسول الله ﷺ ثمّ ردّه. وروى أن عثمان خطب الناس بهذا كلّه بمحضر من الصحابة، وجعل يستشهد بهم فيشهدون له فيما فيه شهادة له. ويروي أنهم بعثوا طائفة منهم فشهدوا خطبة عثمان هذه، فلما تمهّدت الأعذار[1] وانزاحت عللهم ولم يبق لهم شبهة، أشار جماعة من الصحابة

(١) تمهدت الأعذار: بسطت.

على عثمان بتأديبهم فصفح عنهم، رضي الله عنه. وردهم إلى قومهم فرجعوا خائبين من حيث أتوا، ولم ينالوا شيئاً مما كانوا أملوا وراموا.[1] ورجع علي إلى عثمان، فأخبره برجوعهم عنه، وسماعهم منه، وأشار على عثمان أن يخطب الناس خطبة يعتذر إليهم فيها مما كان وقع من الأثرة[2] لبعض أقاربه، ويشهدهم عليه بأنه قد تاب من ذلك، وأناب إلى الاستمرار على ما كان عليه من سيرة الشيخين قبله، وأنه لا يحد عنها، كما كان الأمر أولاً في مدّة ست سنين الأول. فاستمع عثمان هذه النصيحة، وقابلها بالسمع والطاعة. ولما كان يوم الجمعة وخطب الناس، رفع يديه في أثناء الخطبة، وقال اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك، اللهم إني أول تائب مما كان مني. وأرسل عينيه بالبكاء فبكى المسلمون أجمعون، وحصل للناس رقة شديدة على إمامهم. وأشهد عثمان الناس على نفسه بذلك، وأنه قد لزم ما كان عليه الشيخان، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وأنه قد سبل[3] بابه لمن أراد الدخول عليه، لا يمنع أحد من ذلك. ونزل فصلّى بالناس ثمّ دخل منزله وجعل من أراد الدخول على أمير المؤمنين لحاجة أو مسألة أو سؤال، لا يمنع أحد من ذلك مدة. قال الواقدي: فحدثني علي بن عمر عن أبيه قال: ثمّ إن علياً جاء عثمان بعد انصراف المصريين فقال له: تكلّم كلاماً تسمعه الناس منك ويشهدون عليك، ويشهد الله على ما في قلبك من النزوع والإنابة، فإن البلاد قد تمخّضت عليك، ولا آمن ركباً آخرين يقدمون من قبل الكوفة، فتقول يا علي اركب إليهم، ويقدم آخرون من البصرة فتقول يا علي اركب إليهم، فإن لم أفعل قطعت رحمك واستخففت بحقك. قال: فخرج عثمان فخطب الخطبة التي نزع فيها، وأعلم الناس من نفسه التوبة، فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثمّ قال: أما بعد، أيها الناس، فوالله ما عاب من عاب شيئاً أجهله، وما جئت شيئاً إلاّ وأنا أعرفه، ولكن

---

(١) راموا: أرادوا.

(٢) الاثرة: التفضيل للأشياء النافعة له.

(٣) سبل بابه: كثر سابلوه.

ضلّ رشدي. ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ زَلَّ فَلْيَتُبْ، وَمَنْ أَخْطَأَ فَلْيَتُبْ وَلا يَتَمَادى فِي الهَلَكَةِ، إنَّ مَنْ تَمَادى في الجُورِ كَانَ أَبْعَدَ عَنِ الطَّرِيقِ». فأنا أول من اتعظ، أستغفر الله مما فعلت وأتوب فمثلي نزع وتاب، فإذا نزلت فليأتني أشرافكم، فوالله لأكونَنَّ كالمرقوق إن ملك صبر، وإن عتق شكر، وما عن الله مذهب إلاّ إليه. قال: فرقّ الناس له وبكى من بكى، وقام إليه سعيد بن زيد فقال: يا أمير المؤمنين! الله الله في نفسك! فأتم على ما قلت. فلما انصرف عثمان إلى منزله وجد به جماعة من أكابر الناس، وجاءه مروان بن الحكم فقال: أتكلّم يا أمير المؤمنين أم أصمت؟ فقالت امرأة عثمان نائلة بنت الفرافصة الكلبية - من وراء الحجاب: بل اصمت، فوالله إنهم لقاتلوه، ولقد قال مقالة لا ينبغي النزوع عنها. فقال لها: وما أنت وذاك؟ فوالله لقد مات أبوك وما يحسن أن يتوضأ. فقالت له: دع ذكر الآباء، ونالت من أبيه الحكم، فأعرض عنها مروان. وقال لعثمان: يا أمير المؤمنين أتكلّم أم أصمت؟ فقال له عثمان: بل تكلّم، فقال مروان: بأبي أنت وأمي، لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممنع منيع، فكنت أول من رضي بها وأعان عليها، ولكنك قلت ما قلت حين جاوز الحزام الطبيين[1]، وبلغ السيل الزُّبى[2]، وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل، والله لإقامة على خطيئة يستغفر منها، خير من توبة خوف عليها، وإنك لو شئت لعزمت التوبة ولم تقرر لنا بالخطيئة، وقد اجتمع إليك على الباب مثل الجبال من الناس. فقال عثمان: قم فاخرج إليهم فكلمهم، فإني أستحي أن أكلّمهم، قال: فخرج مروان إلى الباب والناس يركب بعضهم بعضاً، فقال: ما شأنكم كأنكم قد جئتم لنهب، شاهت الوجوه[3] كلّ إنسان آخذ بإذن صاحبه إلاّ من أريد. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا، أخرجوا عنا، أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم أمر يسوءكم ولا تحمدوا غبّه.

(١) جاوز الحزام الطبيين: أي اشتدّ الأمر وتفاقم، وهو مثل.

(٢) بلغ السيل الزُّبى: أي اشتدّ الأمر وتفاقم، وهو مثل.

(٣) شاهت الوجوه: قبحت.

ارجعوا إلى منازلكم، فوالله ما نحن مغلوبين على ما بأيدينا. قال فرجع الناس، وخرج بعضهم حتى أتى علياً فأخبره الخبر، فجاء علي مغضباً حتى دخل على عثمان، فقال: أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلاّ بتحويلك عن دينك وعقلك؟! وإن مثلك مثل جمل الظعينة سار يث يسار به، والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه، وأيم الله إني لأراه سيوردك ثمّ لا يصدرك، وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك، أذهبت سوقك، وغلبت على أمرك. فلما خرج علي دخلت نائلة على عثمان فقالت: أتكلم أو أسكت؟ فقال: تكلّمي، فقالت: سمعت قول علي أنه ليس يعاودك، وقد أطعت مروان حيث شاء، قال: فما أصنع؟ قالت: تتقي الله وحده لا شريك له، وتتبع سنة صاحبيك من قبلك، فإنك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس له عند الله قدر ولا هيبة ولا محبّة، فأرسل إلى علي فاستصلحه فإن له قرابة منك وهو لا يعصى. قال فأرسل عثمان إلى علي فأبى أن يأتيه، وقال: لقد أعلمته أني لست بعائد. قال بلغ مروان قول نائلة فيه فجاء إلى عثمان فقال: أتكلم أو أسكت؟ فقال: تكلّم، فقال: إن نائلة بنت الفرافصة، فقال عثمان لا تذكرها بحرف فأسوء إلى وجهك، فهي والله أنصح لي منك. قال: فكف مروان.

ثانياً – حصار عثمان في منزله ومقتله

نقل المؤرّخون أخبار حصار عثمان في المدينة ومقتله، فجاءت أخبارهم متشابهة، وكتب ابن خلدون:[1]

«ولما كثرت الإشاعة في الأمصار بالطعن على عثمان وعمّاله، وكتب بعضهم إلى بعض في ذلك، وتوالت الأخبار بذلك على أهل المدينة، جاءوا إلى عثمان وأخبروه فلم يجدوا عنده علماً منه. وقال: أشيروا عليّ وأنتم شهود المؤمنين. قالوا: تبعث من تثق به إلى الأمصار يأتوك بالأخبار. فأرسل محمّد ابن مَسلَمة إلى الكوفة وأُسامة بن زيد إلى البصرة وعبدالله بن عمر إلى الشام وغيرهم إلى سواها. فرجعوا وقالوا: ما أنكرنا شيئاً ولا

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٣٨ – ١٠٥٤.

أنكره علماء المسلمين ولا عوامهم. وتأخّر عمّار بن ياسر بمصر واستماله ابن السوداء وأصحابه خالد بن ملجم وسَودان بن حمران وكنانة بن بِشْر. وكتب عثمان إلى أهل الأمصار اني قد رفع إليّ أهل المدينة أنّ عمّالي وقع منهم أضرار بالناس، وقد أخذتهم بأن يوافوني في كلّ موسم، فمن كان له حق فليحضر يأخذ حقّه مني أو من عمالي، أو تصدّقوا فإن الله يجزي المتصدّقين. فبكى الناس عند قراءة كتابه عليهم، ودعوا له.

وبعث إلى عمّال الأمصار فقدموا عليه في الموسم: عبدالله بن عامر وابن أبي سرح ومعاوية وأدخل معهم سعيد بن العاص وعمراً وقال: ويحكم ما هذه الشكاية والإذاعة؟ وإني لأخشى والله أن يكونوا صادقين! فقالوا له: ألم يخبرك رسلك بأن أحداً لم يشافههم بشيء، وإنما هذه إشاعة لا يحلّ الأخذ بها، واختلفوا في وجه الرأي في ذلك. فقال عثمان: إن الأمر كائن وبابه سيفتح، ولا أحب أن تكون لأحد عليّ حجّة في فتحه. وقد علم الله اني لم آل الناس خيراً، فسكّنوا الناس وبيّنوا لهم حقوقهم.

ثمّ قدم المدينة فدعا علياً وطَلحة والزّبَير - ومعاوية حاضر -، فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أنتم ولاة هذا الأمر واخترتم صاحبكم يعني عثمان، وقد كبُر وأشرف وفَشت مقالة خفتها عليكم فما عنيتم به من شيء فأنالكم به، ولا تطمعوا الناس في أمركم. فانتهره عليّ، ثمّ ذهب عثمان يتكلّم، وقال: اللذان كانا قبلي منعا قرابتهما احتساباً، وأن رسول الله ﷺ كان يعطي قرابته، وأن قرابتي أهل عيلة وقلّة معاش فأعطيتهم، فان رأيتم ذلك خطأً فردّوه. فقالوا: أعطيت عبدالله بن خالد ابن أُسيد خمسين ألفاً، ومَروان خمسة عشر ألفاً. قال: آخذ ذلك منهما. فانصرفوا راضين.

وقال له معاوية: أخرج معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك ما لا تطيقه. قال: لا أبتغي بجوار رسول الله ﷺ بدلاً. قال: فابعث إليك جنداً يقيمون معك. قال: لا أضيّق على جيران رسول الله ﷺ. فقال معاوية: لتغتالنّ ولتعيّرن، قال: حسبي الله ونعم الوكيل. ثمّ سار معاوية ومرّ على عليّ وطلحة والزبير فوصّاهم بعثمان وودّعهم ومضى.

وكان المنحرفون عن عثمان بالأمصار قد تواعدوا عند مسير الأمراء إلى عثمان أن يثبوا عليه في مغيبهم. فرجع الأمراء ولم يتهيأ لهم ذلك. وجاءتهم كتب من المدينة ممن صار إلى مذهبهم في الانحراف عن عثمان أن أقدموا علينا فإن الجهاد عندنا. فتكاتبوا من أمصارهم في القدوم إلى المدينة، فخرج المصريّون وفيهم عبد الرحمن بن عُدَيس البَلَوِيّ في خمسمائة وقيل في ألف، وفيهم كنانة بن بشر الليثيّ وسودان بن حمران السَكونيّ ومَيسَرة أو قيترة بن فلان السكوني، وعليهم جميعاً الغافِقي بن حرب العكيّ.

وخرج أهل الكوفة وفيهم زيد بن صوحان العَبْدِي والاشتر النَخَعِيّ وزياد بن النَضر الحارثي وعبدالله بن الأصمّ العامريّ.

وخرج أهل البصرة وفيهم حكيم بن جَبَلة العَبْديّ وزرَيح بن عبّاد وبشر بن شُرَيح القَيسيّ، وابن المحرش، وعليهم حرّقوص بن زهير السَعدي، وكلّهم في مثل عدد أهل مصر.

وخرجوا جميعاً في شوال مظهرين للحجّ، ولما كانوا من المدينة على ثلاثة مراحل تقدّم ناس من أهل البصرة وكان هواهم في طلحة فنزلوا ذا خشب. وتقدّم ناس من أهل الكوفة وكان هواهم في الزُبير فنزلوا الأعوَص. ونزل معهم ناس من أهل مصر وكان هواهم في عليٍّ، وتركوا عامتهم بذي المروة. وقال زياد بن النضر وعبدالله بن الأصمّ من أهل الكوفة: لا تعجلوا حتى تدخل المدينة فقد بلغنا أنّهم عسكروا لنا، فوالله إن كان حقاً لا يقوم لنا أمر.

ثمّ دخلوا المدينة ولقوا عليًا وطَلْحَة والزُبير وأمهات المؤمنين وأخبروهم أنهم إنما أتوا للحجّ، وأن يستعفوا من بعض العُمّال. واستأذنوا في الدخول فمنعوهم ورجعوا إلى أصحابهم وتشاوروا في أن يذهب من أهل الكوفة وكلّ مصر فريق إلى أصحابهم كياداً وطلباً في الفرقة. فأتى المصريّون علياً وهو في عسكره عند أحجار الزيت، وقد بعث ابنه الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع عليه فعرضوا عليه أمرهم، فصاح بهم وطردهم وقال: إن جيش ذي المروة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان رسول الله ﷺ وقد علم ذلك الصالحون.

وأتى البَصْرِيُّون طَلْحَة والكوفيُّون الزُبير فقالا مثل ذلك، فانصرفوا وافترقوا عن هذه

الأماكن إلى عسكرهم على بعد. فتفرّق أهل المدينة فلم يشعروا إلاّ والتكبير في نواحيها وقد هجموا وأحاطوا بعثمان، ونادوا بأمان من كفّ يده.

وصلّى عثمان بالناس أياماً، ولزم الناس بيوتهم ولم يمنعوا الناس من كلامه. وغدا عليهم عليٌّ فقال: ما ردّكم بعد ذهابكم؟ قالوا: أخذنا كتاباً مع يزيد بقتلنا. وقال البَصريُّون لطلحة والكوفيّون للزُبَير مثل مقالة أهل مصر وأنهم جاءوا لينصروهم. فقال لهم عليٌّ: كيف علمتهم بما لقي أهل مصر وكلهم على مراحل من صاحبه حتى رجعتم علينا جميعاً؟ هذا أمر أُبرِمَ بلَيل: فقالوا: أجعلوه كيف شئتم، لا حاجة لنا بهذا الرجل ليعتزلنا وهم يصلّون خلفه، ومنعوا الناس من الاجتماع معه.

وكتب عثمان إلى أهل الأمصار يستحثّهم، حبيب بن مَسْلَمة الفِهريّ، وبعث عبدالله بن أبي سرح معاوية بن جُرَيج، وخرج من الكوفة القَعْقاع بن عمرو، وتسابقوا إلى المدينة على الصعب والذَلول. وقام بالكوفة نفر يَحُضّون على إعانة أهل المدينة، فمن الصحابة عُقبَة بن عامر وعبدالله بن أبي أوفى وحنظلة الكاتب، ومن التابعين مسروق الأسود وشُرَيح وعبدالله بن حكيم. وقام بالبصرة في ذلك عِمران بن حُصَين وأنس بن مالك وهشام ابن عامر، ومن التابعين كعب بن سِوار وهَرِم ابن حيّان. وقام بالشام وبمصر جماعة أخرى من الصحابة والتابعين. ثمّ خطب عثمان في الجمعة القابلة وقاه: يا هؤلاء! الله، الله! فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعنون على لسان محمد فامحوا الخطأ بالصواب. فقال محمّد بن مسلمة أنا أشهد بذلك، فأقعده حكيم ابن جَبَلة. وقام زيد بن ثابت فأقعده آخر، وحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد، وأُصيب عثمان بالحَصباء فصَرِخ، وقاتل دونه سعد بن أبي وقّاص والحُسَين وزيد بن ثابت وأبو هُريرة. ودخل عثمان بيته وعزم عليهم في الانصراف فانصرفوا. ودخل عليٌ وطلحة والزبير على عثمان يعودونه وعنده نفر من بني أُميّة فيهم مروان فقالوا لعليّ: أهلكتنا وصنعت هذا الصنع، والله لئن بلغت الذي تريد لتحزن عليك الدنيا، فقام مغضباً، وعادوا إلى منازلهم.

وصلّى عثمان بالناس وهو محصور ثلاثين يوماً. ثمّ منعوه الصلاة وصلّى بالناس أمير المصريين الغافقيّ بن حرب العكّي. وتفرّق أهل المدينة في بيوتهم وحيطانهم ملازمين للسلاح، وبقي الحصار أربعين يوماً. وقيل بل أمّر عثمان أبا أيوب الأنصاري فصلّى أياماً. ثمّ صلّى عليّ بعده بالناس وقيل أمّر عليّاً سهل بن حنيف فصلّى عشر ذي الحجة، ثمّ صلّى العيد والصلوات حتى قتل عثمان. وقد قيل في حصار عثمان: إن محمّد بن أبي بكر ومحمّد بن حُذَيفة كانا بمصر يحرضان على عثمان. فلمّا خرج المصريون في رجب مظهرين للحج ومضمرين قتل عثمان أو خلعه، وعليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي، كان فيمن خرج مع المصريين محمّد ابن أبي بكر. وبعث عبدالله بن سعيد في آثارهم وأقام محمّد بن أبي حذيفة بمصر. فلما كان ابن أبي سرح بأيلَة بلغه أن المصريين رجعوا إلى عثمان فحصروه، وأن محمّد بن أبي حذيفة غلب على مصر، فرجع سريعاً إليهما فمنع منهما فأتى فلسطين وأقام بها حتى قتل عثمان.

وأما المصريون فلما نزلوا ذا خشب جاء عثمان إلى بيت عليّ ومتّ إليه بالقرابة في أن يركب إليهم ويردّهم لئلا تظهر الجرأة منهم. فقال له عليّ: قد كلّمتك في ذلك فأطعت أصحابك وعصيتني! - يعني مروان ومعاوية وابن عامر وابن أبي سشرح وسعيد - فعلى أي شيء أردّهم؟ فقال على أن أصير إلى ما تراه وتشيره، وأن أعصي أصحابي وأطيعك. فركب عليّ في ثلاثين من المهاجرين والأنصار فيهم سعد بن زيد وأبو جَهْم العَدَوِيّ وجُبَيْر بن مُطعِم وحكيم بن حزام ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن عِتاب، ومن الأنصار أبو أُسَيد الساعدي وأبو حميد وزيد بن ثابت وحسّان وكعب بن مالك، ومن العرب دينار بن مكرز. فأتوا المصريين وتولّى الكلام معهم عليّ ومحمّد بن مسلمة. فرجعوا إلى مصر وقال ابن عديس لمحمّد: أتوصينا بحاجة؟ قال تتقي الله وتردّ من قبلك عن أمانة، فقد وعدنا أن يرجع وينزع.

ورجع القوم إلى المدينة ودخل عليّ على عثمان وأخبره برجوع المصريين. ثمّ جاءه مروان من الغد فقال له: أخبر الناس بأن أهل

مصر قد رجعوا وأن ما بلغهم عنك كان باطلاً قبل أن يجيء الناس من الأمصار ويأتيك ما لا تطيقه ففعل. فلما خطب ناداه الناس من كلّ ناحية: اتق الله يا عثمان وتب إلى الله، وكان أوّلهم عمرو بن العاص. فرفع يده وقال لهم: إني تائب. وخرج عمرو بن العاص إلى منزله بفلسطين، ثمّ جاء الخبر بحصاره وقتله. وقيل: إنّ علياً لما رجع عن المصريين أشار على عثمان أن يسمع الناس ما اعتزم عليه من النزوع قبل أن يجيء غيرهم ففعل وخطب بذلك، وأعطى الناس من نفسه التوبة وقال: أنا أوّل من اتعظ، استغفر الله مما فعلت وأتوب إليه، فليأت أشرافكم يروني رأيهم، فوالله إن ردّني الحق عبداً لاستنّ بسنّة العبد ولأذلنّ ذلّ العبد، وما عن الله مذهب إلاّ إليه. فوالله لأعطينكم الرضى ولا احتجب عنكم. ثمّ بكى وبكى الناس ودخل منزله.

فجاءه نفر من بني أميّة يعذلونه في ذلك فوبختهم نائلة بنت الفرافصة، فلم يرجعوا إليها وعابوه فيما فعل واستذلّوه في إقراره بالخطيئة والتوبة عند الخوف، واجتمع الناس في الباب وقد ركب بعضهم بعضاً. فقال لمروان كلّمهم! فاغلظ لهم في القول وقال: جئتم لنزع ملكنا من أيدينا. والله لئن رميتمونا ليمرنّ عليكم منا أمر لا يسرّكم ولا تحمدوا غبّ رأيكم، ارجعوا إلى منازلكم فأنّا والله ما نحن مغلوبون على ما في أيدينا.

وبلغ الخبر علياً فنكر ذلك وقال لعبد الرحمن بن الأسود ابن عبد يغوث: أسمعت خطبته بالأمس، ومقالة مروان للناس اليوم؟ يا لله ويا للناس! إن قعدت في بيتي قال تركتني وقرابتي وحقي، وإن تكلّمت فجاء ما يزيد يلعب به مروان ويسوقه حيث يشاء بعد كبر السنّ وصحبة الرسول. وقام مغضباً إلى عثمان واستقبح مقالة مروان وأنّبه عليها وقال: ما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك، فقد أذهبت شرفك وغلبت على رأيك. ثمّ دخلت عليه امرأته نائلة وقد سمعت قول عليّ، فعذلته في طاعة مروان وأشارت عليه باستصلاح عليّ، فبعث إليه فلم يأته.

فأتاه عثمان إلى منزله ليلاً يستلينه ويعده الثبات على رأيه معه، فقال: بعد أن أقام مروان على بابك يشتم الناس ويؤذيهم؟ فخرج عثمان وهو يقول خذلتني وجرّأت عليّ الناس! فقال عليّ: والله اني أكثر

الناس ذبّاً عنك، ولكني كلّما جئت بشيء أظنّه لك رضاً جاء مروان بأخرى فسمعت قوله وتركت قولي.

ثمّ مُنع عثمان الماء فغضب عليّ غضباً شديداً حتى دخلت الروايا على عثمان. وقيل إنّ علياً كان عند حصار عثمان بخيبر فقدم والناس يجتمعون عند طلحة فجاءه عثمان وقال: يا عليّ! إن لي حقّ الأخاء والقرابة والصهر، ولو كان أمر الجاهليّة فقط لكان عاراً على بني عبد مناف أن تنزع تيم أمرهم! فجاء عليّ إلى طلحة وقال: ما هذا؟ فقال طلحة: أبعد ما مسّ الحزام الطبيَين يا أبا حسن! فانصرف عليّ إلى بيت المال وأعطى الناس فبقي طلحة وحده. وسرّ بذلك عثمان وجاء إليه طلحة فقال له: والله ما جئت تائباً ولكن مغلوباً، فالله حسيبك يا طلحة.

وقيل إن المصريين لما رجعوا خرج إليهم محمّد بن مَسلمة فأعطوه صحيفة قالوا وجدناها عند غلام عثمان بالبُوَيب، وهو على بعير من إبل الصّدقة يأمر فيها بجلد عبد الرحمن بن عُديس وعمرو بن الحَمِق وعُروة ابن البيّاع، وحبسهم وحلق رؤوسهم ولحاهم وصلب بعضهم. وقيل وُجِدت الصحيفة بيد أبي الأعور السّلَميّ. فعاد المصريون وعاد معهم الكوفيّون والبصريّون، وقالوا لمحمّد بن مسلمة حين سألهم: قد كلمنا علياً وسعد ابن أبي وقّاص وسعيداً بن زيد فوعدونا أن يكلّموه، فليحضر عليّ معنا عند عثمان. ثمّ دخل عليّ ومحمّد على عثمان وأخبروه بقول أهل مصر فحلف ما كتب ولا علم.

فقال محمّد: صدق! هذا من عمل مروان. ودخل المصريّون، فشكا ابن عُديس بابن أبي سَرْح وما أحدثه بمصر، وأنه ينسب ذلك إلى كتاب عثمان، وأنّا جئنا من مصر لقتلك فردّنا عليّ ومحمّد وضَمِنا لنا النزوع عن هذا كلّه، فرجعنا ولقينا هذا الكتاب وفيه أمرك لابن أبي سرح بجلدنا والمُثلة بنا وطول الحبس، وهو بيد غلامك وعليه خاتمك. فحلف عثمان ما كتب ولا أمر ولا علم. قالوا: فكيف يجترىء عليك بمثل هذا؟ فقد استحقّيت الخلع على التقديرين، ولا يحلّ أن يولّى الأمور من ينتهي إلى هذا الضعف فاخلع نفسك. فقال: لا أنزع ما ألبسني الله، ولكن أتوب وأرجع.

قال: رأيناك تتوب وتعود فلا بدّ من خلعك أو قتلك، وقتال أصحابك دون ذلك

إلى أن يخلص إليك أو تموت. فقال: لا يتالكم أحد بأخرى، ولو أردت ذلك لاستجشت بأهل الأمصار. ثمّ كثر اللغط وأخرجوا ومضى عليّ إلى منزله. وحصر المصريون عثمان وكتب إلى معاوية وابن عامر يستحثهم. وقام يزيد بن أسَدٍ القسري فاستنفر أهل الشام وسار إلى عثمان وبلغهم قتله بوادي القرى فرجعوا. وقيل سار من الشام حبيب بن مسلمة، ومن البصرة مُجاشع بن مسعود فبلغهم قتله بالرَبَذة فرجعوا.

وكان بطانة عثمان أشاروا عليه أن يبعث إلى عليّ في كفهم عنه على الوفاء لهم، فبعث إليه في ذلك فأجاب بعد توقف. ثمّ بعث إليهم فقالوا: لا بدّ أن نتوثّق منه، وجاءه فاعلمه وتوثّق منه، على أجل ثلاثة أيام. وكتب بينهم كتاباً على ردّ المظالم وعزل من كرهوه من العُمّال. ثمّ مضى الأجل هو مستعدّ ولم يغيّر شيئاً، فجاءه المصريّون من ذي خشب يستنجزون عهدهم فأبى فحصروه.

وأرسل إلى عليّ وطلحة والزُبير وأشرف عليهم فحيّاهم ودعا لهم ثمّ قال: انشدكم الله تعالى هل تعلمون أنكم دعوتم الله عند مصاب عمر أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم؟ أتقولون إنه لم يستجب لكم، أو تقولون إن الله لم يبال بمن ولّى هذا الدين، أم تقولون إن الأمّة ولو مكابرة وعن غير مشورة فوكلهم إلى أمرهم. أولم يعلم عاقبة أمري! ثمّ أنشدكم الله هل تعلمون لي من السوابق ما يجب حقه! فمهلاً فلا يحلّ إلاّ قتل ثلاثة: زانٍ بعد إحصان، وكافر بعد إيمان، وقاتل بغير حقّ. ثمّ إذا قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم، ثمّ لا يرفع عنكم الاختلاف.

فقالوا له: أما ذكرت من الاستخارة بعد عمر فكلّ ما صنع الله تعالى فيه الخِيَرَة، ولكنّ الله ابتلى بك عباده. وأما حقّك وسابقتك فصحيح، لكن أحدثت ما علمت، ولا تترك إقامة الحق مخافة الفتنة عاماً قابلاً. وأمّا حصر القتل في الثلاثة ففي كتاب الله: قتل من سعى في الأرض فساداً، ومن قاتل على البغي وعلى منع الحق والمكابرة عليه. وأنت إنما تمسّكت بالأمارة علينا، وإنما قاتل دونك هؤلاء بهذه التسمية، فلو نزعتها انصرفوا.

فسكت عثمان ولزم الدار، وأقسم على الناس بالانصراف فانصرفوا إلاّ الحَسَن بن

عليّ ومحمّد بن طلحة وعبدالله بن الزُبير، وكانت مدّة الحصار أربعين يوماً. ولثمان عشرة منها وصل الخبر بمسير الجنود من الأمصار فاشتدّ الحصار ومنعوه من لقاء الناس ومن الماء. وأرسل إلى عليّ وطلحة والزبير وأمهات المؤمنين يطلب الماء. فركب عليّ إليهم مُغلِساً وقال: يا أيّها الناس إن هذا لا يشبه أمر المؤمنين ولا الكافرين! وإنّ الأسير عند فارس والروم يُطعم ويُسقى. فقالوا لا والله ونعمة عين. فرجع وجاءت أم حُبيبة على بغلتها مشتملة على أداوَةٍ وقالت: أردت أن أسأل هذا الرجل عن وصايا عنده لبني أميّة أو تهلك أموال أيتامهم وأراملهم. فقالوا: لا والله وضربوا وجه البغلة فنفرت وكادت تسقط عنها، وذهب بها الناس إلى بيتها.

وأشرف عليهم عثمان وقرّر حقوقه وسوابقه. فقال بعضهم: مهلاً عن أمير المؤمنين. فجاء الأشتر وفرّق الناس وقال: لا يمكر بكم. ثمّ خرجت عائشة إلى الحج ودعت أخاها فأبى فقال له حنظلة الكاتب: تدعوك أم المؤمنين فلا تتّبعها وتتبع سفهاء العرب فيما لا يحلّ؟ ولو قد صار الأمر إلى الغلبة غلبك عليه بنو عبد مناف. ثمّ ذهب حنظلة إلى الكوفة، وبلغ طلحة والزبير ما لقي عليّ وأُمّ حبيبة فلزموا بيوتهم. وكان آل حزم يدسّون الماء إلى بيت عثمان في الغفلات، وكان ابن عبّاس ممّن لزم باب عثمان للمدافعة، فأشرف عليه عثمان وأمره أن يحجّ بالناس فقال: جهاد هؤلاء أحبّ إليّ! فأقسم عليه وانطلق.

لمّا رأى أهل مصر أنّ أهل الموسم يريدون قصدهم، وأن أهل الأمصار يسيرون إليهم اعتزموا على قتل عثمان (رض) وتقبل شهادتهم يرجون في ذلك خلاصهم، واشتغال الناس عنهم. فقاموا إلى الباب ليفتحوه فمنعهم الحسن بن عليّ وابن الزُبير ومحمّد بن طلحة ومروان وسعيد بن العاص ومن معهم من أبناء الصحابة، وقاتلوهم وغلبوهم دون الباب. ثمّ صدّهم عثمان عن القتال وحلف ليدخلنّ فدخلوا وأغلق الباب فجاءوا بالنار وأحرقوه، ودخلوا وعثمان يصلّي وقد افتتح سورة طه. وقد سار أهل الدار فما شغله شيء من أمرهم حتى فرغ وجلس إلى المصحف يقرأ. ثمّ قال لمن عنده: إن رسول الله ﷺ قد عَهَد إليّ عهداً فأنا

صابر عليه ومنعهم من القتال. وأذن للحسن في اللحاق بأبيه وأقسم عليه، فأبى وقاتل دونه. وكان المُغيرَة بن الأخنس بن شَرَيق قد تعجّل من الحج في عِصابة لنصره فقاتل حتى قتل. وجاء أبو هُريرة ينادي: يا قوم ما لي أدعوكم إلى النّجاة وتدعونني إلى النار، وقاتل.

ثمّ اقتُحِمت الدار من ظهرها من جهة دار عَمرو بن حزم فامتلأت قوماً ولا يشعر الذين بالباب. وانتدب رجل فدخل على عثمان في البيت فحاوره في الخلع فأبى، فخرج ودخل آخر ثمّ آخر كلّهم يعظه فيخرج ويفارق القوم. وجاء ابن سلاّم فوعظهم فهمّوا بقتله. ودخل عليه محمّد بن أبي بكر فحاوره طويلاً بما لا حاجة إلى ذكره، ثمّ استحيا وخرج. ثمّ دخل عليه السفهاء فضربه أحدهم وأكبت عليه نائلة امرأته تتقي الضرب بيدها، فنفحها أحدهم بالسيف في أصابعها. ثمّ قتلوه وسال دمه على المصحف.

وجاء غلمانه فقتلوا بعض أولئك القاتلين وقتلاء أخر وانتهبوا ما في البيت وما على النساء حتى ملاءة نائلة، وقتل الغلمان منهم، وقتلوا من الغلمان. ثمّ خرجوا إلى بيت المال فانتهبوه وأرادوا قطع رأسه فمنعهم النساء. فقال ابن عديس: اتركوه.

ويقال إن الذي تولّى قتله كنانة بن بِشر التُجَيْبِيّ. وطعنه عمرو بن الحمق طعنات. وجاء عُمَير بن ضابىء وكان أبوه في سجنه فوثب عليه حتى كسر ضلعاً من أضلاعه. وكان قتله لثمان عشرة خلت من ذي الحجة، وبقي في بيته ثلاثة أيام.

ثمّ جاء حكيم بن حزام وجُبَير بن مُطعِم إلى عليّ فأذن لهم في دفنه، فخرجوا به بين المغرب والعشاء ومعهم الزُبَير والحَسَن وأبو جَهم بن حُذَيفة ومروان فدفنوه في حِشّ كوكب(١) وصلّى عليه جُبَير وقيل مَروان وقيل حكيم. ويقال: إنّ ناساً تعرّضوا لهم ليمنعوا من الصلاة عليه فأرسل إليهم عليّ وزجرهم. وقيل إن عليّاً وطلحة حضرا جنازته، وزيد بن ثابت وكعب بن مالك.

وكان عمّاله عند موته على ما نذكره: فعلى مكّة عبدالله بن الحَضرَمِيّ، وعلى

(١) حائط من حيطان المدينة، وهو خارج البقيع.

الطائف القاسم بن ربيعة الثقَفِيّ، وعلى صنعاء يعلى بن مَنيّة، وعلى الجند عبدالله ابن ربيعة، وعلى البصرة والبحرين عبدالله ابن عامر، وعلى الشام معاوية بن أبي سفيان، وعلى حِمْص عبد الرحمن بن خالد من قبله، وعلى قَنِسْرين حبيب بن مسلمة كذلك، وعلى الأُردنّ أبو الأعور السَلَمِيّ كذلك، وعلى فِلسطين علقَمَة بن حكيم الكِنْدي كذلك. وعلى البحرين عبدالله بن قيس الفَزاري، وعلى القضاء أبو الدَرْداء، وعلى الكوفة أبو موسى الأشعري على الصلاة، والقعقاع بن عمرو على الحرب، وعلى خراج السواد جابر المُزَنّي، وسمّاك الأنصاريّ على الخراج، وعلى قرقيسيا جرير بن عبدالله، وعلى أذرَبَيْجان الأشعث بن قيس، وعلى حُلوان عُتَيبَة بن نهّاس وعلى أصبَهان السائب بن الأقرع، وعلى ماسبدان خُنَيْس، وعلى بيت المال عُقْبَة بن عمرو، وعلى القضاء زيد بن ثابت».

الفصل التاسع
بيعة علي بن أبي طالب

بعد وفاة الخليفة عثمان بن عفان ظلّ منصب الخلافة شاغراً مدّة أيام في انتظار الخليفة الجديد الذي رغب الثوار بتعيينه من قبلهم. وكان أبرز المرشحين الإمام علي بن أبي طالب لأسباب عديدة أبرزها:

- إنه ابن عم الرسول ﷺ وترعرع في كنفه.
- كان كاتباً للرسول ﷺ منذ حداثته.
- هو صهر النبيّ ﷺ ووالد حفيديه الحسن والحسين.
- كان من السبّاقين إلى الإيمان بالإسلام ديناً.
- حارب في كلّ الغزوات منذ السنة الأولى للهجرة.
- كان مرشحاً للخلافة في كلّ مرّة شغر منصبها.
- كان قد بدأ يمارس بعض أعمال الخلافة، خاصة قيادة الصلوات قبل مقتل الخليفة عثمان وأثناء الحصار الذي فرض عليه.
- لكلّ ما تقدّم برز الإمام علي كأجدر شخصية ليتبوأ الخلافة الإسلاميّة.

إلا أن صعوبات كانت تعترض طريقه إلى الخلافة أهمها:

- عصاميته وقوة شخصيته وتمسّكه بأهداب الدين، كما عرفه عمر بن الخطاب وأبو بكر الصديق. وهذا ما دفع بالصحابة إلى استبعاده عند استشهاد الخليفة عمر بن الخطاب.
- لم يكن يتمتع بثقة كلّ الأحزاب الإسلاميّة.
- كان عليه أن يثبت سلطته ويحلّ مختلف القضايا والمشكلات التي أودت بحياة الخليفة عثمان. وتمكين هذه

السلطة كان يعني القضاء على عدد من كبار الصحابة ورجال الإسلام الذين تسلّموا وظائف كبيرة في زمن الخليفة عثمان وأثروا وسبّبوا مقتل عثمان.

- كانت عليه أيضاً مواجهة رجالات بني أمية الذين استغلّوا مقتل عثمان للمطالبة بالثأر من قاتليه، وعلى رأسهم والي الشام القوي معاوية بن أبي سفيان، الذي أعلن بعد مقتل الخليفة أنه وليّ أمر آل عثمان، وراح يطالب بالثأر له من قاتليه.

لذلك كانت طريق الإمام علي إلى السلطة صعبة وفيها الكثير من العقبات.

كتب جرجي زيدان واصفاً وضع المسلمين بعد وفاة الخليفة عثمان:(١)

«فلمّا قتل عثمان اختلفوا في من يخلفه من كبار الصحابة. وكان غرض أهل مصر في علي بن أبي طالب، وغرض أهل البصرة في طلحة بن عبيد الله، وغرض أهل الكوفة في الزبير بن العوام - وهم أكثر الصحابة تطلّعاً إلى الخلافة - وكان أكثر مسلمي الشام مع بني أميّة، وهم يريدونها لعثمان أو من يخلفه منهم. وأما أهل المدينة فكانوا يريدونها لعلي ابن أبي طالب، جرياً على عاداتهم في نصرة بيت النبي منذ هاجر النبي إليهم. وانضمّ إلى أهل المدينة في نصرة علي ربيعة واليمن وغيرهما. فكان دعاة علي أكثر عدداً من سائر الأحزاب، لكنهم كانوا لفيفاً من قبائل شتى وأكثرهم من المدينة. وبين أهل مكّة والمدينة منافسة قديمة تمكّنت بعد الإسلام، لما رأيته من نصرة أهل المدينة للمسلمين بعد الهجرة، حتى تأيّد أمرهم بهم وعادوا ففتحوا مكّة. وصارت المدينة عاصمة المسلمين وتحوّلت إليها التجارة والنفوذ وضعف أمر مكّة. فلما بايع أهل المدينة علياً بايعه طلحة والزبير مكرهين، وخرجا إلى مكّة فنصرهما أهلها نكاية في أهل المدينة. ثمّ شخصا إلى العراق للاعتزاز بأحزابهما هناك فتبعهما علي بجنده. فجرت بين الجيشين واقعة الجمل الشهيرة بجوار البصرة، فقتل فيها طلحة والزبير وخلصت الخلافة لعلي. فنقل عاصمة المسلمين من المدينة إلى الكوفة وقد أخطأ في تخلّيه عن أحزابه بالمدينة واعتماده على أهل العراق».

(١) جرجي زيدان، مرجع سابق، جزء ٣١، ص ٨٧.

أولاً – من هو الإمام علي

كتب ابن كثير عن الإمام علي:(١)

«هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب واسمه عبد مناف بن عبد المطلب واسمه شيبة بن هاشم واسمه عمرو بن عبد مناف، واسمه المغيرة، بن قصي، واسمه زيد بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان أبو الحسن والحسين. ويكنى بأبي تراب، وأبي القاسم الهاشمي. ابن عم رسول الله ﷺ، وختنه(٢) على ابنته فاطمة الزهراء. وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، ويقال إنها أول هاشمية ولدت هاشمياً. وكان له من الإخوة [ثلاثة] طالب، وعقيل، وجعفر، وكانوا أكبر منه، بين كلّ واحد منهم وبين الآخر عشر سنين. وله أختان؛ أم هانىء وجمانة، وكلهم من فاطمة بنت أسد، وقد أسلمت وهاجرت. وكان علي أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى. وكان ممن توفي ورسول الله ﷺ راض عنهم. وهو رابع الخلفاء الراشدين. وكان رجلاً آدم شديد الأدمة أشكل العينين عظيمهما، حسن ذو بطن. أصلع، وهو إلى القصر أقرب. وكان عظيم اللحية، قد ملأت صدره ومنكبيه، أبيضها، وكان شعر الصدر والكتفين، حسن الوجه، ضحوك السن، خفيف المشي على الأرض. أسلم عليّ قديماً، وهو ابن سبع، وقيل ابن ثمان، وقيل تسع، وقيل عشر، وقيل إحدى عشرة، وقيل اثنتي عشرة، وقيل ثلاث عشرة، وقيل أربع عشرة، وقيل ابن خمس عشرة، أو ست عشرة سنة، قاله عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الحسن، ويقال: إنه أول من أسلم من الغلمان، كما أن خديجة أول من أسلمت من النساء، وزيد بن حارثة أول من أسلم من الموالي، وأبو بكر الصديق أول من أسلم من الرجال الأحرار. وكان

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢١٥ – ٢١٨.

(٢) الختن: الصهر.

سبب إسلام عليّ صغيراً أنه كان في كفالة رسول الله ﷺ، لأنه كان قد أصابتهم سنة مجاعة، فأخذه من أبيه، فكان عنده، فلما بعثه الله بالحق آمنت خديجة وأهل البيت ومن جملتهم عليّ.

......

وقد روى الإمام أحمد من حديث شعبة عن عمرو بن مرة: سمعت أبا حمزة – رجلاً من موالي الأنصار – قال: سمعت زيد بن أرقم يقول: أول مَنْ أسلم مع رسول الله ﷺ عليّ. وفي رواية أول من صلّى. قال عمرو: فذكرت ذلك للنخعي فأنكره، وقال: أبو بكر أول من أسلم. وقال محمّد بن كعب القرظي: أول من آمن من النساء خديجة وأول رجلين آمنا أبو بكر وعليّ ولكن كان أبو بكر يظهر إيمانه وعليّ يكتم إيمانه، قلت: يعني خوفاً من أبيه. ثمّ أمره أبوه بمتابعة ابن عمّه ونصرته. وهاجر عليّ بعد خروج رسول الله ﷺ من مكّة وكان قد أمره بقضاء ديونه ورد ودائعه، ثمّ يلحق به، فامتثل ما أمر به، هاجر، وآخى النبي ﷺ بينه وبين سهل بن حنيف.

......

وقد شهد عليّ بدراً وكانت له اليد البيضاء فيها. بارز يومئذٍ فغلب وظهر وفيه وفي عمه حمزة وابن عمه عبيدة بن الحارث وخصومهم الثلاثة – عتبة وشيبة والوليد بن عتبة – نزل قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِم﴾.(١) وقال الحكم وغيره عن مقسم عن ابن عباس قال: «دَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ إِلَى عَلِيٍّ وهو ابنُ عِشْرِينَ سَنَةً». وقال الحسن بن عرفة: حدثني عمار ابن محمّد عن سعيد بن محمّد الحنظلي عن أبي جعفر محمّد بن علي قال: نادى منادٍ في السماء يوم بدر يقال له رضوان: لا سيف إلاّ ذو الفقار ولا فتى إلاّ علي. قال ابن عساكر: وهذا مرسل وإنما تنفل(٢) رسول الله ﷺ سيفه ذا الفقار يوم بدر ثمّ وهبه من عليّ بعد ذلك. وقال يونس بن بكير عن مسعر عن أبي عوف عن أبي صالح عن علي

---

(١) الحج: من الآية ١٩.

(٢) النفل: الهبة.

قال: قيل لي يوم بدر ولأبي بكر قيل لأحدنا معك جبريل ومع الآخر ميكائيل قال وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتول ولا يقاتل ويكون في الصف. وشهد عليّ أُحداً وكان على الميمنة ومعه الراية بعد مصعب ابن عمير، وعلى الميسرة المنذر بن عمرو الأنصاري، وحمزة بن عبد المطلب، على القلب وعلى الرجالة الزبير بن العوام وقيل المقداد بن الأسود. وقد قاتل عليّ يوم أحد قتالاً شديداً، وقتل خلقاً كثيراً من المشركين، وغسل عن وجه النبي ﷺ الدم الذي كان أصابه من الجراح حين شجّ في وجهه وكسرت رباعيته.[1] وشهد يوم الخندق فقتل يومئذٍ فارس العرب، وأحد شجعانهم المشاهير، عمرو بن عبد ود العامري، كما قدمنا ذلك في غزوة الخندق. وشهد الحديبية وبيعة الرضوان، وشهد خيبر وكانت له بها مواقف هائلة، ومشاهد طائلة، منها أن رسول الله ﷺ قال: «لأُعْطِيَنَّ الرَّايةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ» فبات الناس يذكرون أيهم يعطاها، فدعا عليّاً - وكان أرمد[2] - فدعا له، وبصق في عينه فلم يرمد بعدها، فبرأ وأعطاه الراية، ففتح الله على يديه، وقتل مرحباً اليهودي.

وذكر محمّد بن إسحاق عن عبد الله بن حسن عن بعض أهله عن أبي رافع أن يهودياً ضرب عليّاً فطرح ترسه، فتناول باباً عند الحصن فتترس[3] به، فلم يزل في يده حتى فتح الله على يديه ثمّ ألقاه من يده. قال أبو رافع: فلقد رأيتني أنا وسبعة معي نجتهد أن نقلب ذلك الباب على ظهره يوم خيبر فلم نستطع. وقال ليث عن أبي جعفر عن جابر أن عليّاً حمل الباب على ظهره يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه ففتحوها، فلم يحملوه إلاّ أربعون رجلاً. ومنها أنه قتل مرحباً فارس يهود وشجعانهم. وشهد عليّ عمرة القضاء وفيها قال له النبيّ ﷺ: «أَنْتَ مِنِّي، وَأَنَا مِنْكَ» وكان يذكره كثير من

---

(١) الرباعية: السن التي بين الثنية والناب.

(٢) أرمد: مصاب بالرمد. وهو داء يصيب العيون.

(٣) تترس به: أي استعمله ترساً.

القصاص في مقاتلته الجن في بئر ذات العلم - وهو بئر قريب من الجحفة - فلا أصل له، وهو من وضع الجهلة من الأخباريين فلا يغترّ به. وشهد الفتح وحنيناً والطائف، وقاتل في هذه المشاهد قتالاً كثيراً، واعتمر من الجعرانة مع رسول الله ﷺ. ولما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك واستخلفه على المدينة، قال له: يا رسول الله أتخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال: «ألاَ تَرْضَى أنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هارون مَنْ مُوسَى غَيْرَ أنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي». وبعثه رسول الله ﷺ أميراً وحاكماً على اليمن، ومعه خالد بن الوليد، ثمّ وافى رسول الله ﷺ عام الوداع، إلى مكّة، وساق معه هدياً، وأهل كإهلال النبيّ ﷺ، فأشركه في هديه، واستمرّ على إحرامه ونحرا هديهما بعد فراغ نسكهما. ثمّ لما مات رسول الله ﷺ كان علي من جملة من غسله وكفنه وولي دفنه.

وتزوّج فاطمة بعد وقعة بدر فوُلِد له منها حسن وحسين ومحسن.....

ولمّا بويع الصديق يوم السقيفة كان علي من جملة من بايع بالمسجد.....

فلما توفي أبو بكر وقام عمر في الخلافة بوصية أبي بكر إليه بذلك، كان عليّ من جملة من بايعه، وكان معه يشاوره في الأمور، ويقال إنه استقضاه[1] في أيام خلافته. وقدم معه من جملة سادات أمراء الصحابة إلى الشام؛ وشهد خطبته بالجابية. فلما طعن عمر وجعل الأمر شورى في ستة أحدهم علي ثمّ خلص منهم بعثمان وعلي كما قدمنا، فقدم عثمان على علي، فسمع وأطاع».

ثانياً - بيعة علي بن أبي طالب

بعد مقتل الخليفة عثمان اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، وفيهم طلحة والزبير، وجاءوا علياً فقالوا له: «إنه لا بدّ للناس من إمام»، فقال: «لا حاجة لي في أمركم. فمن اخترتم رضيت به».[2]

(١) استقضاه: ولاه القضاء.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٨١.

ورويت روايات عدّة عن تفاصيل المبايعة أوردها الطبري، فكتب:(١)

«وحدّثني جعفر، قال: حدّثنا عمرو وعليّ، قالا: حدّثنا حسين، عن أبيه، عن أبي ميمونة، عن أبي بشير العابديّ، قال: كنت بالمدينة حين قتل عثمان رضي الله عنه، واجتمع المهاجرون والأنصار، فيهم طلحة والزُّبير، فأتوا عليّاً فقالوا: يا أبا حسن؛ هلمّ نبايعك، فقال: لا حاجة لي في أمْركم، أنا معكم فمن اخترتم فقد رضيت به. فاختاروا والله فقالوا: ما نختار غيرَك؛ قال: فاختلفوا إليه بعد ما قتل عثمان رضي الله عنه مراراً، ثمّ أتوْه في آخر ذلك، فقالوا له: إنه لا يصلح الناس إلاّ بإمرة، وقد طال الأمر، فقال لهم: إنكم قد اختلفتم إليّ وأتيتم، وإنّي قائل لكم قولاً إن قبلتمُوه قبلت أمْركم، وإلاّ فلا حاجة لي فيه. قالوا: ما قلت من شيء قبلناه إن شاء الله. فجاء فصعد المنبر، فاجتمع الناس إليه، فقال: إني كنت كارهاً لأمركم، فأبيتم إلاّ أن أكون عليكم؛ ألا وإنه ليس لي أمرٌ دونكم، إلاّ أنّ مفاتيح مالكم معي، ألا وإنه ليس لي أن آخذ منه درهماً دونكم، رضيتم؟ قالوا: نعم؛ قال: اللهمّ اشهد عليهم، ثمّ بايعهم على ذلك.

وحدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا عليّ ابن محمّد، قال: أخبرنا أبو بكر الهُذَليّ، عن أبي المَلِيح، قال: لما قتِل عثمان رضي الله عنه، خرج عليّ إلى السوق، وذلك يوم السبت لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، فاتّبعه الناس وبهشوا في وجهه، فدخل حائط بني عمرو بن مبذول، وقال لأبي عمرة بن عمرو بن محصَن: أغلق الباب، فجاء الناس فقرعوا الباب، فدخلوا، فيهم طلحة والزّبير، فقالا: يا عليّ ابسُط يَدك، فبايعه طلحة والزّبير، فنظر حبيب بن ذُؤيب إلى طلحة حين بايع، فقال: أوّل من بدأ بالبَيْعة يدٌ شلاّء؛ لا يتمّ هذا الأمر! وخرج عليٌّ إلى المسجد فصعد المنبر وعليه إزارٌ وطاقٌ وعمامة خزّ، ونعلاه في يده، متوكئاً على قوس؛ فبايعه الناس. وجاؤوا بسَعْد، فقال عليّ: بايع، قال: لا أبايع حتى يبايع الناس، والله ما عليك مني بأس؛ قال: خلّوا

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦٩٧.

سبيله. وجاؤوا بابن عمر، فقال: بايع، قال: لا أبايع حتى يبايع الناس، قال: ائتني بحميل، قال: لا أرى حميلاً، قال الأشتر: خلِّ عنّي أضربْ عنقه، قال عليّ: دعوه، أنا حميلُه، إنك - ما علمت - لسيء الخلق صغيراً وكبيراً.

وحدّثني أحمد بن زُهير، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثنا وهب بن جرير، قال: سمعت أبي، قال: سمعت يونس بن يزيد الأيليّ، عن الزُّهريّ، قال: بايع الناس عليّ ابن أبي طالب، فأرسل إلى الزبير وطلحة فدعاهما إلى البيعة، فتلكأ طلحة، فقام مالك الأشتر وسلّ سيفه وقال: والله لتبايعنّ أو لأضربنّ به ما بين عينيك، فقال طلحة: وأين المهرب عنه! فبايعه، وبايعه الزّبير والناس. وسأل طلحة والزّبير أن يؤمّرهما على الكوفة والبصرة، فقال: تكونان عندي فأتجمّل بكما، فإني وَحْشٌ لفراقكما. قال الزّهريّ: وقد بلغنا أنه قال لهما: إنْ أحببتما أن تُبايعا لي وإن أحببتما بايعتكما، فقالا: بل نبايعك؛ وقالا بعد ذلك: إنما صنعنا ذلك خشيةً على أنفسنا، وقد عرفنا أنه لم يكن ليُبايعنا. فظهرا إلى مكّة بعد قتل عثمان بأربعة أشهر».

إبن خلدون من جهته، أورد الرواية التالية عن المبايعة:(١)

«لما قتل عثمان اجتمع طلحة والزبير والمهاجرون والأنصار وأتوا علياً يبايعونه فأبى وقال: أكون وزيراً لكم خير من أن أكون أميراً، ومن اخترتم رضيته. فألحّوا عليه وقالوا له: لا نعلم أحق منك ولا نختار غيرك حتى غلبوه في ذلك، فخرج إلى المسجد وبايعوه. وأول من بايعه طلحة ثمّ الزُّبّير بعد أن خيّرهما - ويقال إنهما ادعيا الإكراه بعد ذلك بأربعة أشهر وخرجا إلى مكّة - ثمّ بايعه الناس وجاءوا بسعدٍ فقال لعليٍّ: حتى تبايعك الناس، فقالوا: خلُّوه. وجاؤوا بابن عُمر فقال كذلك. فقال: ائتني بكفيل، قال: لا أجده، فقال الأشتر: دعني أقتله، فقال عليٌّ: دعوه أنا كفيله.

وبايعت الأنصار، وتأخّر منهم حسّان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخِدريّ ومحمّد بن مَسْلَمَة

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٥٤ - ١٠٥٥.

والنُّعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفُضالة بن عُبيد وكعب بن عُجرَة وسَلَمة بن سلامة بن وخش. وتأخّر من المهاجرين عبدالله بن سلاّم وصُهَيب بن سنان وأُسامة بن زيد وقُدامة بن مظعون والمُغيرَة بن شُعْبَة. وأما النُّعمان بن بشير فأخذ أصابع نائلة امرأة عثمان وقميصه الذي قتل فيه ولحق بالشام صريخاً».

ونقل الطبري أن الذين لم يبايعوا هم: «الزُّبير وقدامة بن مظعون وعبدالله بن سلام، والمغيرة بن شعبة».(١)

ثالثاً – الوضع العسكري

عسكرياً، كانت أكبر قوى إسلامية موزعة في ثلاثة معسكرات:

أ – معسكر الكوفة، وفيه أبرز الثوار على عثمان والذين جاؤوا بعلي كخليفة جديد. وكان جند الكوفة قد اصطحبوا علياً معهم إلى معسكرهم، وأنهوا بالتالي الخلافة الراشدية في المدينة التي تحوّلت منذ ذلك التاريخ إلى مركز ديني.

ب – معسكر البصرة، وفيه طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين، مع عدد من القرشيين الذين حرّضوا على قتل عثمان ورفضوا خلافة علي خوفاً من سياسته المتشدّدة.

ج – معسكر الشام، ورئيسه معاوية بن أبي سفيان الذي كان لديه جيش منظّم ومطيع له، حرص على تدريبه وتحضيره منذ عشرين سنة.

وهكذا أصبح الصراع حتمياً بين هذه المعسكرات الثلاثة. واعتبر القتال بينها أول قتال بين فئتين مسلمتين. لذلك كان على علي، ليس فقط محاربة معاوية وطلحة والزبير، إنما خاصة إيجاد تشريع خاص بقتال المسلمين.

وبالفعل وضع الخليفة علي بن أبي طالب تشريعاً جديداً عُرف «بتشريع قتال أهل القبلة»، وذلك عندما أوصى مقاتليه بما يلي: (وذلك في معركة الجمل).(٢)

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦٩٨.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٤٠.

«لا تتبعوا مولياً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تنتهبوا مالاً، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن. ليس على الموحدين سبيٌ، ولا يغنم من أموالهم إلاّ ما قاتلوا به وعليه».

رابعاً – تفريق علي عمّاله وخلافه مع معاوية

رغم النصائح بتأجيل تعيين الولاة وبعدم إبدال والي الشام[1] معاوية بن أبي سفيان مباشرة، فقد أصرّ الخليفة الجديد على تعيين ولاة جُدد على الأمصار.

نقل الطبري أن المغيرة بن شعبة جاء علياً فقال له:[2]

«إن لك حق الطاعة والنصيحة، وأن الرأي اليوم تحرز به ما في غد، وأن الضياع اليوم تضيع به ما في غد؛ أقرِر معاوية على عمله، وأقرر ابن عامر على عمله، وأقرر العمال على أعمالهم، حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت».

لكن الخليفة أصرّ وفرّق عماله كما يأتي:[3]

- عثمان بن حنيف على البصرة.
- عمارة بن شهاب على الكوفة.
- عبيد الله بن عباس على اليمن.
- قيس بن سعد على مصر.
- سهل بن حنيف على الشام.

وبالفعل اتجه سهل نحو الشام، فلقيته خيل من قبل معاوية ومنعته عن المتابعة. وفي الشهر الثالث لمقتل عثمان دعا معاوية رجلاً من عبس يدعى قبيصة، فدفع إليه كتاباً مختوماً عنوانه «من معاوية إلى علي» وأرسله إلى الخليفة، يطالب فيه بدم عثمان.

وهكذا أصبح الصدام بين علي ومعاوية واقعاً.

أما طلحة والزبير، فقد استأذنا الخليفة في العمرة، فأذن لهما فلحقا بمكّة.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٧٠٣.
(٢) الطبري، المرجع نفسه.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٩٢.

الفصل العاشر
وقعة الجمل

وفيما كان الخليفة يتأهّب لمجابهة الوالي العاصي معاوية بن أبي سفيان، جاءه الخطر من مكان آخر، من البصرة، حيث كان قد اجتمع في معسكرها عائشة أم المؤمنين وطلحة والزبير.

وكانت السنة السادسة والثلاثون قد بدأت لمّا جاء خبر نقض البيعة من قِبَل طلحة والزبير، فجمع الإمام علي الناس وخطب فيهم قائلاً:(١)

«إلا أن طلحة والزبير وعائشة قد تمالأوا على نقض إمارتي ودعوا الناس إلى الإصلاح، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم، وأكفّ إن كفّوا، وأقتصد نحوهم.

«وندب أهل المدينة فتثاقلوا، وبعث كميلاً النخعي فجاءه بعبدالله بن عمر بن الخطاب فقال: «إنهض معي! فقال: أنا من أهل المدينة أفعل ما يفعلون...»

هذا كان وضع الخليفة علي بن أبي طالب.

أولاً – تحضيرات عائشة

أما الوضع في معسكر عائشة وطلحة والزبير فقد كان على المصالبة بدم عثمان. كتب ابن كثير عن هذا الوضع:(٢)

«ولما وقع قتل عثمان بعد أيام التشريق، وكان أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين قد خرجن إلى الحج في هذا العام فراراً من

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٦١.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٢٢ – ٢٢٣.

الفتنة. فلما بلغ الناس أن عثمان قد قتل، أقمن بمكة بعد ما خرجوا منها، ورجعوا إليها وأقاموا بها وجعلوا ينتظرون ما يصنع الناس ويتجسسون الأخبار. فلما بويع [لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب] وصار حظ الناس عنده بحكم الحال وغلبة الرأي، لا عن اختيار منه لذلك رؤوس أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان، مع أن علياً في نفس الأمر يكرههم، ولكنه تربّص بهم الدوائر ويود لو تمكّن منهم ليأخذ حق الله منهم. ولكن لما وقع الأمر هكذا واستحوذوا عليه، وحجبوا عنه الصحابة فرّ جماعة من بني أمية وغيرهم إلى مكّة، واستأذنه طلحة والزبير في الاعتمار، فأذن لهما فخرجا إلى مكّة وتبعهم خلق كثير، وجمع غفير. وكان عليّ لما عزم على قتال أهل الشام قد ندب أهل المدينة إلى الخروج معه فأبوا عليه، فطلب عبدالله بن عمر بن الخطاب وحرّضه على الخروج معه، فقال: إنما أنا رجل من أهل المدينة، إن خرجوا خرجت على السمع والطاعة، ولكن لا أخرج للقتال في هذا العام. ثمّ تجهز ابن عمر وخرج إلى مكّة، وقدم إلى مكّة أيضاً في هذا العام يعلى بني أمية من اليمن، - وكان عاملاً عليها لعثمان ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم. وقدم لها عبدالله بن عامر من البصرة، وكان نائبها لعثمان، فاجتمع فيها خلق من سادات الصحابة وأمهات المؤمنين، فقامت عائشة رضي الله عنها في الناس تخطبهم وتحثهم على القيام بطلب دم عثمان. وذكرت ما افتأت به أولئك من قتله في بلد حرام وشهر حرام، ولم يراقبوا جوار رسول الله ﷺ وقد سفكوا الدماء، وأخذوا الأموال. فاستجاب الناس لها، وطاوعوها على ما تراه من الأمر بالمصلحة، وقالوا لها: حيثما سرت سرنا معك. فقال قائل: نذهب إلى الشام، فقال بعضهم: إن معاوية قد كفاكم أمرها، ولو قدموها لغلبوا، واجتمع الأمر كلّه لهم، لأنّ أكابر الصحابة معهم. وقال آخرون: نذهب إلى المدينة فنطلب من عليّ أن يسلم إلينا قتلة عثمان فيقتلوا. وقال آخرون: بل نذهب إلى البصرة فنتقوّى من هنالك بالخيل والرجال، ونبدأ بمن هناك من قتلة عثمان. فاتفق الرأي على ذلك، وكان بقية أمهات المؤمنين قد وافقن عائشة على المسير إلى المدينة، فلما اتفق الناس على المسير إلى البصرة رجعن عن ذلك وقلن: لا نسير إلى غير المدينة.

وجهز الناس يعلى بن أمية فانفق فيهم ستمائة بعير وستمائة ألف درهم، وجهزهم ابن عامر أيضاً بمال كثير».

وهكذا حملت عائشة وطلحة والزبير على ستمائة بعير وساروا في ألف من أهل مكّة والمدينة. وتبعهم الناس فأصبحوا ثلاثة آلاف منهم مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وأصحابهما. وكانت أم المؤمنين عائشة تحمل في هودج على جمل اسمه «عسكر».

وسار الجمع قاصدين البصرة، وكان الذي يصلّي بالناس عن أمر عائشة ابن أختها عبدالله بن الزبير ومروان بن الحكم يؤذّن في أوقات الصلوات. فلما اقتربوا من البصرة كتبت عائشة إلى الأحنف بن قيس وغيره من رؤساء الناس وأعلمتهم بأنها جاءت البصرة للمطالبة بدم عثمان.

ووصلت عائشة ومن معها ونزلت المربد من أعلاه قريباً من البصرة، فخرج إليها من البصرة من أراد أن يكون معها. وخرج عثمان بن حنيف[١] لملاقاتها بجند البصرة، فاقتتل الجانبان إلى أن حجز الليل بينهما[٢]. وكان قد قتل كثيرون من جيش عثمان بن حنيف، لذلك تنادوا للصلح.[٣]

وسأل عثمان طلحة والزبير لماذا بايعا علياً، فأجابا بأنهما بايعاه مكرهين، فأرسل مبعوثاً إلى المدينة ليسأل عن ذلك، فكتب الإمام علي إليه يقول: «إنهما لم يكرها على فرقة، ولقد أكرها على جماعة وفضل. فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما»[٤].

تلا ذلك قتال بين جيش عائشة وأهل البصرة قتل خلاله نحواً من أربعين رجلاً، ودخل مقاتلون على عثمان بن حنيف قصره وأخرجوه عنوة إلى طلحة والزبير. كما دخلوا إلى بيت المال وأخذوا أموال المسلمين.

وهكذا استبدّ جيش عائشة بالبصرة، فثار بعض من قتلة عثمان الذين كانوا في داخلها وركبوا في جيش قريب من ثلاثمائة وقاتلوا جيش عائشة، لكن الدائرة في هذا القتال

---

(١) والي البصرة.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٦٨.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٠٧.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٢٤.

دارت عليهم إذ قتل منهم نحواً من سبعين رجلاً.

وبعد هذا القتال، قيل أن أهل البصرة بايعوا طلحة والزبير، وكانت الوقعة الأخيرة بين الجهتين لخمس ليال بقين من ربيع الآخر السنة ست وثلاثين للهجرة.

ثانياً – مسير الخليفة علي بن أبي طالب إلى البصرة

كان الإمام علي قد تجهز للسير إلى الشام، فلما بلغه خبر خروج طلحة والزبير إلى البصرة، قرر التوجّه إليها لمنعهما عن دخولها وإخراجهما منها في حال كانوا قد دخلوها.

نقل ابن خلدون انه «سار في ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وسار معه من نشط من الكوفيين والمصريين متخففين في تسعماية. ولقيه عبدالله بن سلاّم، فأخذ بعنانه[1] وقال له: يا أمير المؤمنين: لا تخرج منها، فوالله إن خرجت منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً».[2]

وخرج الخليفة إلى الربذة رغم نصيحة عبدالله وابنه الحسن. كتب ابن الأثير عن خروج الإمام علي من المدينة إلى الربذة القريبة من البصرة:[3]

«فلمّا أراد عليّ المسير إلى البصرة – وكان يرجو أن يدرك طلحة والزبير فيردّهما قبل وصولهما إلى البصرة أو يوقع بهما – فلما سار استخلف على المدينة تمام بن العباس، وعلى مكة قثم بن العباس، وقيل: أمّر على المدينة سهل بن حنيف.

وسار عليّ من المدينة في تعبئته التي تعبأها لأهل الشام آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين.

وخرج معه مَن نشط من الكوفيين والبصريين متخففين في تسعمائة[1] وهو يرجو أن يدركهم فيحول بينهم وبين الخروج أو يأخذهم، فلقيه عبدالله بن سلام فأخذ

---

(١) العنان: أي عنان الفرس.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٧١.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١١٤.

(٤) في الطبري: سبعماية – الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٠.

بعنانه وقال: «يا أمير المؤمنين لا تخرج منها فوالله إن خرجت منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً». فسبوه فقال: دعوا الرجل من أصحاب محمّد ﷺ. وسار حتى انتهى إلى «الرَّبَذة»، فلما انتهى إليها أتاه خبر سبقهم فأقام بها يأتمر ما يفعل، وأتاه ابنه الحسن في الطريق فقال له: لقد أمرتُك فعصيتني فتقتل غداً بمضيعة لا ناصر لك. فقال له عليّ: إنك لا تزال تخن خنين[1] الجارية، وما الذي أمرتني فعصيتك؟ قال: أمرتك يوم أُحِيطَ بعثمان أن تخرج من المدينة فيُقتل ولست بها، ثمّ أمرتك يوم قُتل أن لا تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كُلّ مِصر فإنهم لن يقطعوا أمراً دونك فأبيت عليّ.

وأمرتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان أنْ تجلس في بيتك حتى يصطلحوا فإن كان الفساد كان على يد غيرك فعصيتني في ذلك كلّه.

فقال: أيْ بُنَي، أمّا قولك: لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أُحيط بنا كما أُحيط به. وأما قولُك لا تبايع حتى يبايع أهل الأمصار فإنّ الأمر أمر أهل المدينة. وكرهنا أن يضيع هذا الأمر. ولقد مات رسول الله ﷺ وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر مني فبايع الناس أبا بكر الصديق فبايعته. ثمّ أنّ أبا بكر انتقل إلى رحمة الله وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر مني فبايع الناس عمر فبايعته. ثمّ إنّ عمر انتقل إلى رحمة الله وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر مني فجعلني سهماً من ستة أسهم فبايع الناس عثمان فبايعته. ثمّ سار الناس إلى عثمان فقتلوه وبايعوني طائعين غير مُكرهين. فأنا مقاتل مَن خالفني بمن أطاعني حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين. وأما قولك أن أجلس في بيتي حين خرج طلحة والزبير فكيف لي بما قد لزمني أو من تريدني! أتريدني أن أكون كالضَّبُع التي يُحاط بها ويُقال [دباب دباب] ليست ههنا حتى يحل عرقوباها حتى يخرج! وإذا لم أنظر فيما يلزمني من هذا الأمر ويعنيني فمن ينظر فيه؟ فكُفَّ عنك يا بني».

---

(١) الخنين: بكاء دون انتحاب.

ثمّ كتب الإمام علي إلى أهل الكوفة مع محمّد بن أبي بكر ومحمّد بن جعفر لموافاته إلى الربذة.

ووافته إلى الربذة جماعة من طيء فقبلهم وأثنى عليهم. ثمّ سار من الربذة وعلى مقدّمته أبو ليلى بن عمرو بن الجراح.

نقل ابن خلدون أنه «انتهى إلى «فيد» فأتته أسد وطيء وعرضوا عليه النفير معه فقال: الزموا قراركم، ففي المهاجرين الكفاية. ولقيه هناك رجل من أهل الكوفة من بني شيبان، فسأله إن أراد الصلح أو القتال، فقال: والله ما أريد إلا الصلح حتى يردّ علينا».(١)

وهذا يظهر أن الإمام علياً كان يرغب بمصالحة طلحة والزبير اللذين أجبراه على القتال في وقعة الجمل.

ثمّ انتقل الإمام علي إلى التغلبية والأساد إلى أن جاء ذي قار حيث نقل عنه قوله:(٢)

«إن الناس وليهم قبلي، رجلان فعملا بالكتاب، ثمّ ثالث فقالوا وفعلوا، ثمّ بايعوني ومنهم طلحة والزبير، ثمّ نكثا وألّبا عليّ. ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وعثمان وخلافهما عليّ».

ثالثاً – طلب دعم أهل الكوفة

أما ما كان من رسولي الخليفة إلى أهل الكوفة، فقد رفض واليها أبو موسى الأشعري الخروج إلى علي مدّعياً بوجوب الانتهاء من قتلة عثمان أولاً.(٣) ومما قاله أبو موسى لأهل الكوفة:(٤)

«أطيعوني وخلّوا قريش إذا أبُوا إلاّ الخروج من دار الهجرة وفراقه أهل العلم حتى ينجلي الأمر».

أمام هذا الواقع أرسل الخليفة ابنه الحسن والقعقاع بن عمرو إلى الكوفة. حيث أقنعا الناس بالشخوص إلى أمير المؤمنين فخرج مع الحسن تسعة الاف من أهل الكوفة، ستة آلاف منهم براً والباقي في

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٧٣.
(٢) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص ١٠٧٣.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٢٩.
(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٥.

الماء، وفق ابن كثير وابن خلدون.[1] وقيل إنه سار معهما اثنا عشر ألفاً قدموا على أمير المؤمنين بذي قار، فخطب فيهم الإمام علي قائلاً:[1]

«يا أهل الكوفة! أنتم لقيتم ملوك العجم ففضضتم جموعهم، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة، فإن يرجعوا فذاك الذي نريده، وإن أبوا داويناهم بالرفق حتى يبدؤونا بالظلم».

ونقل المؤرّخون أن الخليفة أرسل الاشتر النخعي، بعد إرسال الحسن والقعقاع، إلى الكوفة حيث خلع أبا موسى عن ولاية الكوفة التي تسلّمها بنفسه.

أما أهل الكوفة الذين استجابوا لنداء الخليفة فكانوا من قبائل كنانة وأسد وتميم والرباب ومُزينة وقيس وبكر وتغلب ومذحج وبُجيلة وأنمار وخثعم والازد.[2]

وقد قدم هؤلاء على الإمام علي في ذي قار فركب إليهم ورحب بهم وخطب بهم خطبته المذكورة.

رابعاً – المفاوضات

أرسل الخليفة القعقاع رسولاً إلى طلحة والزبير يدعوهما إلى الألفة. نقل الطبري خبر مهمّة القعقاع، فكتب:[3]

«فخرج القعقاع حتى قدم البصرة، فبدأ بعائشة رضي الله عنها فسلّم عليها، وقال: أي أمّة؛ ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة؟ قالت: أي بنيّ، إصلاح بين الناس. قال: فابعثي إلى طلحة والزّبير حتى تسمعي كلامهما، فبعثت إليهما فجاءا، فقال: إني سألت أمّ المومنين: ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد؟ فقالت: إصلاح بين الناس، فما تقولان أنتما؟ أمتابعان أم مخالفان؟ قالا: مُتابعان. قال: فأخبراني ما وَجْهُ هذا

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٢٨.
ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٧٥.
الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٧.
(٢) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص ١٠٧٦.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٩.

الإصلاح؟ فوالله لئن عرفنا لنُصلحنّ، ولئن أنكرناه لا نُصلح. قالا: قتلة عثمان رضي الله عنه، فإنّ هذا إن تُرك كان تَرْكاً للقرآن؛ وإن عمل به كان إحياء للقرآن. فقال: قد قتلتُما قتلة عثمان من أهل البصرة، وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم، قتلتم ستمائة إلاّ رجلاً، فغضب لهم ستة آلاف، واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم. وطلبتم ذلك الذي أفلت - يعني حرقوص ابن زهير - فمنعه ستة آلاف وهم على رِجْل، فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون؛ وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذي حذرتم وقربتم به هذا الأمر أعظم ممّا أراكم تكرهون؛ وأنتم أحميتم مُضر وربيعة من هذه البلاد، فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نُصرةً لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير. فقالت أمّ المؤمنين: فتقول أنت ماذا؟ قال: أقول هذا الأمر دواؤه التّسكين، وإذا سكن اختُلِجوا، فإن بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودَرْكٌ بثأر هذا الرجل، وعافية وسلامة لهذه الأمة. وإن أنتم أبيتم إلاّ مكابرة هذا الأمر واعتسافه، كانت علامة شرّ، وذهابَ هذا الثأر. وبعثه الله في هذه الأمة هزاهزها، فآثروا العافية ترزقوها، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون، ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرّضوا له فيصرعنا وإيّاكم. وايم الله إنّي لأقول هذا وأدعوكم إليه وإني لخائفٌ ألاّ يتمّ حتى يأخذ الله عزّ وجلّ حاجته من هذه الأمة التي قلّ متاعُها ونزل بها ما نزل. فإنّ هذا الأمر الّذي حدث أمرٌ ليس يقدّر، وليس كالأمور، ولا كقتل الرّجل الرّجل، ولا النّفر الرجل، ولا القبيلة الرجل.

فقالوا: نعم، إذاً قد أحسنت وأصبت المقالة؛ فارجع فإن قَدم عليٌّ وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر. فرجع إلى عليّ فأخبره فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصّلح؛ كَرِه ذلك مَن كرهه، ورضيَه مَن رضِيه».

وأرسلت عائشة أم المؤمنين إلى الخليفة تعلمه بأنها جاءت للصلح، فقام الإمام علي في الناس خطيباً، فذكر الجاهلية وشقاءها وأعمالها، وذكر الإسلام وسعادة أهله بالإلفة والجماعة، وأن الله جمعهم بعد نبيّه ﷺ على الخليفة أبي بكر الصديق، ثمّ بعده على عمر ابن الخطاب، ثمّ على عثمان، ثمّ حدث هذا الحدث الذي جرى على الأمة...

وسار الجمعان حتى اجتمعا في قصر عبيدالله بن زياد في «الفرضة» في منتصف جمادى الآخرة.[1]

نقل ابن خلدون رواية عن اجتماع علي وطلحة والزبير تمهيداً للصلح، فكتب:[2]

«ولمّا تراءى الجمعان خرج طلحة والزبير وجاءهم عليّ حتى اختلفت أعناق دوابهم. فقال عليّ: لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالا، إن كنتما أعددتما عند الله عذراً ألم أكن أخاكما في دينكما تحرمان دمي وأحرّم دمكما. فهل من حدث أحلّ لكما دمي؟ قال طلحة: ألّبت على عثمان! قال علي يومئذ يوفيهم الله دينهم الحقّ. فلعن الله قتلة عثمان يا طلحة: أما بايعتني؟ قال والسيف على عنقي. ثمّ قال للزبير أتذكر يوم قال لك رسول الله ﷺ لتقاتلنّه وأنت له ظالم؟ قال اللهمّ نعم ولو ذكرته قبل مسيري ما سرت. ووالله لا أقاتلك أبداً وافترقوا.

فقال علي لأصحابه أن الزبير قد عهد أن لا يقاتلكم. ورجع الزبير إلى عائشة وقال: ما كنت في موطن منذ عقلت إلاّ وأنا أعرف أمري غير موطني هذا. قالت: فما تريد أن تصنع؟ قال: أدعهم وأذهب. فقال له ابنه عبدالله: خشيت رايات ابن أبي طالب وعلمت أن حامليها فتية أنجاد وأن تحتها الموت الأحمر فجنبت. فاحفظه ذلك، وقال: حلفت. قال: كفّر عن يمينك، فاعتق غلامه مكحولاً. وقيل إنما أراد الرجوع عن القتال حين سمع أن عمّار بن ياسر مع عليّ لما ورد: ويح عمّار تقتله الفئة الباغية».

وكان جيش عائشة نحواً من ثلاثين ألفاً، ومعها قبائل كثيرة من مضر الرباب وتميم وحنظلة وسُليم وغطفان والأزد وبكر وناجية، فيما كان علي في عشرين ألفاً.[3]

وهكذا أصبح أمر الصلح وشيكاً، لكنّ الذين أثاروا مقتل عثمان راحوا يتشاورون واتفقوا على إشعال نار الحرب بين الناس.

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٣.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٨٠ – ١٠٨١.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٢٩.

أما أهل البصرة، فافترقوا ثلاث فرق: فرقة مع طلحة والزبير، وفرقة مع علي، وفرقة لا ترى القتال.(١)

خامساً - القتال

بعد أن أصبح أمر الصلح وشيكاً، بات الذين أثاروا أمر عثمان، وقد أشرفوا على الهلكة، وراحوا يتشاورون، فاجتمعوا على إشعال نار الحرب.

كتب ابن الأثير عن بدء القتال ما يلي:(٢)

«وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشرٍّ ليلةٍ وقد أشرفوا على الهلكة، وباتوا يتشاورون [ليلتهم] فاجتمعوا على أنشاب الحرب [في السرّ]. فغدوا مع الغلس وما يُشعَرُ بهم فخرجوا متسلّلين وعليهم ظُلمة فقصد مُضرُهُم إلى مضرهم وربيعتُهم إلى ربيعتهم ويَمَنيهم إلى يمنهم فوضعوا فيهم السلاح. فثار أهل البصرة، وثار كلّ قوم في وجوه أصحابهم الذين أتوهم. وبعث طلحة والزبير إلى الميمنة وهم ربيعة أميراً عليها عبد الرحمن بن الحارث، وإلى الميسرة عبد الرحمن بن عتاب، وثبتا في القلب وقالا: ما هذا؟ قالوا: طَرَقَنا أهل الكوفة ليلاً. فقالا: قد علمنا أنّ علياً غير مُنتهٍ حتى يَسفِك الدماء وأنه لن يطاوعنا. فردّ أهل البصرة أولئك الكوفيين إلى عسكرهم، فسمع عليّ وأهل الكوفة الصوت وقد وضع السبئية رجلاً قريباً منه يخبره بما يريده. فلما قال علي: ما هذا؟

قال ذلك الرجل: ما شعرنا إلاّ وقومٌ منهم قد بيّتونا فرددناهم فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس. فأرسل عليّ صاحب الميمنة إلى الميمنة، وصاحب الميسرة إلى الميسرة وقال: لقد علمتُ أنّ طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفكا الدماء وأنّهما لن يطاوعانا والسبئية لا تفتر.

ونادى عليّ في الناس: «كُفّوا فلا شيء». وكان من رأيهم جميعاً في تلك الفتنة أن لا يقتتلوا حتى يبدأوا يطلبون بذلك الحُجّة وأن لا يقتلوا مُدْبِراً، ولا يُجهِزُوا على جريح، ولا

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ١٣٠ - ١٣١.

يستحلوا سَلْباً، ولا يرزأوا بالبصرة سلاحاً ولا ثياباً ولا متاعاً.

وأقبل كعبُ بن سور حتى أتى عائشة فقال: أدركي فقد أبى القوم إلاّ القتال لعلّ الله أن يصلح بك. فركبت وألبسوا هودجها الأدراع، فلمّا برزت من البيوت وهي على الجمل بحيث يسمع الغوغاء وقفت. واقتتل الناس، وقاتل الزبير فحمل عليه عمار بن ياسر فجعل يحوزه بالرمح والزبير كافّ عنه ويقول: أتقتلني يا أبا اليقظان؟

فيقول: لا يا أبا عبدالله. وإنما كَفّ الزبير عنه لقول رسول الله ﷺ: «تقتل عماراً الفئة الباغية»، ولولا ذلك لقتله.

وبينما عائشة واقفة إذ سمعت ضجةً شديدة فقالت: ما هذا؟ قالوا: ضجة العسكر قالت: بخير أو بشر؟ قالوا: بشر فما فجأها إلاّ الهزيمة، فمضى الزبير من وجهه إلى وادي السباع[1] وإنّما فارق المعركة لأنه قاتل تعذيراً لما ذكر له عليّ.

وأما طلحة فأتاه سَهمُ غرب[2] فأصابه فشك رجله بصفحة الفرس وهو ينادي: إليّ إليّ عباد الله. الصبر الصبر.

فقال له القعقاع بن عَمرو: «يا أبا محمّد إنّك لجريح، وإنّك عمّا تريد لعليل، فادخُل البيوت». فدخل ودَمُهُ يسيل وهو يقول: «اللهم خُذْ لعثمان مني حتى ترضى». فلما امتلأ خُفُّهُ دماً وثَقُل قال لغلامه: أردفني، وأمسكني، وأبلغني مكاناً أنزل فيه.

فدخل البصرة فانزله في دار خربة فمات فيها.

وقيل: إنه اجتاز به رجلٌ من أصحاب علي فقال له:[3] أنت من أصحاب أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قال: أمدد يدك أبايعك له. فبايعه فخاف أن يموت وليس في عنقه بيعة. ولما قضى دفن في بني سعد، وقال: لم أر شيخاً أضيع دماً مِنّي».

أما الزبير فإنه، وفي طريقه إلى وادي السباع، لحقه عمرو بن جرموز فطعنه وقتله

(١) موضع في طريق البصرة إلى المدينة.

(٢) سهم غَرْب: سهم لا يعرف مصدره.

(٣) القائل هنا هو طلحة.

وأخذ فرسه وسلاحه وخاتمه فدفن في الوادي.

روى ابن خلدون تفاصيل القتال حول جمل عائشة ونهاية الوقعة، فكتب:(١)

«وقالت عائشة لكعب بن سور وناولته مصحفاً: تقدّم فادعهم إليه واستقبل القوم، فقتله السبئيّة رشقاً بالسهم، ورموا عائشة في هودجها حتى جأرت بالاستغاثة ثمّ بالدعاء على قتلة عثمان. وضجّ الناس بالدعاء فقال عليّ ما هذا؟ قالوا عائشة تدعو على قتلة عثمان! فقال: اللهمّ العن قتلة عثمان. ثمّ أرسلت عائشة إلى الميمنة والميسرة وحرّضتهم! وتقدّم مضر الكوفة ومضر البصرة فاجتلدوا أمام الجمل حتى ضرسوا، وقتل زيد بن صوحان من أهل الكوفة وأخوه سيحان وارتثّ أخوهما صعصعة.

وتزاحف الناس وتأخرت يَمَن الكوفة وربيعتها. ثمّ عادوا فقتل على رايتهم عشرة ثم أخذها يزيد بن قيس فثبت. وقتل تحت راية ابن ربيعة زيد وعبدالله بن رُقَيّة وأبو عبيدة بن راشد بن سَلَمة. واشتدّ الأمر ولزقت ميمنة الكوفة بقلبهم وميسرة أهل البصرة بقلبهم، ومنعت ميمنة هؤلاء ميسرة هولاء وميسرة هؤلاء ميمنة هؤلاء، وتنادى شجعان مضر من الجانبين بالصبر وقصدوا الأطراف يقطعونها. وأصيبت يد عبد الرحمن بن عتاب قبل قتله. وقاتل عند الجمل الأزد ثمّ بنو ضَبّة وبنو عَدِيّ بن عبد مناف، وكثر القتل والقطع وصارت المجنبات إلى القلب، ومحمّد بن طلحة أمامهم. وحمل عديّ بن زيد ففقئت عينه، وحمل الاشتر واستمرّ القتل إلى الجمل حتى قتل على الخطام أربعون رجلاً أو سبعون كلّهم من قريش.

فجرح عبدالله بن الزبير، وقتل عبد الرحمن بن عتاب وجُندب بن زهير العامري وعبدالله بن حكيم بن حزام ومعه راية قريش، فقتله الأشتر وأعانه فيه عديّ بن حاتم. وقتل الأسود بن أبي البختري وهو آخذ بالخطام، وبعده عمر بن الأشرف الأزدي في ثلاثة عشر من أهل بيته، وجرح مروان بن الحكم وعبدالله بن الزُبَير سبعاً وثلاثين جراحة ما بين طعنة ورمية. ونادى عليٌّ اعقروا الجمل يتفرّقوا، وضربه رجل

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء٤، ص ١٠٨٣ - ١٠٨٦.

فسقط فما كان صوت أشدّ عجيجاً منه.
وكانت راية الأزد من أهل الكوفة مع مخنف ابن سليم فقتل فأخذها الصَقْعَبُ أخوه فقتل ثم أخوهما عبدالله كذلك فأخذها العلاء بن عروة فكان الفتح وهي بيده.

وكانت راية عبد القيس من أهل الكوفة مع القاسم بن سليم، فقتل ومعه زيد وسيحان ابنا صوجان. وأخذها عدّة فقتلوا، منهم عبدالله بن رقية، ثمّ مُنقِذ بن النعمان ودفعها إلى ابنه مُرّة فكان الفتح وهي بيده. وكانت راية بكر بن وائل في بني ذُهْل مع الحرث بن حسّان فقتل في خمسة من بني أهله ورجال من بني مخزوم وخمسة وثلاثين من بني ذهل.

وقيل في عقر الجمل أن القعقاع دعا الأشتر وقد جاء من القتال عند الجمل إلى العود فلم يجبه، وحمل القعقاع والخطام بيد زُفَر بن الحرث، فأصيب شيوخ من بني عامر. وقال القعقاع لبجير بن دجلة من بني ضَبّة وهو من أصحاب عليّ يا بجير! صِحْ بقومك يعقروا الجمل قبل أن يصابوا وتصاب أم المؤمنين. فضرب ساق البعير فوقع على شِقّه. وأمر القعقاع من يليه، واجتمع هو وزفر على قطع بطان البعير، وحملا الهودج فوضعاه وهو كالقُنفُذ بالسهام ومرّ من ورائه. وأمر عليّ فنودي لا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تدخلوا الدور. وأمر بحمل الهودج من بين القتلى. وأمر محمد بن أبي بكر أن يضرب عليها قبّة وأن وينظر هل بها جراحة، وجاء يسألها.

وقيل لما سقط الجمل أقبل محمّد بن أبي بكر إليه ومعه عمّار فاحتملا الهودج إلى ناحية ليس قربه أحد. وأتاها عليّ فقال: كيف أنت يا أمة! قالت: بخير! قال: يغفر الله لك! قالت: ولك. وجاء وجوه الناس إليهم فيهم القعقاع بن عمرو، فسلّم عليها وقالت له: وددت أني متّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة. وجاء إلى عليّ فقال له مثل قولها. ولما كان الليل أدخلها أخوها محمّد بن أبي بكر الصديق البصرة، فأقرّها في دار عبدالله بن خلف الخزاعي على صفيّة زوجته بنت الحرث ابن أبي طلحة من بني عبد الدار ام طلحة الطلحات بن عبدالله. وتسلل الجرحى من بين القتلى فدخلوا ليلاً إلى البصرة، وأذن عليّ في دفن القتلى فدفنوا بعد أن طاف عليهم».

وبعد انتهاء الوقعة بانتصار الخليفة أقام مع جيشه بظاهر البصرة ثلاثة أيام.

سادساً – عدد قتلى الوقعة

كتب الطبري عن قتلى الوقعة ما يلي:(١)

«كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمّد وطلحة، قالا: كان قتلى الجمل حول الجمل عشرة آلاف؛ نصفهم من أصحاب عليّ، ونصفهم من أصحاب عائشة؛ من الأزد ألفان، ومن سائر اليمن خمسمائة، ومن مضرَ ألفان، وخمسمائة من قيس، وخمسمائة من تميم، وألف من بني ضبّة، وخمسمائة من بكر بن وائل. وقيل: قتل من أهل البصرة في المعركة الأولى خمسة آلاف، وقتل من أهل البصرة في المعركة الثانية خمسة آلاف، فذلك عشرة آلاف قتيل من أهل البصرة، ومن أهل الكوفة خمسة آلاف. قالا: وقُتل من بني عديّ يومئذ سبعون شيخاً، كلّهم قد قرأ القرآن، سوى الشباب ومن لم يقرأ القرآن».

ونقل عن عائشة قولها: ما زلت أرجو النصر حتى خفيت أصوات بني عدي.

وأورد ابن الأثير الأرقام نفسها للقتلى.

سابعاً – النتائج والعبر

بعد أن أقام الإمام علي بظاهر البصرة ثلاثة أيام، صلّى على القتلى من الفريقين، وخصّ قريشاً بصلاة من بينهم.

كتب ابن كثير عما كان من الخليفة بعد انتهاء الوقعة:(٢)

«ثمّ جمع ما وجد لأصحاب عائشة في المعسكر وأمر به أن يحمل إلى مسجد البصرة، فمن عرف شيئاً هو لأهلهم فليأخذه، إلاّ سلاحاً كان في الخزائن عليه سمة السلطان. وكان مجموع من قتل يوم الجمل من الفريقين عشرة آلاف، خمسة من هؤلاء وخمسة من هؤلاء، رحمهم الله

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٥٨.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ٢٣٦.

ورضي عن الصحابة منهم. وقد سأل بعض أصحاب علي علياً أن يقسم فيهم أموال أصحاب طلحة والزبير، فأبى عليهم فطعن فيه السبائية وقالوا: كيف يحل لنا دماءهم ولا تحل لنا أموالهم؟ فبلغ ذلك علياً فقال: أيكم يحب أن تصير أم المؤمنين في سهمه؟ فسكت القوم؟ ولهذا، لما دخل البصرة فضّ في أصحابه أموال بيت المال، فنال كلّ رجل منهم خمسمائة، وقال: لكم مثلها من الشام، فتكلّم فيه السبائية أيضاً ونالوا منه من وراء وراء».

ولمّا فرغ الإمام علي من أمر الجمل جاءته الوفود للسلام عليه ومنهم من كان قد اعتزل القتال.

من جهة أخرى أنهت وقعة الجمل قوّة البصرة والقرشيين الذين كانوا على رأس معسكرها، وأصبحت الكوفة عاصمة المسلمين ومركز الخلافة الإسلاميّة وبايع أهلها الخليفة الجديد.(١)

وبعد الموقعة، اعترفت معظم أمصار العالم الإسلامي بخلافة علي بن أبي طالب ودانت له جميعها، باستثناء والي الشام معاوية بن أبي سفيان الذي لم يعترف بخلافة الإمام علي وطالبه بالاقتصاص من قتلة عثمان. ولم يكن بإمكان الإمام علي تنفيذ هذا الطلب كون هؤلاء كانوا من أبرز قادة جيشه.

وهكذا لم يعد أمام الخليفة الجديد سوى إخضاع معاوية والي الشام. وقد شاءت الظروف أن يعيد التاريخ نفسه في الإسلام، فيتقابل معسكران من قريش، الأول يقوده الإمام علي وهو رأس بني هاشم يومذاك، والثاني يقوده معاوية بن أبي سفيان وهو رأس بني أمية. وما أشبه هذا الصراع بالصراع بين المسلمين وقريش في بداية الدعوة، والذي سبق الحديث عنه في الجزء الثاني من هذه الموسوعة.

كانت معركة الجمل من المعارك المهمّة في تاريخ الإسلام، وذلك أن الخليفة قادها بنفسه ضد إخوان له في العقيدة. ولم يكن سهلاً على الإمام علي المؤمن والمتمسّك بالإسلام أن يتخذ القرار بمحاربة المسلمين

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٥٩.

إلاّ مرغماً. لذلك أصدر تشريعاً خاصاً بهذا النوع من القتال.

لقد أنهكت معركة الجمل قوة البصرة والقرشيين في وقت كانت قوة الشام تنمو. وأصبحت الكوفة عاصمة الخلافة الإسلامية. إنما، ومع خروج معسكر البصرة من حلبة الصراع، بات أمر اللقاء على أرض المعركة بين معسكري الكوفة والشام أمراً محتماً، فكانت معركة صفين بين علي ومعاوية إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي نظراً لما حملته من تطوّرات مستقبلية ومن انعكاسات خطيرة على الإسلام والمسلمين.

ملحق رقم ٢

- سيرتا طلحة بن عبيد الله - والزبير بن العوام بن خويلد

أولاً – طلحة بن عبيد الله(١)

ابن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة أبو محمد القرشي التيمي، ويعرف بطلحة الخير، وطلحة الفياض، لكرمه ولكثرة جوده. أسلم قديماً على يدي أبي بكر الصديق، فكان نوفل بن خويلد بن العدوية يشدهما في حبل واحد، ولا تستطيع بنو تيم أن تمنعهما منه. ولذلك كان يقال لطلحة وأبي بكر القرينان. وقد هاجر وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي أيوب الأنصاري، وشهد المشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ إلاّ بدراً، فإنه كان بالشام لتجارة، وقيل في رسالة. ولهذا ضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره من بدر. وكانت له يوم أُحد اليد البيضاء وشلت يده يوم أُحد، وقى بها رسول الله ﷺ واستمرّت كذلك إلى أن مات. وكان الصديق إذا حدّث عن يوم أُحد يقول: ذاك يوم كان كلّه لطلحة، وقد قال له رسول الله ﷺ يومئذٍ: «أوجب طلحة» وذلك أنه كان على رسول الله ﷺ درعان فأراد أن ينهض وهما عليه ليصعد صخرة هنالك فما استطاع، فطأطأ له طلحة فصعد على ظهره حتى استوى عليها، وقال: «أوجب طلحة». وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى. وقد صحب رسول الله ﷺ فأحسن صحبته حتى

(١) عن ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٣٨ – ٢٣٩.

توفي وهو عنه راض، وكذلك أبو بكر وعمر، فلما كان قضية عثمان اعتزل عنه فنسبه بعض الناس إلى تحامل فيه. فلهذا، لما حضر يوم الجمل واجتمع به علي فوعظه تأخّر فوقف في بعض الصفوف، فجاءه سهم غرب فوقع في ركبته وقيل في رقبته، والأول أشهر، وانتظم السهم مع ساقه خاصرة الفرس فجمح به حتى كاد يلقيه، وجعل يقول: إليّ عباد الله. فأدركه مولى له فركب وراءه وأدخله البصرة فمات بدار فيها. ويقال إنه مات بالمعركة، وإن علياً لما دار بين القتلى رآه فجعل يمسح عن وجهه التراب وقال: رحمة الله عليك أبا محمّد، يعزّ عليّ أن أراك مجدولاً(١) تحت نجوم السماء. ثمّ قال: إلى الله أشكو عجري وبجري(٢)، الله لوددت أني كنت متّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة. ويقال إن الذي رماه بهذا السهم مروان بن الحكم، وقال لأبان بن عثمان: قد كفيتك رجالاً من قتلة عثمان، وقد قيل إن الذي رماه غيره، وهذا أقرب، وإن كان الأول مشهوراً والله أعلم.

وكان يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين، ودفن طلحة إلى جانب الكلأ وكان عمره ستين سنة، وقيل بضعاً وستين سنة. وكان آدم، وقيل أبيض، حسن الوجه كثير الشعر إلى القصر أقرب وكانت غلته في كلّ يوم ألف درهم.

وروى حماد بن سلمة عن علي بن زيد ابن جدعان عن أبيه أن رجلاً رأى طلحة في منامه وهو يقول: حولوني عن قبري فقد أذاني الماء، ثلاث ليال. فأتى ابن عبّاس فأخبره، وكان نائباً على البصرة، فاشتروا له داراً بالبصرة بعشرة آلاف درهم فحولوه من قبره إليها، فإذا قد اخضر من جسده ما يلي الماء، وإذا هو كهيئته يوم أصيب. وقد وردت له فضائل كثيرة. فمن ذلك ما رواه أبو بكر ابن أبي عاصم: حدثنا الحسن بن علي بن سليمان بن عيسى بن موسى بن طلحة بن عبيد الله حدثني أبي عن جده عن موسى ابن طلحة عن أبيه قال: سماني رسول الله ﷺ يوم أحد طلحة الخير، ويوم العسرة

---

(١) مجدولاً: مصروعاً.

(٢) العجر والبجر: العيوب والأحزان.

طلحة الفياض، ويوم حنين طلحة الجود. وقال أبو يعلى الموصلي ثنا أبو كريب ثنا يونس عن ابن بكر عن طلحة بن يحيى عن موسى وعيسى ابني طلحة عن أبيهما أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاء يسأل عمن قضى نحبه فقالوا: سَلْ رسول الله ﷺ. فسأله في المسجد فأعرض عنه، ثمّ سأله فأعرض عنه. ثمّ اطلعت من باب المسجد وعليّ ثياب خضر فقال رسول الله ﷺ: «أَيْنَ السَّائِلُ؟» ها أنا ذا فقال: «هذا مِمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ». وقال أبو القاسم البغوي: ثنا داود بن رشيد ثنا مكي ثنا علي بن إبراهيم ثنا الصلت بن دينار عن أبي نضرة عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إلى شَهِيدَ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْهِ فَلْيَنْظُرْ إلى طَلْحَةَ بن عُبَيْد الله».

وقال الترمذي: حدثنا أبو سعيد الأشج، ثنا أبو عبد الرحمن بن منصور العنزي – اسمه النضر – ثنا عقبة بن علقمة اليشكري: سمعت علي بن أبي طالب يقول: سمعت أذناي رسول الله ﷺ يقول: «طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ جَارَايَ فِي الجَنَّةِ». وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب أن رجلاً كان يقع في طلحة والزبير وعثمان وعلي رضي الله عنهم فجعل سعد ينهاه ويقول: لا تقع في إخواني فأبى، فقام سعد فصلى ركعتين ثمّ قال: اللهم إن كان سخطاً لك فيما يقول، فأرني فيه اليوم آية واجعله للناس عبرة. فخرج الرجل فإذا ببختيّ يشق الناس فأخذه بالبلاط فوضعه بين كركرته[1] والبلاط فسحقه حتى قتله. قال سعيد بن المسيب: فأنا رأيت الناس يتبعون سعداً ويقولون: هنيئاً لك أبا إسحاق أجيبت دعوتك.

ثانياً – الزبير بن العوام بن خُويلد[2]

ابن أسد بن عبد العزى بن قصيّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة أبو

(١) الكركرة: الصدر.

(٢) ابن كثير، المرجع نفسه، ص ٢٤٠ – ٢٤١.

عبدالله القرشي الأسدي، وأمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ. أسلم قديماً وعمره خمس عشرة سنة، وقيل أقل وقيل أكثر. هاجر إلى الحبشة ثمّ إلى المدينة فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سلمة بن وقش، وقد شهد المشاهد كلها وقد قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب «مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ القَوْمِ؟» فقال: أنا، ثمّ ندب الناس فانتدب الزبير، ثمّ ندبهم فانتدب الزبير، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيّاً وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ». ثبت ذلك من رواية عن علي، وثبت عن الزبير أنه قال: «جَمَعَ لي رَسُولُ الله ﷺ أَبَوَيْهِ يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ». وروي أنه أوّل من سلّ سيفاً في سبيل الله، وذلك بمكّة حين بلغ الصحابة أن رسول الله ﷺ قد قتل فجاء شاهراً سيفه حتى رأى رسول الله ﷺ فشام سيفه(١). وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستّة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض. وصحب الصديق فأحسن صحبته، وكان ختنه على ابنته أسماء بنت الصديق، وابنه عبدالله منها أول مولود ولد للمسلمين بعد الهجرة. وخرج مع الناس إلى الشام مجاهداً فشهد اليرموك فتشرفوا بحضوره، وكانت له بها اليد البيضاء والهمّة العلياء، اخترق جيوش الروم وصفوفهم مرتين من أولهم إلى آخرهم، وكان من جملة من دافع عن عثمان وحاجف عنه. فلما كان يوم الجمل ذكّره علي بما ذكّره به فرجع عن القتال وكر راجعاً إلى المدينة، فمرّ بقوم الأحنف بن قيس – وكانوا قد انعزلوا عن الفريقين، فقال قائل يقال له الأحنف: ما بال هذا جمع بين الناس حتى إذا التقوا كر راجعاً إلى بيته؟ من رجل يكشف لنا خبره؟ فاتبعه عمرو بن جرموز وفضالة بن حابس ونفيع في طائفة من غواة بني تميم، فيقال إنهم لما أدركوه تعاونوا عليه حتى قتلوه. ويقال بل أدركه عمرو بن جرموز فقال له عمرو: إن لي إليك حاجة فقال: ادن! فقال مولى الزبير، واسمه عطية: إن معه سلاحاً. فقال: وإن، فتقدّم إليه فجعل يحدثه وكان وقت الصلاة، فقال له الزبير: الصلاة، فقال: الصلاة فتقدّم الزبير

(١) شام سيفه: أغمده.

ليصلي بهما فطعنه عمرو بن جرموز فقتله. ويقال بل أدركه عمرو بواد يقال له وادي السباع وهو نائم في القائل[١] فهجم عليه فقتله. وهذا القول هو الأشهر، ويشهد له شعر امرأته عاتكة بنت زيد من عمرو بن نفيل وكانت آخر من تزوّجها وكانت قبله تحت عمر بن الخطاب فقتل عنها وكانت قبله تحت عبدالله بن أبي بكر الصديق فقتل عنها.

ولمّا قتل عمرو بن جرموز فاحتز رأسه وذهب به إلى علي ورأى أن ذلك يحصل له به حظوة عنده، فاستأذن فقال علي: لا تأذنوا له وبشروه بالنار. وفي رواية أن علياً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بَشِّرْ قَاتِلْ ابْنِ صَفِيَّةَ بِالنَّارِ». ودخل ابن جرموز ومعه سيف الزبير فقال علي: إن هذا السيف طالما فرج الكرب عن وجه رسول الله. ﷺ فيقال إن عمرو بن جرموز لما سمع ذلك قتل نفسه، وقيل بل عاش إلى أن تأمر مصعب بن الزبير، على العراق فاختفى منه.

فقيل لمصعب: إنّ عمرو بن جرموز ها هنا وهو مختف، فهل لك فيه؟ فقال: مروه فليظهر فهو آمن، والله ما كنت لأقيد[٢] للزبير منه فهو أحقر من أن أجعله عدلاً للزبير. وقد كان الزبير ذا مال جزيل وصدقات كثيرة جداً. لما كان يوم الجمل أوصى إلى ابنه عبدالله، فلما قتل وجدوا عليه من الدين مليون ومائتا ألف فوفوها عنه. وأخرجوا بعد ذلك ثلث ماله الذي أوصى به ثمّ قسمت التركة بعد ذلك فأصاب كلّ واحدة من الزوجات الأربع من ربع الثمن مليون ومائتا ألف درهم، فعلى هذا يكون مجموع ما قسم بين الورثة ثمانية وثلاثين مليون وأربعمائة ألف، والثلث الموصى به تسعة عشر مليون ومائتا ألف [فتلك الجملة سبعة وخمسون مليون وستمائة ألف والدين المخرج قبل ذلك مليون ومائتا ألف]. فعلى هذا يكون جميع ما تركه من الدين والوصية والميراث تسعة وخمسين مليون وثمانمائة ألف.

---

(١) القائل: المقصود القائلة أي الظهر.

(٢) القود: قتل القاتل بالقتيل.

وقد جمع ماله هذا بعد الصدقات الكثيرة والمآثر الغزيرة مما أفاء عليه من الجهاد ومن خمس الخمس ما يخص أمه منه، ومن التجارة المبرورة من الخلال المشكورة. وقد قيل إنه كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج، فربما تصدق في بعض الأيام بخراجهم كلّه رضي الله عنه [وأرضاه].

وكان قتله يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين وقد نيف على الستين بست أو سبع. وكان أسمر ربعة من الرجال معتدل اللحم خفيف اللحية رضي الله عنه.

الفصل الحادي عشر
معركة صفين

أصبح العالم الإسلامي، وللمرة الأولى في تاريخه، تتنازعه قوتان، الأولى قوّة الخليفة علي بن أبي طالب الذي اعترفت بخلافته الأمصار وبايعه كبار رجالات الإسلام باستثناء البعض، والثانية قوّة والي الشام معاوية بن أبي سفيان، الذي لم يعترف بخلافة الإمام علي، والمستند في حربه ضده إلى بني أميّة ومن سانده من المحتجّين على هذه الخلافة، وعلى رأسهم عمرو بن العاص.

وحجة معاوية أنه كان ولي الخليفة عثمان المقتول، وأن له الحق في المطالبة بدمه ومعاقبة قاتليه بعد محاكمتهم. وكان معاوية يعلم تمام العلم أن الإمام علي لن يقبل بتسليم معاوية قتلة عثمان لأسباب أهمها:

- أنهم من زعماء جيشه الذي قاتلوا معه في وقعة صفين.
- أنه الخليفة الشرعي، وبالتالي فهو يحاسبهم بنفسه لأن المتخاصمين يعودون إليه كونه الحكم في أمور المسلمين، وخاصة في الأخذ بثأر عثمان.

وهكذا، وبعد فراغ الخليفة من أمر وقعة الجمل، أصبح عليه إخضاع الوالي الذي لم يعترف بحقه في الخلافة، معاوية.

أولاً – انتفاض محمّد بن أبي حذيفة بمصر ومقتله

في السنة السادسة والثلاثين للهجرة حصلت موقعة بين محمّد بن أبي حذيفة من جهة ومعاوية وعمرو بن العاص من

جهة أخرى. وتفاصيل القصة أن محمّداً بن أبي حذيفة كان من الذين حرّضوا ضد الخليفة عثمان. فلما قتل عثمان، استنفر محمّد أصحابه وثار ضد والي مصر المعين من قبل عثمان، عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وأخرجه من مصر واستولى عليها.

وأكمل ابن كثير رواية الوقعة إذ كتب: (١)

«وسار عبدالله بن سعد إلى الشام إلى معاوية فأخبره بما كان من أمره بديار مصر، وأن محمد بن أبي حذيفة قد استحوذ عليها. فسار معاوية وعمرو بن العاص ليخرجاه منها لأنه من أكبر الأعوان على قتل عثمان، مع أنه كان قد رباه وكفله وأحسن إليه. فعالجا دخول مصر فلم يزالا يخدعانه حتى خرج إلى العريش في ألف رجل فتحصّن بها، وجاء عمرو بن العاص فنصب عليه المنجنيق حتى نزل في ثلاثين من أصحابه فقتلوا».

بعد هذه الوقعة عين الإمام علي قيساً بن سعد بن عبادة والياً على مصر، فسار إليها ودخلها في سبعة من أنصاره. واعتلى المنبر وقرأ كتاب التعيين، ثمّ دعا الناس إلى بيعة علي، فقام الناس فبايعوه، «واستقامت له الطاعة في بلاد مصر باستثناء قرية منها يقال لها «خربتا»، فيها ناس قد أعظموا قتل عثمان، وكانوا سادة الناس ووجوههم، وكانوا في نحوٍ من عشرة آلاف وعليهم رجل يقال له يزيد بن الحارث المدلجي. (٢)

وكان معاوية بن أبي سفيان يسيطر على سواحل بلاد الشام وقبرص وبعض بلاد الجزيرة، كالرها وحرّان وقرقيسياء وغيرها. ولما كانت مصر قريبة من بلاد الشام أكثر من قربها من العراق حيث مركز خلافة الإمام علي، فقد جرت مراسلات بين واليها قيس بن سعد ومعاوية، ما جعل الخليفة يستبدله عن ولاية مصر بمحمّد بن أبي بكر. (٣)

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٤١ – ٢٤٢.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٦٣.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٩٣ – ١٠٩٥.

ثانياً – مبايعة عمرو بن العاص لمعاوية

لخّص ابن خلدون خبر مبايعة عمرو بن العاص لمعاوية، فكتب:(١)

«لما أحيط بعثمان خرج عمرو بن العاص إلى فلسطين ومعه ابناه عبدالله ومحمّد؛ فسكن بها هارباً مّا توقّعه من قتل عثمان إلى أن بلغه الخبر بقتله. فارتحل يبكي ويقول كما تقول النساء حتى أتى دمشق، فبلغه بيعة عليّ فاشتدّ عليه الأمر وأقام ينتظر ما يصنعه الناس. ثمّ بلغه مسير عائشة وطلحة والزبير فأمل فرجاً من أمره، ثمّ جاءه الخبر بوقعة الجمل فارتاب في أمره، وسمع أن معاوية بالشام لا يبايع عليّاً وأنه يعظم قتل عثمان، فاستشار بنيه في المسير إليه. فقال له ابنه عبدالله: توفي النبيّ ﷺ والشيخان بعده وهم راضون عنك، فأرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس. وقال له محمّد: أنت ناب من أنياب العرب، وكيف يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صيت؟ فقال: يا عبدالله! أمرتني بما هو خير لي في ديني، ويا محمّد! أمرتني بما هو خير لي في دنياي وشرّ لي في آخرتي. ثمّ خرج ومعه ابناه حتى قدم على معاوية، فوجدوهم يطلبون دم عثمان فقال: أنتم على الحق أطلبوا بدم الخليفة المظلوم، فأعرض معاوية قليلاً ثمّ رجع إليه وشركه في سلطانه».

ثالثاً – الخليفة يدعو والي الشام للمبايعة

بعد فراغ الخليفة من أمر الجمل، وجه جرير بن عبدالله البجلي إلى معاوية يدعوه إلى بيعته، وكتب له كتاباً أرسله مع جرير يعلمه فيه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ونكث طلحة والزبير وما كان من حربه إياهما.(٢)

ذهب جرير إلى معاوية الذي ماطله في الجواب، واستشار معاوية عمراً بن العاص

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٩٥ – ١٠٩٦.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٧٠.

فأشار عليه بأن يرسل إلى وجوه الشام، ويُلزم علياً دم عثمان، ويقاتله بهم، ففعل ذلك معاوية.(١)

كتب الطبري عن مطالبة معاوية بدم عثمان وتأليبه أهل الشام ضد الخليفة علي ابن أبي طالب:(٢)

«وكان أهل الشام - فيما كتب إليّ السريّ يذكر أن شعيباً حدّثه عن سيف، عن محمّد وطلحة - لما قدم عليهم النّعمان ابن بشير بقميص عثمان رضي الله عنه - الذي قتل فيه مخضباً بدمه وبأصابع نائلة زوجته مقطوعة بالبراجم، إصبعان مقطوعتان من أصولهما ونصف الإبهام - وضع معاوية القميص على المنبر، وكتب بالخبر إلى الأجناد. وثاب إليه الناس، وبكوا سنة وهو على المنبر والأصابع معلّقة فيه. وآلى الرجال من أهل الشام ألاّ يأتوا النساء، ولا يمسّهم الماء للغسل إلاّ من احتلام، ولا يناموا على الفُرش حتى يقتلوا قَتلَة عثمان، ومَن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم. فمكثوا حول القميص سنة، والقميص يوضع كلّ يوم على المنبر ويجلّله أحياناً فيَلْبَسه. وعُلّق في أردانه أصابع نائلة رضي الله عنها.

فلمّا قدم جرير بن عبدالله على عليّ - فيما حدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا أبو الحسن، عن عوانة - فأخبره خبر معاوية واجتماع أهل الشام معه على قتاله، وأنهم يبكون على عثمان، ويقولون: إنّ علياً قتله، وآوى قتلته، وإنّهم لا ينتهون عنه حتى يقتلهم أو يقتلوه. فقال الأشتر لعليّ: قد كنت نهيتُك أن تبعث جريراً، وأخبرتك بعداوته وغشّه، ولو كنت بعثتني كان خيراً من هذا الذي أقام عنده حتى لم يَدَع باباً يرجو فتحه إلاّ فتحه، ولا باباً يخاف منه إلاّ أغلقه. فقال جرير: لو كنت ثمّ لقتلوك؛ لقد ذكروا أنّك من قتلة عثمان رضي الله عنه. فقال الأشتر: لو أتيتهم والله يا جرير لم يُعيِني جوابهم، ولحملت معاوية على خطّة أعجله فيها عن الفكر، ولو أطاعني فيك أمير المؤمنين لحبَسَك وأشباهَك في محبس لا تخرجون منه حتى تستقيم هذه الأمور.

(١) الطبري، المرجع نفسه، ص ٧٠.

(٢) الطبري، المرجع نفسه، ص ٧٠ - ٧١.

فخرج جرير بن عبدالله إلى قَرقيسياء، وكتب إلى معاوية، فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه. وخرج أمير المؤمنين فعسكر بالنُّخَيلة، وقدم عليه عبدالله بن عباس بمن نهض معه من أهل البصرة».

رابعاً – الانتقال إلى مكان المعركة

استخلف الإمام علي عبدالله بن عباس على البصرة، وسار منها إلى الكوفة فعسكر في «النخيلة»[1] وتهيأ للمسير إلى صفين. واستشار معاونيه في ذلك فأشار عليه بعضهم أن يبعث العسكر ولا يسير معهم، وأشار عليه آخرون بالمسير بنفسه، فأبى إلاّ السير بنفسه بعد أن جهز الناس لذلك.

وبلغ ذلك معاوية فاستشار عمراً بن العاص الذي أشار عليه بأن يسير بنفسه إذا سار الخليفة بنفسه لملاقاته. وهكذا كان إذ عقد معاوية لواءه وكتب في أجناد أهل الشام، كما عقد أيضاً لابنيه عبدالله ومحمّد ولغلاميه وردان وقنبر.[2]

وبعد هذه التحضيرات، سيّر الإمام علي زياداً بن النضر الحارثي في طليعته في ثمانية آلاف، وبعث مع شريح بن هانىء أربعة آلاف. وسار بنفسه من النخيلة وأخذ معه من بالمدائن من العسكر، وولّى عليها سعداً ابن مسعود عم المختار الثقفي. ومن الذين ساروا مع الخليفة معقل بن قيس من المدائن في ثلاثة آلاف، وقد سار من الموصل إلى الرقة حيث كان عليه أن يعبر الفرات.[3]

نقل الطبَري خبر إقامة جسر على الفرات لعبور جيش أمير المؤمنين، فكتب:[4]

«فلما انتهى عليّ إلى الرّقة قال فيما حُدّثت عن هشام بن محمّد، عن أبي مخنف، قال: حدّثني الحجّاج بن عليّ، عن عبدالله بن عمّار بن عبد يغوث البارقيّ – لأهل الرّقة: اجسُروا لي جسراً حتى أعبر من هذا المكان إلى الشام؛ فأبوا. وقد كانوا

(١) النخيلة: موضع قرب الكوفة.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٩٧.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٦٤.

(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٧٢.

ضمّوا إليهم السفن، فنهض من عندهم ليعبر من جسر منبج، وخلّف عليهم الأشتر، وذهب ليمضي بالناس كيما يعبر بهم على جسر منبج، فناداهم الأشتر، فقال: يا أهل هذا الحصن، ألا إني أقسم لكم بالله عزّ وجلّ؛ لئن مضى أمير المؤمنين ولم تُجسّروا له عند مدينتكم جِسراً حتى يَعبُر لأجرّدنّ فيكم السيف، ثمّ لأقتلنّ الرجال ولأخرّبنّ الأرض، ولآخذنّ الأموال. قال: فلقي بعضهم بعضاً، فقالوا: أليس الأشتر يفي بما حلف عليه، أو يأتي بشرٌّ منه؟ قالوا: نعم، فبعثوا إليه: إنّا ناصبون لكم جسراً، فأقبلوا. وجاء عليٌّ فنصبوا له الجسر، فعبر عليه بالأثقال والرجال. ثمّ أمر عليٌّ الأشتر فوقف في ثلاثة آلاف فارس، حتى لم يبق من الناس أحد إلاّ عبر، ثمّ إنه عبر آخر الناس رجلاً».

بعد عبور الفرات، سيّر الإمام عليّ طليعته وفيها اثنا عشر ألفاً بقيادة زياد وشريح، وكانا قد عبرا الفرات من «هيت» وتأخرا عن الإمام علي الذي قال: «مقدمتي تأتيني من ورائي». ولمّا انتهت الطليعة إلى سور الروم اصطدمت بأبي الأعور السلمي عمرو بن سفيان في جند من أهل الشام، فتوقفا وأعلما الخليفة بذلك، فأرسل إليهما الأشتر النخعي على أن يكون هو قائد المجموعة بكاملها، وأوصاه أن لا يبدأ القتال. وأمر الخليفة الأشتر أن يجعل زياداً على ميمنته، وشريحاً على ميسرته.(1)

كتب ابن خلدون عن بدء القتال من قبل أبي الأعور:(2)

«فلما أتيا إلى سور الروم لقيهما أبو الأعور السلمي في جند من أهل الشام فطاولاه، وبعثا إلى علي فسرح الأشتر وأمره أن يجعلهما على مجنبتيه، وقال: لا تقاتلهم حتى آتيك! وكتب إلى شريح وزياد بطاعته. فقدم عليهما، وكفّ عن القتال سائر يومه حتى حمل عليهم أبو الأعور بالعشيّ فاقتتلوا ساعة وافترقوا، ثمّ خرج من الغداة. وخرج إليه من أصحاب الأشتر هاشم بن عتبة المرقال، واقتتلوا عامة يومهم. وبعث الأشتر سِنان بن مالك النَخَعِيّ إلى أبي الأعور

(1) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٤٥.

(2) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٩٨.

السَلَمِيّ يدعوه إلى البراز، فأبى وحجز بينهم الليل ووافاهم من الغد عليّ وعساكره».

وهكذا تكون مقدّمة معاوية هي التي بدأت القتال في معركة صفين، الأمر الذي أكّده أيضاً الطبري وابن الأثير وابن كثير وغيرهم.(1) هذا القتال الذي ستكون له نتائج بعيدة المدى على العالم الإسلامي.

أما عديد الجيشين، فقد كتب المسعودي:(2)

«جيش علي:

– قد تُنوزع في مقدار ما كان مع علي من الجيش، فمكثر ومقلل، والمتفق عليه من قول الجميع تسعون ألفاً.

جيش معاوية:

وسار معاوية من الشام، وقد تُنوزع في مقدار من كان معه أيضاً، فمكثر ومقلل، والمتفق عليه من الجميع خمس وثمانون ألفاً».

خامساً – القتال

وفي اليوم التالي خرج هاشم بن عتبة الزهري في خيل من جانب الخليفة، فخرج إليه أبو الأعور السلمي فاقتتلوا وحملت الفرسان على الفرسان والرجالة على الرجالة. ثمّ حمل عليهم الأشتر فقتل عبدالله بن المنذر التنوخي.

أ – القتال على الماء:

جرى القتال الأول في صفين خلال اليومين الأولين. وفي اليوم الثالث أقبل الجيشان على صفين. وكان جيش معاوية قد سبق إلى الماء ونزل في سهل فسيح مانعاً الماء عن جيش علي.

ذكر الطبري القتال على الماء، فكتب:(3)

«قال أبو مخنف: وحدّثني تميم بن الحارث الأزديّ، عن جندب بن عبدالله، قال: إنّا لما انتهينا إلى معاوية وجدناه قد

(1) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٧٣.
وابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٦٥ – ١٦٦.
(2) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤١٥ – ٤١٦.
(3) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٧٤.

عسكر في موضع سهل أفيَح قد اختاره قبل قدومنا إلى جانب شريعة في الفرات، ليس في ذلك الصُّقع شريعة غيرها، وجعلها في حيِّزه، وبعث عليها أبا الأعور يمنعها ويحميها. فارتفعْنا على الفرات رجاء أنْ نجد شريعةً غيرها نستغني بها عن شريعتهم فلم نجدها، فأتينا علياً فأخبرناه بعطش الناس، وأنا لا نجد غير شريعة القوم. قال: فقاتلوهم عليها. فجاءه الأشعث بن قيس الكنديّ فقال: أنا أسير إليهم، فقال له عليّ: فسر إليهم. فسار وسرنا معه، حتى إذا دنونا من الماء ثاروا في وجوهنا ينضحوننا بالنّبل، ورشقناهم والله بالنّبل ساعة، ثمّ اطّعنّا والله بالرماح طويلاً، ثمّ صرنا آخر ذلك نحن والقوم إلى السيوف، فاجتلَدْنا بها ساعة. ثمّ إنّ القوم أتاهم يزيد ابن أسد البَجَليّ مُمِداً في الخيل والرجال، فأقبلوا نحونا، فقلت في نفسي: فأمير المؤمنين لا يبعث إلينا بمن يغني عنا هولاء، فذهبت فالتفتّ فإذا عدّة القوم أو أكثر، قد سرّحهم إلينا ليغنوا عنّا يزيد بن أسد وأصحابه، عليهم شبَث بن رِبْعيّ الرّياحيّ، فوالله ما ازداد القتال إلاّ شدّة. وخرج إلينا عمرو بن العاص من عسكر معاوية في جند كثير، فأخذ يمدّ أبا الأعور ويزيد بن أسد، وخرج الأشتر من قبَل عليّ في جمع عظيم. فلمّا رأى الأشتر عمرو بن العاص يمدّ أبا الأعور ويزيد بن أسد، أمد الأشعث بن قيس وشبَث بن ربعيّ، فاشتدّ قتالنا وقتالهم».

كما كتب ابن كثير عن الموضوع نفسه:(١)

«ثمّ ما زال أهل العراق يكشفون الشاميين عن الماء حتى أزاحوهم عنه وخلوا بينهم وبينه. ثمّ اصطلحوا على الورود حتى صاروا يزدحمون في تلك الشريعة لا يكلم أحد أحداً، ولا يؤذي إنسان انساناً».

ب - دعوة علي معاوية إلى الطاعة:

أرسل الإمام علي إلى معاوية وفداً يدعوه إلى الطاعة، وذلك في الأول من ذي الحجة السنة ستاً وثلاثين.

نقل ابن خلدون رواية عن محادثات الوفد مع معاوية، فكتب:(٢)

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٤٦.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٩٩.

«ثمّ بعث إلى معاوية أبا عمرو بشير بن عمرو بن محصن الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن ربعي التميمي يدعونه إلى الطاعة، وذلك أوّل ذي الحجة سنة ست وثلاثين، فدخلوا عليه. وتكلّم بشير بن عمرو بعد حمد الله والثناء عليه والموعظة الحَسَنة، وناشده الله أن لا يفرّق الجماعة ولا يسفك الدماء فقال: هلاّ أوصيت بذلك صاحبك. فقال بشير: ليس مثلك هو أحقّ بالأمر بالسابقة والقرابة. قال: فما رأيك؟ قال: تجيبه إلى ما دعا إليه من الحق. قال معاوية: ونترك دم عثمان لا والله لا أفعله أبداً! ثمّ قال شبث بن ربعي: يا معاوية! إنما طلبت دم عثمان تستميل به هولاء السفهاء الطغام إلى طاعتك، ولقد علمنا أنك أبطأت على عثمان بالنصر لطلب هذه المنزلة، فاتق الله ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله. فأجابه معاوية وأبدع في سبّه وقال: انصرفوا فليس بيني وبينكم إلاّ السيف. فقال له شبث: أقسم بالله لنجعلنها لك».

ج - العودة إلى القتال:

رجع الوفد بالخبر إلى الإمام علي ناقلاً رفض معاوية الطاعة، فعاد القتال بين الجيشين اللذين اقتتلا طيلة شهر ذي الحجة. فلما جاء المحرّم من السنة السابعة والثلاثين، مال الجميع إلى الموادعة حتى ينقضي طمعاً في الصلح.

كتب الطبري عن قتال ذي الحجة:(١)

«فأتوا علياً وأخبروه بالذي كان من قوله، وذلك في ذي الحجة، فأخذ عليٌّ يأمر الرجل ذا الشرف، فيخرج معه جماعة، ويخرج إليه من أصحاب معاوية آخر معه جماعة، فيقتتلان في خيلهما ورجالهما ثمّ ينصرفان. وأخذوا يكرهون أن يلقوا بجمع أهل العراق أهل الشام لما يتخوّفون أن يكون في ذلك من الاستئصال والهلاك، فكان عليٌّ يخرج مرّة الأشتر، ومرّة حُجْر بن عديّ الكنديّ، ومرّة شَبَثَ بن ربعيّ، ومرّة خالد بن المعمّر، ومرّة زياد بن النضر الحارثيّ، ومرّة زياد بن خصفة التيميّ، ومرّة سعيد بن قيس، ومرّة معقل بن قيس الرّياحيّ، ومرّة قيس بن

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٧٧ - ٧٨.

سعد. وكان أكثر القوم خروجاً إليهم الأشتر. وكان معاوية يُخرج إليهم عبد الرحمن بن خالد المخزوميّ، وأبا الأعور السُّلميّ، ومرّة حبيب بن مسلمة الفهريّ، ومرّة ابن ذي الكلاع الحِمْيريّ، ومرّة عبيدالله بن عمر بن الخطّاب، ومرّة شرحبيل ابن السِّمْط الكنديّ، ومرّة حمزة بن مالك الهمدانيّ. فاقتتلوا من ذي الحجة كلّها، وربما اقتتلوا في اليوم الواحد مرّتين أوّله وآخره».(١)

وفي المحرّم أرسل معاوية وفداً إلى علي للصلح فرفض هذا الأخير. ومع انتهاء المحرم من السنة السابعة والثلاثين للهجرة عاد القتال مجدداً، وأوصى الإمام علي جنده مرة أخرى قائلاً:(٢)

«إذا هزمتموهم، فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمثِلوا ولا تأخذوا مالاً ولا تهيِّجوا امرأة وإن شتمتكم، فإنهن ضعاف الأنفس والقوى».

ونظّم الإمام علي جنده فجعل الأشتر على خيل الكوفة، وسهلاً بن حنيف على خيل البصرة، وقيساً بن سعد على مشاة البصرة، وعمّاراً بن ياسر على مشاة الكوفة، وهاشماً بن عتبة حاملاً للراية، ومُسعراً بن فدكي على القراء.(٣)

أما معاوية، فعبأ كتائبه بجعل ذي الكِلاع الحميري على الميمنة، وحبيب بن مسلمة على الميسرة، وأبي الأعور السلمي على الطليعة، وعمرو بن العاص على خيل دمشق، ومسلم بن عقبة المُرّي على رجالة

---

(١) نقل الطبري نموذجاً عن قتال الأشتر النخعي فكتب:

«قال أبو مخنف: حدّثني عبدالله بن عاصم الفائشيّ، قال: حدّثني رجل من قومي أن الأشتر خرج يوماً يقاتل بصفّين في رجال من القرّاء، ورجال من فرسان العرب، فاشتدّ قتالهم، فخرج علينا رجل والله لقلّما رأيت رجلاً قطّ هو أطول ولا أعظم منه. فدعا إلى المبارزة، فلم يخرج إليه أحد إلاّ الأشتر، فاختلفا ضربتين، فضربه الأشتر، فقتله، وايمُ الله لقد كنا أشفقْنا عليه، وسألناه ألاّ يخرج إليه».

عن الطبري، المرجع نفسه، ص ٧٧.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٧٥.

(٣) إبن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١١٠٢ - ١١٠٣.

وابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٥٠ - ٢٥١.

دمشق، وعلى الناس كلّهم الضحاك بن قيس.[1]

واقتتل الجمعان في الأيام التالية وحصلت مبارزات إفرادية. ففي اليوم الأول اقتتل جمعان عليهما الأشتر من أهل الكوفة وحبيب من أهل الشام، وفي اليوم التالي اقتتل هاشم بن عتبة وأبو الأعور السلمي، وفي اليوم الثالث عمّار بن ياسر وعمرو بن العاص، وفي اليوم الخامس عبدالله بن عبّاس والوليد بن عقبة... الخ.[2]

نقل الطبري رواية عن تنظيم علي بن أبي طالب صفوفه بعد القتال الذي جرى في الأيام الأولى، وذلك للقيام بهجوم عام بكامل الجيش على جيش الشام فكتب:[3]

«قال أبو مِخْنف: حدّثني مالك بن أعين الجُهَنيّ، عن زيد بن وهب، أن عليّاً قال: حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بأجمعنا! فقام في النّاس عشيّة الثلاثاء، ليلة الأربعاء بعد العصر، فقال: الحمد لله الذي لا يُبرم ما نقَض، وما أبرَم لا ينقُضه الناقضون، لو شاء ما اختلف اثنان من خَلْقه، ولا تنازعت الأمة في شيء من أمره، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله. وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار، فلفّت بيننا في هذا المكان، فنحن من ربّنا بمرأى ومسمع، فلو شاء عجّل النّقمة، وكان منه التغيير، حتى يكذّب الله الظالم، ويَعلم الحقّ أين مصيره. ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال، وجعل الآخرة عنده هي دار القرار، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى. ألاّ إنكم لاقوا القوم غداً، فأطلبوا الليلة القيام، وأكثروا تلاوة القرآن، وسلُوا الله عزّ وجلّ النّصر والصبر، والقَوْهم بالجدّ والحزم، وكونوا صادقين. ثمّ انصرف، ووثب الناس إلى سيوفهم ورماحهم ونبالهم يصلحونها.

قال: فلما كان من الليل خرج عليٌّ فعبّى الناس ليلته كلّها، حتى إذا أصبح زحف بالناس، وخرج إليه معاوية في أهل الشام،

---

(١) إبن خلدون،، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١١٠٢ - ١١٠٣.
وابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٥٠ - ٢٥١.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٨٣.

(٣) الطبري، المرجع نفسه، ص ٨٣ - ٨٤.

فأخذ عليٌّ يقول: مَن هذه القبيلة؟ ومَن هذه القبيلة؟ فنُسبت له قبائل أهل الشأم، حتى إذا عرفهم ورأى مراكزهم قال للأزد: اكفوني الأزد، وقال لخثعم: اكفوني خَثْعم. وأمر كلّ قبيلة من أهل العراق أن تكفيه أختها من أهل الشام إلاّ أن تكون قبيلة ليس منها بالشام أحد فيصرفها إلى قبيلة أخرى تكون بالشام، ليس منهم بالعراق واحد، مثل بَجيلة لم يكن منهم بالشام إلاّ عدد قليل، فصرفهم إلى لخْم. ثمّ تناهض الناس يوم الأربعاء فاقتتلوا قتالاً شديداً نهارهم كلّه، ثمّ انصرفوا عند المساء وكلّ غير غالب، حتى إذا كان غداة الخميس صلّى عليٌّ بغلَس.

قال أبو مخنف: حدّثني عبد الرحمن بن جندب الأزديّ، عن أبيه، قال: ما رأيت عليّاً غلّس بالصلاة أشدّ من تَغْليسه يومئذ، ثمّ خرج بالناس إلى أهل الشام فزحف إليهم، فكان يبدؤهم فيسير إليهم، فإذا رأوه قد زحف إليهم استقبلوه بوجوههم.

قال: وازدلف الناس يوم الأربعاء فاقتتلوا كأشدّ القتال يومهم حتى الليل، لا ينصرف بعضهم عن بعض إلاّ للصّلاة، وكثرت القتلى بينهم، وتحاجزوا عند الليل وكلٌّ غير غالب، فأصبحوا من الغد، فصلّى بهم عليٌّ غداة الخميس، فغلّس بالصّلاة أشدّ التّغليس. ثمّ بدأ أهل الشأم بالخروج، فلما رأوه قد أقبل إليهم خرجوا إليه بوجوههم، وعلى ميمنته عبدالله بن بُديل، وعلى ميسرته عبدالله بن عبّاس، وقرّاء أهل العراق مع ثلاثة نفر: مع عمّار بن ياسر، ومع قيس ابن سعد، ومع عبدالله بن بُديل، والناس على راياتهم ومراكزهم، وعليٌّ في القلب في أهل المدينة بين أهل الكوفة وأهل البصرة. وعظُم مَن معه من أهل المدينة الأنصار، ومعه من خُزاعة عدد حَسن، ومن كَنانة وغيرهم من أهل المدينة.

ثمّ زحف إليهم بالناس، ورفع معاوية قبة عظيمة، وبعث خيل أهل دمشق فاحتاطت بقبته. وزحف عبدالله بن بُدَيل في الميمنة نحو حبيب بن مسلمة، فلم يزل يحوزه، ويكشف خيله من الميسرة حتى اضطرهم إلى قبة معاوية عند الظهر».

د - القتال سجال:

وتتابع القتال سجالاً بين الجهتين. لذلك سنحاول اختصار مراحل هذا القتال،

مستندين إلى مجموعة المؤرّخين العرب الذين عالجوا هذه المعركة، من الطبري إلى المسعودي وابن الأثير وابن كثير وابن خلدون وغيرهم:

- انكشفت مضر وثبتت ربيعة في ميسرة جيش الخليفة.
- دعم الأشتر الميمنة في جيش الخليفة وفيها مذحج وهمذان.
- زحف الأشتر في همذان وغيرهم فأزال أهل الشام عن مواقعهم حتى ألحقهم بالصفوف حول معاوية. ثمّ حمل حملة أخرى فصرع من أهل الشام أربعة صفوف حتى اضطر معاوية إلى ركب فرسه.
- لما رأى الإمام علي أن ميمنته ثبتت بعد تراجعها، جاءهم وأثنى عليهم، فقاتل الناس حوله قتالاً شديداً وتبارز الشجعان.
- حملت حِمير من ميمنة أهل الشام على ربيعة في ميسرة أهل العراق، فثبتت ربيعة وانهزم الضعفاء منها. ثمّ عادت، بعد أن عززتها عبد قيس، وشنت هجوماً على حِمير فقتل ذو الكلاع وعبدالله بن عمر.
- حمل الإمام علي، ومعه ربيعة ومضر وهمذان حملة قوية فلم يبقَ لأهل الشام صف إلا وانتقض، حتى بلغوا معاوية، فناداه علي: على ما يُقتل الناس بيننا، هلمّ نحاكمك إلى الله فأيّنا قتل صاحبه استقام له الأمر.[1] فلم يستجب معاوية للنداء.
- أرسل علي محمّداً بن الحنفية نحو كتيبة من الشام كانت قد ثبتت في مكانها، فازالهم عن مواقعهم.
- ثمّ اقتتل الناس بعد ذلك طيلة ليلة الجمعة التي دعيت «ليلة الهرير».[2]
- ركب الأشتر ودعا الناس إلى الحملة على أهل الشام، فحمل حتى انتهى إلى عسكرهم وقتل صاحب رايتهم، وأمدّه علي بالرجال.

سادساً – رفع المصاحف

لمّا رأى عمرو بن العاص شدّة أهل العراق وخاف على أصحابه من الهلاك قال لمعاوية:

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١١٠٨.
(٢) تذكاراً لمعركة القادسية.

«هل لك في أمرٍ أعرضه عليك لا يزيدنا إلاّ اجتماعاً ولا يزيدهم إلاّ فرقة؟».

قال: نعم:

قال: «نرفع المصاحف ثمّ تقول لما فيها هذا حكم بيننا وبينكم، فإن أبى بعضهم أن يقبلها، وجدت فيهم من يقول: ينبغي لنا أن نقبل، فتكون فرقة بينهم. وإن قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنّا إلى أجل».(١).

نقل ابن الأثير رواية رفع أهل الشام المصاحف والاحتكام إليها والخلافات داخل معسكر الخليفة في شأنها، وصولاً إلى قبول الإمام علي بوقف القتال والاحتكام إلى كتاب الله مكرهاً، فكتب:(٢)

«فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا: هذا حكم كتاب الله عزّ وجلّ بيننا وبينكم. مَنْ لثغور الشام بعد أهله، مَنْ لثغور العراق بعد أهله؟ فلما رآها الناس قالوا: نجيب إلى كتاب الله. فقال لهم عليّ: عبادَ الله أمضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوّكم، فإنّ معاوية، وعَمْراً وابن أبي معيط، وحبيباً، وابن أبي سرح، والضحاك ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالاً ثمّ رجالاً فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال. وَيْحَكُم! والله ما رفعوها إلاّ خديعة ووهناً ومكيدة. فقالوا له: لا يَسَعُنا أن نُدعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله. فقال لهم عليّ: فإنّي إنما أقاتلهم ليدينوا لحكم الكتاب فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه. فقال له مسعر بن فدكي التميمي، وزيد بن حصين الطائي في عصابة من القرّاء الذين صاروا خوارج بعد ذلك: يا عليّ أجبْ إلى كتاب الله عزّ وجلّ إذ دُعِيْتَ إليه وإلاّ دفعناك برمّتك إلى القوم أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان. قال: فاحفظوا عني نهيي إياكم واحفظوا مقالتكم لي فإن تطيعوني فقاتلوا وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم. قالوا: ابعث إلى الأشتر فليأتك.

فبعث عليّ يزيد بن هانىء إلى الأشتر يستدعيه فقال الأشتر: ليست هذه الساعة بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني عن

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٠١.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٩٢ – ١٩٥.

موقفي إنّي قد رجوت أنْ يفتح الله لي. فرجع يزيد فأخبره، وارتفعت الأصوات، وارتفع الرهج من ناحية الأشتر فقالوا: والله ما نراك إلاّ أمرته أن يقاتل. فقال علي: هل رأيتموني ساررته! أليس كلّمته على رؤوسكم وأنتم تسمعون؟ قالوا: فابعث إليه فليأتِك وإلاّ والله اعتزلناك. فقال له: ويلك يا يزيد قُلْ له أقبلْ إليّ فإنّ الفتنةَ قد وقعَتْ فأبلغه ذلك، فقال الأشتر: ألرفع المصاحف؟ قال: نعم. قال: والله لقد ظننت أنّها ستُوقع اختلافاً وفُرقة، إنّها مشورة ابن العاهر ألا ترى إلى الفتح! ألا ترى ما يلقون! ألا ترى ما صنع الله لنا! لن ينبغي أن أدَعَ هؤلاء!

وانصرف عنهم فقال له يزيد: أتحب أن تظفر وأمير المؤمنين يسلم إلى عدوّه أو يقتل؟ قال: لا والله. سبحان الله فأعلمه. فأقبل إليهم الأشتر وقال: «يا أهلَ العراق: يا أهلَ الذلّ والوهن: أحينَ علوتم القومَ وظنّوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها وهم والله قد تركوا ما أمرَ الله به فيها وسُنَّةَ مَنْ أُنزِلَتْ عليه! فأمهلوني فواقاً فإني قد أحسستُ بالفتح». قالوا لا. قال: أمهلوني عَدْوَ الفَرَس فإنّي قد طمعت في النصر. قالوا: إذن ندخل معك في خطيئتك. قال: فخبروني عنكم متى كنتم محقّين؟ أحين تقاتلون وخياركم يُقتَلُون؟ فأنتم الآن أمسكتم عن القتال مُبْطِلُون! أم أنتم محقون فقتْلاكُم الذين لا تنكرون فضلهم وهم خير منكم في النار. قالوا: دعنا منك يا أشتر. قاتلناهم لله ونَدَعُ قتالهم لله. قال: خُدِعْتُم، وانخدعتم، ودُعِيتُم إلى وضع الحرب فأجبْتُم. يا أصحاب الجباهِ السود: كنّا نظنُّ صلاتكم زهادة في الدنيا وشوقاً إلى لقاء الله فلا أرى مرادكم إلاّ الدنيا. ألا قُبْحاً. يا أشباه النيب الجلالة ما أنتم برَائِين بعدها عِزّاً أبداً فابعدوا كما بعد القوم الظالمون.

فسبّوه وسبّهم، وضربوا وجه دابته بسياطهم، وضرب وجوه دوابّهم بسوطه، فصاح به وبهم عليّ فكفوا، وقال الناس: قد قبلنا أن نجعل القرآن بيننا وبينهم حَكَماً. فجاء الأشعث بن قيس إلى عليّ فقال: أرى الناس قد رضوا بما دَعُوهُم إليه مِنْ حُكْمِ القرآن فإن شئتَ أتيتُ معاوية فسألته ما يريد؟ قال: ائتِهِ. فأتاه فقال لمعاوية. لأيّ شيءٍ رفعتم هذه المصاحف؟ قال: لنرجع

نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه. تبعثون رجلاً ترضون به ونبعث نحن رجلاً نرضى به نأخُذُ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يَعْدُوانِه، ثمّ نتّبع ما اتفقا عليه. قال له الأشعث: هذا الحقّ. فعاد إلى عليّ فأخبره فقال الناس: قد رضينا وقَبِلْنا. فقال أهل الشام: قد رضينا عَمْراً، وقال الأشعث وأولئك القوم الذين صاروا خوارج: إنّا قد رضينا بأبي موسى الأشعري. فقال علي: قد عصيتموني في أوّل الأمر فلا تعصوني الآن. لا أرى أن أولّي أبا موسى. فقال الأشعث، وزيد بن حصين، ومسعر بن فدكي: لا نرضى إلاّ به فإنه قد حذّرنا ما وَقَعنا فيه. قال علي: فإنه ليس بثقة قد فارقني وخذّل الناس عني ثمّ هرب مني حتى أمّنته بعد أشهر. ولكن هذا ابن عباس أُولّيه ذلك. قالوا: والله لا نبالي أنت كنتَ أم ابن عباس. لا نريد إلاّ رجلاً هو منك ومن معاوية سواء. قال علي: إني أجعل الأشتر. قالوا: وهل سَعّرَ الأرض غير الأشتر. فقال: قد أبيتُم إلاّ أبا موسى. قالوا: نعم. قال: فاصنعوا ما أردتم».

سابعاً – الدروس والعبر والنتائج

أ – أتقن معاوية بن أبي سفيان فنّ الاستفادة من مقتل الخليفة عثمان وراح يطالب بالثأر من قتلته مستغلاً قميصه الملطخ بالدم وأصابع زوجته نائلة المقطوعة حتى ضرب المثل بذلك فقيل «مثل قميص عثمان». وقد تمكّن معاوية من تأليب أهل الشام ضد الخليفة علي بن أبي طالب، الأمر الذي أدى إلى الصراع بينهما في أول مجابهة عامة بين المسلمين دعيت أحداثها بـ«الفتنة الكبرى».

ب – وتساءل المؤرّخون: ماذا كان سيجري لو أن الخليفة علي بن أبي طالب ثبّتَ معاوية في ولاية الشام بانتظار انتهاء أزمة اغتيال الخليفة عثمان؟

إن الجواب على هذا السؤال يقع في خانة التخمين. لكن مجرى الأمور يومذاك يظهر أن معاوية كان مصمّماً على المطالبة بالثأر من قتلة عثمان، حتى ولو أُبقي والياً للشام.

ج – طبّق كلّ من الإمام علي ومعاوية قواعد التعبئة العامة وحشد القوى وتعيين قادتها، وذلك تمهيداً للمعركة الفاصلة بينهما.

ومنذ بداية الصراع اعتمد الإمام علي استراتيجية هجومية فخطّط للانتقال بجيشه إلى الشام لمهاجمة خصمه، وأقام جسراً على الفرات عبر عليه مع جيشه محققاً بذلك مبدأ الحرب الثاني أي حرية العمل.

وبغية عدم الوقوع في الكمائن والتعرّض للمفاجآت، سيّر الخليفة أمام جيشه طليعة قوية بلغ عديدها اثني عشر ألف مقاتل بقيادة أبرز قادة جيشه، الأشتر النخعي.

وبالفعل اصطدمت طليعة علي بجند للشام في صفين فباشر هؤلاء القتال قبل وصول عظيم الجيشين إلى المكان.

د - أحسن معاوية بن أبي سفيان بالوصول أولاً إلى مكان المعركة إذ أنه اختار الموقع الأفضل لجيشه فسيطر على مصدر المياه التي تعتبر أكثر الأمور حيوية في بلاد الشرق الأدنى للجيوش لأسباب، منها شدة الحرّ وندرة الآبار والينابيع والبرك.

وهكذا ظهر أن كلاً من القائدين العربيين كان يحاول تأمين حرية عمله واستقلالية جيشه اللوجستية والعملانية.

وبالفعل، نشب أوّل قتال بين الجيشين في صفين بهدف السيطرة على مصدر المياه قبل أن يتفق الفريقان على استفادتهما سوية منها.

هـ - وعن المعركة بحدّ ذاتها، يمكننا أن نستنتج الحقائق الآتية:

أولاً - كان الإمام علي على وشك ربح القتال في صفين.

ثانياً - فكرة رفع المصاحف جاءت من «داهية العرب» عمرو بن العاص. وكانت خدعة لتخفيف وقع هجوم الأشتر النخعي ومقاتليه على جيش معاوية.

ثالثاً - الإمام علي كشف الخدعة فوراً، وكان يرغب بمتابعة القتال وعدم الاستجابة إلى الدعوة بالاحتكام إلى كتاب الله.

رابعاً - لم يكن جند الخليفة طيّعاً في يديه، إنما قادته هم الذين فرضوا عليه وقف القتال. وهؤلاء هم من قتلة عثمان وأصبحوا في ما بعد من الخوارج. وهم الذين فرضوا تعيين أبي موسى الأشعري حكماً عن الخليفة الذي كان يعارض هذا التعيين، لكنه رضخ أخيراً خوفاً من انقسام معسكره.

خامساً - الأشتر النخعي أيضاً كشف الخدعة وأراد متابعة القتال حتى النصر.

لكن الخليفة، وتحت ضغط جنده، منعه من ذلك.

سادساً – إن قبول الإمام علي بالتحكيم جعله على قدم المساواة مع أحد ولاة الأقاليم، أي مع والي الشام. وبذلك تراجع الخليفة عن اعتبار نفسه خليفة المسلمين واعتبار معاوية والياً عاصياً على أوامره.

سابعاً – هذا القول أيضاً رفع معاوية من والٍ متمردٍ على أوامر الخليفة إلى مرشح للخلافة ومساوٍ للإمام علي في هذا الميدان.

ثامناً – قسمت عملية التحكيم هذه العالم الإسلامي إلى طائفتين كبيرتين، الشيعة والسنة. لذلك كان من الصحيح تسمية الخلاف بين علي ومعاوية بـ«الفتنة الكبرى في الإسلام».

تاسعاً – إن القبول بالتحكيم واستشهاد الإمام علي في ما بعد، سينهيا الخلافة الراشدية وينقلا الخلافة إلى أسرة بني أمية التي انتصرت على الأسرة الهاشمية، مع ما في ذلك من انتصار للرأسمالية القرشية على حلف الفضول وانتصار المال على المبادىء والمثل العليا. كما أن انتقال الخلافة إلى أسرة بني أمية سينقلها من العراق إلى الشام، لذلك كان العراق هو الخاسر الأكبر في معركة صفين، وذلك بسبب تذبذب قادته وعدم انصياعهم لأوامر الخليفة علي بن أبي طالب.

عاشراً – أظهرت نتائج معركة صفين أن قياس الجيوش لا يكون فقط بعدد جندها وقيمة تدريبهم وعتادهم وحسب، إنما أيضاً بقيمة قيادتهم وبتماسك جبهتهم الداخلية.

فجيش العراق كان من دون شك، متفوقاً عسكرياً على جيش الشام، لكنه كان يفتقر إلى التجانس ويعوزه الولاء التام لقيادته. أما جيش الشام فكان متماسكاً وراء قيادته، مخلصاً ومطيعاً لها ومتحمّساً لقضيتها، وكان ينفذ أوامرها من دون تردد أو مناقشة. وهذا ما جعل النصر حليفه.

حادي عشر – إذا أردنا إجراء دراسة مقارنة حول تطبيق مبادىء الحرب خلال المعركة، لجئنا بالحصيلة التالية:

المبدأ الأول: نسبية الأهداف للوسائل:

كان الجيشان متساويان في العدد والعدّة. لكن جيش علي تميّز بقيمة قيادته وقرابتها من النبي ﷺ وإمكاناتها العملانية المميزة، في وقت تميّز جيش معاوية بحسن الإدارة والحنكة والدهاء.

المبدأ الثاني: حرية العمل:

حاول جيش الشام قبيل المعركة منع الماء عن جيش العراق بهدف إفقاده حرية العمل، لكن هذا الأخير نفذ عمليات هجومية أدت إلى استفادته أيضاً من مصدر المياه.

من جهة أخرى، اختار معاوية مكان المعركة فنشر جيشه في سهل فسيح أمّن له حرية المناورة بالخيالة خاصة.

وبعد رفع المصاحف واختلاف قادة جيش الإمام علي حول طريقة معالجة الوضع الجديد، فَقَد هذا الأخير حرية عمله كقائد لجيش العراق. فقد أراد الخليفة متابعة القتال رغم رفع المصاحف، لكن بعض قادة جيشه هدّد بالخروج عن طاعته إذا نفذ رغبته هذه. وهكذا اضطرّ الإمام علي إلى الرضوخ دون اقتناع إلى رغبة بعض معاونيه.

المبدأ الثالث: الحصيل الأقصى للوسائل:

من الناحية العسكرية أحسن كلٌ من الجيشين تطبيق هذا المبدأ، فحصلت خلال المعركة مناورات مدروسة وساهم حماس المقاتلين في إطالة أمد القتال.

أما من الناحية المعنوية والانضباطية، فقد تفوّق جيش الشام على جيش العراق إذ انّ هذا الأخير كان يفتقر إلى التجانس والولاء لقيادته، في وقت كان جيش الشام متعلق بقيادة معاوية بن أبي سفيان ومطيعاً ومخلصاً له ومقتنعاً بالقضية التي ينادي بها.

إنما، ومهما قيل عن تطبيق مبادىء الحرب أو عدمه، فإن حسم الصراع بين الفئتين المتقابلتين لم يجرِ في ساحة القتال، إنما في كواليس السياسة ودهاليز عملية التحكيم التي جرت لاحقاً.

ملحق رقم ٣

سير بعض القادة(١)

أولاً – عبدالله بن الأرقم بن أبي الارقم

أسلم عام الفتح وكتب بين يدي رسول الله ﷺ. وقد تقدّم مع كتّاب الوحي.

عبدالله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، قتل يوم صفين وكان أمير الميمنة لعلي فصارت إمرتها للأشتر النخعي.

ثانياً – عبدالله بن سعد بن أبي سرح

أحد كتّاب الوحي أيضاً، أسلم قديماً وكتب الوحي ثمّ ارتدّ ثمّ عاد إلى الإسلام عام الفتح واستأمن له عثمان – وكان أخاه لأمه – وحسن إسلامه. ولاه عثمان نيابة مصر بعد عمرو بن العاص، فغزا إفريقية وبلاد النوبة، وغزا ذات الصواري مع الروم في البحر فقتل منهم ما صبغ وجه الماء من الدماء. ثمّ لما حصر عثمان تغلّب عليه محمّد بن أبي حذيفة وأخرجه من مصر فمات في هذه السنة(٢) وهو معتزل علياً ومعاوية، في صلاة الفجر بين التسليمتين رضي الله عنه.

---

(١) عن ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤٧، ص ٢٩٨ – ٢٩٩.

(٢) أي سنة ٣٧ هـ.

ثالثاً – عمار بن ياسر
أبو اليقظان العبسي

من عبس اليمن، وهو حليف بني مخزوم. أسلم قديماً وكان ممن يعذب في الله هو وأبوه وأمه سميّة، ويقال إنه أول من اتخذ مسجداً في بيته يتعبّد فيه. وقد شهد بدراً وما بعدها. كان رسول الله ﷺ قال: «تَقْتُلُكَ الفِئَةُ البَاغِيةُ». وروى الترمذي من حديث الحسن عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الجَنَّةَ تَشْتَاقُ إلى ثَلاثَةٍ، عَلِيٌّ وَعَمَّارٍ وَسَلْمَانَ». وفي الحديث الآخر الذي رواه الثوري وقيس بن الربيع وشريك القاضي وغيرهم عن أبي إسحاق عن هانيء ابن هانيء عن علي أن عماراً استأذن على رسول الله ﷺ فقال: «مَرْحَباً بِالطَّيِّبِ المُطَيَّبِ». وقال إبراهيم بن الحسين: حدثنا يحيى حدثني نصر، ثنا سفيان الثوري عن أبي الأعمش عن أبي عمار عن عمرو بن شرحبيل عن رجل من أصحاب رسول الله أن رسول الله ﷺ قال: «لَقَدْ مُلِيءَ عَمَّارٌ إيماناً مِنْ مُشاشِهِ».[1] وحدثنا يحيى بن معلى عن الأعمش عن مسلم عن مسروق عن عائشة أنها قالت: «ما من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أشاء أن أقول فيه إلا عمار بن ياسر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ حُشِيَ ما بَيْنَ أَخمَصِ قَدَمَيْهِ إلى شَحْمَةِ أُذُنِهِ إيماناً». وحدثنا يحيى، ثنا عمرو بن عون، عن العوام بن حوشب عن سلمة بن كهيل عن علقمة قال: أتيت أهل الشام فلقيت خالد بن الوليد فحدثني قال: كان بيني وبين عمار بن ياسر كلام في شيء فشكاني إلى رسول الله ﷺ فقال: «يَا خَالِدُ! لا تُؤْذِ عَمَّاراً فإنَّهُ مَنْ يُبْغِضْ عَمَّاراً يُبْغِضْهُ الله، وَمَنْ يُعَادِ عَمَّاراً يُعَادِهِ الله». قال: فعرضت له بعد لك فسللت ما في نفسه. وله أحاديث كثيرة في فضائله رضي الله عنه. قتل بصفين عن إحدى وقيل ثلاث وقيل أربع وتسعين سنة، طعنه أبو الغادية فسقط ثمّ أكب عليه رجل فاحتز رأسه. ثمّ اختصما إلى معاوية أيهما قتله فقال لهما عمرو بن العاص: اندرا

(١) المشاش: رأس العظم.

فوالله إنكما لتختصمان في النار. فسمعها منه معاوية فلامه على تسميعه إياهما ذلك، فقال له عمرو: والله إنك لتعلم ذلك، ولوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة. قال الواقدي: حدثني الحسن ابن الحسين بن عمارة عن أبي إسحاق عن عاصم أن علياً صلى عليه ولم يغسله وصلّى معه على هاشم بن عتبة، فكان عمار مما يلي علياً، وهاشم إلى نحو القبلة. قالوا وقبر هنالك، وكان آدم اللون، طويلاً بعيداً ما بين المنكبين: أشهل العينين، رجلاً لا يغير شيبه رضي الله عنه.

أرسل أنصار الإمام علي الذين فرضوا عليه التحكيم إلى أبي موسى الأشعري، الذي كان قد اعتزل القتال، واعلموه أن القتال قد انتهى وأنه قد جعل حكماً من قبل معسكر الخليفة.

الفصل الثاني عشر
إستشهاد الإمام علي وانتقال الخلافة إلى معاوية

أولاً – التحكيم

حضر أبو موسى وعمرو بن العاص إلى جانب الخليفة ليكتبوا القضية، فكتبوا بعد البسملة ما يأتي:[١]

«هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى عليّ على أهل الكوفة ومن معهم، ومعاوية على أهل الشام ومن معهم، إنا ننزل عند حكم الله وكتابه، وأن لا يجمع بيننا غيره، وأن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيا ونميت ما أمات مما وجد الحكمان في كتاب الله. وهما أبو موسى عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص، وما لم يجدا في كتب الله، فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة». كتب الكتاب لثلاث عشرة خلت من صفر سنه سبع وثلاثين.

وأخذ الحكمان من الجانبين العهود والمواثيق أن يحكما بين هذه الأمة ولا يورداها في حرب ولا فرقة حتى يقضيا. وأجّلا القضاء إلى رمضان. وشهد رجال من أهل العراق والشام وضعوا أسماءهم في الصحيفة.[٢]

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٠٣.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٩٦.

واتفقوا عى أن يوافي عليّ موضع الحكمين بدومة الجندل أو بأذرح في شهر رمضان. ثمّ جاء بعض أنصار علي يحضونه على القتال، فلم يقبل الرجوع بعد الاقرار بالتحكيم.[1]

ثانياً – خروج الخوارج عن الإمام علي

ثمّ رجع الناس عن صفين وشرعوا بدفن قتلاهم، وأطلق علي جماعة من أهل الشام كان قد أسرهم، وأطلق معاوية جماعة من أنصار علي كان قد أسرهم أيضاً.

ورجع الإمام علي نحو الكوفة، وخالفته الحرورية الذين أنكروا تحكيم الرجال ورجعوا على غير الطريق التي جاؤوا منها حتى جازوا النخيلة. ودخل علي الكوفة فلم يدخل معه الخوارج الذين أتوا حروزا فنزلوا بها في اثني عشر ألفاً فقدموا شبثاً بن عمر التميمي أمير القتال، وعبيد الله بن الكوى اليشكري أمير الصلاة.[2]

كتب ابن كثير عن خروج الخوارج من جيش علي:[3]

«قد تقدم أن علياً رضي الله عنه، لما رجع من الشام بعد وقعة صفين، ذهب إلى الكوفة، فلما دخلها انعزل عنه طائفة من جيشه، قيل ستة عشر ألفاً وقيل اثني عشر ألفاً، وقيل أقل من ذلك، فباينوه[4] وخرجوا عليه وأنكروا أشياء. فبعث إليهم عبدالله بن عباس فناظرهم فيها ورد عليهم ما توهموه شبهه، ولم يكن له حقيقة في نفس الأمر. فرجع بعضهم واستمرّ بعضهم على ضلالهم. ويقال إن علياً رضي الله عنه ذهب إليهم فناظرهم فيما نقموا عليه حتى استرجعهم عمّا كانوا عليه، ودخلوا معه الكوفة. ثمّ إنهم عاهدوا فنكثوا ما عاهدوا عليه وتعاهدوا فيما بينهم على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام على

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٦٦.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١١١٢.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٦٧.

(٤) باينوه: خالفوه.

الناس في ذلك ثمّ تحيزوا إلى موضع يقال له النهروان، وهناك قاتلهم علي».

ثالثاً - إجتماع الحكمين

ولما جاء وقت اجتماع الحكمين أرسل علي أربعمائة رجل مع أبي موسى وبعث معاوية أربعمائة رجل مع عمرو بن العاص.

نقل ابن خلدون رواية اجتماع الحكمين كما يلي:[1]

«ولما انقضى الأجل وحان وقت الحكمين بعث عليّ أبا موسى الأشعري في أربعمائة رجل، عليهم شريح بن هاني الحارثي ومعهم عبدالله بن عبّاس يصلي بهم، وأوصى شريحاً بموعظة عمرو. فلما سمعها قال متى كنت أقبل مشورة عليّ واعتدّ برأيه؟ قال: وما يمنعك أن تقبل من سيّد المسلمين، وأساء الردّ عليه فسكت عنه. وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشام والتقوا بأذرُح من دَوْمَة الجَنْدَل[2]، فكان أصحاب عَمرو أطوع من أصحاب ابن عبّاس حتى لم يكونوا يسألونه عن كتاب معاوية إذا جاءه. ويسأل أهل العراق ابن عبّاس ويتّهمونه. وحضر مع الحَكَمَين عبدالله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبدالله ابن الزبير وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام وعبد الرحمن بن يغوث الزهري وأبو جَهْم ابن حُذَيفة العَدَويّ والمُغيرة بن شُعْبَة وسَعْد ابن أبي وقّاص على خلاف فيه، وقيل ندم على حضوره فأحرم بعمرة من بيت المقدس.

ولمّا اجتمع الحَكَمان قال عمرو لأبي موسى أما تعلم أن عثمان قتل مظلوماً وأن معاوية وقومه أولياؤه؟ قال بلى! قال فما يمنعك منه وهو في قريش كما علمت؟ وإن قصّرت به السابقة قدّمه حسن السياسة وأنه صهر رسول الله ﷺ وكاتبه وصاحبه والطالب بدم عثمان، وعرّض بالولاية. فقال له أبو موسى يا عمرو اتق الله واعلم أن هذا الأمر ليس بالشرف وإلاّ لكان لآل أبرَهَة بن الصبّاح، وإنما هو بالدين والفضل، مع أنه لو

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١١١٤ - ١١١٧.

(٢) المعروف ان الاجتماع تمّ بدومة الجندل - وهنا كلمة اذرح زائدة، كذلك في الطبري وابن الأثير.

كان بشرف قريش لكان لعليّ بن أبي طالب، وما كنت لأرى لمعاوية طلبه دم عثمان وأوّليه وأدَع المهاجرين الأوّلين. وأما تعريضك بالولاية، فلو خرج لي عثمان عن سلطانه ما وليته وما أرتشي في حكم الله.

ثمّ دعاه إلى تولية عبدالله بن عمر. قال له عمرو: فما يمنعك من ابني وهو من علمت؟ فقال له رجل صدق ولكنك غمسته في الفتنة. فقال عمرو: إن هذا الأمر لا يصلح إلاّ لرجل له ضرس يأكل ويطعم - وكانت في ابن عمر غفلة -. وكان ابن الزبير بازائه فنبّهه لما قال. فقال ابن عمر لا أرشو عليها أبداً! ثمّ قال أبو موسى: يا ابن العاص إن العرب أسندت أمرها إليك بعد المقارعة بالسيوف، فلا تردّهم في فتنة. قال له فخبّرني ما رأيك؟ قال أرى ان نخلع الرجلين ونجعل الأمر شورى فيختار المسلمون لأنفسهم. فقال عمرو الرأي ما رأيت!

ثمّ أقبلوا على الناس وهم ينتظرونهم وكان عمرو قد عوّد أبا موسى أن يقدّمه في الكلام لما له من الصحبة والسن. فقال: يا أبا موسى! أعلمهم أنّ رأينا قد اتفق، فقال: إنا رأينا أمراً نرجو الله أن يصلح به الأمة فقال له ابن عبّاس: ويحك أظنه خدعك، فاجعل له الكلام قبلك، فأبى وقال: أيها الناس إنا نظرنا في أمر الأمّة فلم نَرَ أصلح لهم مما اتفقنا عليه، وهو أن نخلع علياً ومعاوية ويولّي الناس أمرهم من أحبّوا، وأني قد خلعتهما فولّوا من أردتم ورأيتموه أهلاً.

فقال عمرو: إن هذا قد خلع صاحبه وقد خلعته كما خلعه، وأثبتّ معاوية فهو وليّ ابن عفّان وأحق الناس بمقامه. ثمّ عدا ابن عبّاس وسعد على أبي موسى باللائمة وقال: ما أصنع غدرني، ورجع باللائمة على عمرو، وقال لا وفقك الله غدرت وفجرت. وحمل شريح على عمرو فضربه بالسيف[1] وضربه ابن عمر كذلك. وحجز الناس بينهم فلحق أبو موسى بمكّة وانصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية فسلّموا عليه بالخلافة. ورجع ابن عباس وشريح إلى عليّ بالخبر فكان يقنت إذا صلّى الغداة ويقول: اللهمّ العن معاوية وعمراً وحبيباً وعبد الرحمن بن مخلد

(١) في مرجع آخر: بالسوط.

والضحّاك بن قيس والوليد وأبا الأعور. وبلغ ذلك معاوية فكان إذا قنت يلعن علياً وابن عبّاس والحسن والحسين والأشتر».

رابعاً – وقعة النهروان

قبل معاوية بنتيجة التحكيم ولم يقبل بها علي الذي خطب في الناس وقال:(١)

«بعد الحمد لله والموعظة، إلاّ أن هذين الحكمين نبذا حكم القرآن، واتبع كلّ واحد هواه، واختلفا في الحكم وكلاهما لم يرشد، فاستعدوا للسير إلى الشام».

وكتب إلى الخوارج بالنهروان فرفضوا السير معه وقتلوا عبدالله بن خباب فبعث الإمام علي إليهم الحارث بن مرة العبدي فقتلوه أيضاً. لذلك قرر مقاتلتهم قبل التوجه لقتال معاوية في الشام.

وسار علي إلى الخوارج وعبر الجسر وأرسل إلى أهل «النهر» أن «ادفعوا إلينا قتلة اخواننا منكم اقتلهم بهم، ثمّ أنا تارككم وكافّ عنكم حتى ألقى أهل الشام».(٢)

فقالوا: «كلنا قتلهم وكلنا مستحل لدمائكم ودمائهم».

وكلّمهم الإمام علي وذكّرهم بأنه رفض التحكيم الذي ألزموه به فقالوا: «إنّا تبنا، فإن تبت فنحن معك ومنك، وإن أبيت فإنّا منابذوك على سواء».(٣)

لم يقبل علي بطرحهم وعبّأ جيشه للمواجهة.

وصف ابن الأثير القتال بين جيش الإمام علي والخوارج فكتب:(٤)

«وتقدّم عليّ إليهم فرآهم عند الجسر لم يعبروه وكان الناس قد شكّوا في قوله، وارتاب به بعضهم. فلما رأوا الخوارج لم يعبروا كبّروا وأخبروا علياً بحالهم فقال: «والله ما كذبت ولا كذبت». ثمّ إنه عبأ أصحابه فجعل على ميمنته حجر بن عدي، وعلى مسيرته شبث بن ربعي، أو معقل بن

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١١٢٠.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢١٩.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٢٠.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٢١ – ٢٢٣.

قيس الرياحي، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري، وعلى الرجالة أبا قتادة الأنصاري وعلى أهل المدينة - وهم سبعمائة أو ثمانمائة - قيس بن سعد بن عبادة. وعبأت الخوارج فجعلوا على ميمنتهم زيد بن حصين الطائي، وعلى الميسرة شريح بن أوفى العبسيّ، وعلى خيلهم حمزة بن سنان الأسدي وعلى رجالتهم حرقوص بن زهير السعدي.

وأعطى عليّ أبا أيوب الأنصاري راية الأمان فناداهم أبو أيوب فقال: مَنْ جاء تحت هذه الراية فهو آمن، ومَن لم يقتل ولم يستعرض، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن. لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سَفك دمائكم.

فقال فروة بن نوفل الأشجعي: والله ما أدري على أيّ شيء نُقاتِل علياً؟ أرى أن انصرف حتى تتضح لي بصيرتي في قتاله أو أتابعه. فانصرف في خمسمائة فارس حتى نزل البندنيجين والدسكرة، وخرجت طائفة أخرى متفرقين فنزلوا الكوفة، وخرج إلى عليّ نحو مائة وكانوا أربعة آلاف فبقي مع عبدالله بن وهب ألف وثمانمائة فزحفوا إلى عليّ. وكان عليّ قد قال لأصحابه: كفوا عنهم حتى يبدأوكم فتنادوا: الرواح إلى الجنة، وحملوا على الناس فافترقت خيل عليّ فرقتين فرقة نحو الميمنة، وفرقة نحو الميسرة واستقبلت الرماة وجوههم بالنبل وعطفت عليهم الخيل من الميمنة والميسرة. ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف فما لبثوا أن أناموهم. فلما رأى حمزة بن سنان الهلاك نادى أصحابه أن انزلوا. فذهبوا لينزلوا فلم يلبثوا أن حمل عليهم الأسود بن قيس المرادي وجاءتهم الخيل من نحو عليّ فأهلكوا في ساعة فكأنّما قيل لهم: موتوا فماتوا.

وحمل جيش بن ربيعة الكناني على حرقوص بن زهير فقتله. وحمل عبدالله بن زحر الخولاني على عبدالله بن شجرة السلمي فقتله. ووقع شريح بن أوفى إلى جانب جدار فقاتل عليه وكان جلّ مَنْ يقاتله همدان».

وانتصر الإمام علي وجيشه في النهروان وأخذ ما في معسكر الخوارج من أسلحة وأعتدة ودواب فقسمه بين المسلمين.

وكانت هذه الوقعة سنة ثمان وثلاثين للهجرة، وقيل سبعاً وثلاثين.

ولمّا فرغ الإمام علي من أهل النهروان أراد أن يسير بجيشه إلى الشام لمقاتلة معاوية. لكن جنده طلبوا العودة إلى ديارهم للاستعداد وزيارة عائلاتهم.

كتب الطبري عن ارتحال الجند عن معسكر الإمام علي:[1]

«قال أبو مخنف، عن نُمير بن وعلة اليناعيّ، عن أبي دَرْداء، قال: كان علي لما فرغ من أهل النهروان حَمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: إنّ الله قد أحسن بكم، وأعزّ نصركم، فتوجّهوا من فَوركم هذا إلى عدوّكم. قالوا: يا أمير المؤمنين، نفدت نبالُنا، وكلّت سيوفنا، ونصَلَت أسنّة رماحنا، وعاد أكثرها قِصَداً، فارجع إلى مِصرنا، فلنستعدّ بأحسن عدّتنا، ولعلّ أمير المؤمنين يزيد في عدّتنا عُدّة من هلك منا، فإنه أوفى لنا على عدوّنا. وكان الذي تولّى ذلك الكلام الأشعث بن قيس، فأقبل حتى نزل النُّخيلة، فأمر الناس أن يلزموا عسكرهم، ويوطّنوا على الجهاد أنفسهم، وأن يُقلّوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا إلى عدوّهم. فأقاموا فيه أياماً، ثمّ تسلّلوا من معسكرهم، فدخلوا إلاّ رجالاً من وجوه الناس قليلاً، وتُرِك العسكر خالياً، فلمّا رأى ذلك دخل الكوفة، وانكسر عليه رأيه في المسير».

- الدروس والعبر:

- بعد التحكيم انصرف الإمام علي لملاحقة هدف ثانوي شغله عن الهدف الرئيسي أي عن مقاتلة معاوية وأصبح عليه خوض الصراع على جبهتين:

- جبهة الشام وجبهة الخوارج.

فيما أصبح بإمكان معاوية انتظار نتيجة القتال بين غريمه وبين الخوارج.

- أحسن الإمام علي تطبيق المبادىء الاستراتيجية في وقعة النهروان، فعبأ جيشه ووزع المهمات على قادته. وقبل أن يباشر القتال، حاول استعادة الخوارج فنجح جزئياً في ذلك، لكنه لم يستطع تجنّب المعركة معهم.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٢٣.

تكتيكياً، أحسن الإمام علي في استخدام خيالته نظراً لسرعة تحرّكها وقوّة صدمتها للعدو، فقسّمها إلى فرقتين كلف كلاً منهما بمهاجمة جانب من جوانب عدوه. أما رماة النبال فكلفوا برميها في وجه الخوارج فيما استقبلهم قلب الجيش بالرماح والسيوف. وهكذا طبّق الإمام علي مبدأ الحصيل الأقصى للوسائل أفضل تطبيق فحسم المعركة بسرعة لمصلحته.

لكن الإمام علي لم يستطع إقناع مقاتليه بالسير إلى بلاد الشام لمقاتلة معاوية، الأمر الذي أفقده حرية عمله وأدى إلى ارتحال الجند عن معسكره وتأجيل القتال إلى أجل غير مسمى.

وخلال فترة الترقّب والانتظار، انتقلت المبادرة الهجومية من يد علي إلى يد معاوية الذي دأب، وحتى مقتل الإمام علي، على إرسال السرايا والحملات إلى المناطق التي يسيطر عليها هذا الأخير.

لكن المعركة الحاسمة بين الغريمين لم تحصل بسبب استشهاد الخليفة علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه).

خامساً – أهل الشام يبايعون معاوية بالخلافة

كان أهل الشام ينتظرون بعد صفين أمر الحكمين، فلما كان ما كان منهما بايعوا معاوية بالخلافة، فازداد بذلك قوّة وأصبحت بلاد الشام وفلسطين والجزيرة وقبرص تتبع له كخليفة. لذلك تطلّع إلى مصر التي كان الإمام علي قد عيّن محمداً بن أبي بكر والياً عليها.

سادساً – سقوط مصر بيد عمرو بن العاص

نقل ابن الأثير أن الخليفة علياً بن أبي طالب، وبعد أن علم برغبة معاوية في مصر، قرر إرسال الأشتر النخعي كوال عليها حيث نقل عنه قوله: «ما لمصر إلاّ أحد الرجلين»، أي قيس بن سعد أو الأشتر النخعي. ولما توجّه الأشتر نحو مصر أغرى معاوية المقدم على الخراج بالقلزم وقال له: «ان كفيتنيه لم آخذ منك خراجاً ما

بقيت».[1] لذلك دعا هذا الأخير الأشتر للنزول عنده وقدّم له طعاماً فيه سمّ فقتل الأشتر، فخسر الإمام علي بموته قائداً عظيماً.

نقل الطبري رواية مقتل محمّد بن أبي بكر وسقوط مصر بيد عمرو بن العاص مكلفاً من قبل معاوية، فكتب:[2]

«فمما كان فيها مَقتل محمّد بن أبي بكر بمصر، وهو عاملٌ عليها، وقد ذكرنا سبب تولية عليٍّ إياه مصر، وعزل قيس بن سعد عنها، ونذكر الآن سبب قتله، وأين قتل؟ وكيف كان أمره؟ ونبدأ بذكر من تتمّة حديث الزّهريّ، وذلك ما حدّثنا عبدالله، عن يونس، عن الزّهريّ، قال: لما حُدّث قيس ابن سعد بمجيء محمّد بن أبي بكر، وأنه قادم عليه أميراً، تلقّاه وخلا به وناجاه، فقال: إنك جئت من عند امرىء لا رأي له، وليس عَزلُكم إيّايَ بمانعي أن أنصح لكم، وأنا من أمركم هذا على بصيرة، وإنّي في ذلك على الذي كنت أكايد به معاوية وعمراً وأهل خِرْبَتا، فكايدْهم به، فإنك إن تكايدْهم بغيره تَهلك. ووصف قيس بن سعد المكايدة التي كان يكايدهم بها، واغتشّه محمّد بن أبي بكر، وخالف كلّ شيء أمره به. فلما قدم محمّد بن أبي بكر وخرج قيس قِبَل المدينة بعث محمّد أهل مصر إلى خِرْبَتا، فاقتتلوا، فهزِم محمّد بن أبي بكر، فبلغ ذلك معاوية وعمراً، فسارا بأهل الشام حتى افتتحا مصر، وقتلا ابن أبي بكر، ولم تزل في حيّز معاوية، حتى ظهر».

أما القتال بين محمّد بن أبي بكر وعمرو ابن العاص، فقد لحظه ابن كثير الذي ذكر أيضاً الطريقة التي قتل فيها محمّد بن أبي بكر الصديق. كتب ابن كثير:[3]

«وقام محمّد بن أبي بكر في الناس فخطبهم وحثّهم على الجهاد ومناجزة من قصدهم من أهل الشام. وتقدّم عمرو بن العاص إلى مصر في جيوشه، ومن لحق به من العثمانية المصريين، والجميع في قريب من ستة عشر ألفاً. وركب محمّد بن أبي بكر في ألفي فارس الذين انتدبوا معه من المصريين

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، كزء ٣، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٢٦.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٠١ - ٣٠٢.

وقدم على جيشه بين يديه كنانة بن بشر فجعل لا يلقاه أحد من الشاميين إلاّ قاتلهم حتى يلحقهم مغلوبين إلى عمرو بن العاص. فبعث عمرو بن العاص إليه معاوية بن حديج فجاءه من ورائه وأقبل إليه الشاميون حتى أحاطوا به من كلّ جانب، فترجّل عند ذلك كنانة وهو يتلو ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَبًا مُّؤَجَّلاً﴾.(١) ثمّ قاتل حتى قتل وتفرق أصحاب محمّد بن أبي بكر عنه ورجع يمشي فرأى خربة فأوى إليها ودخل عمرو بن العاص فسطاط مصر. وذهب معاوية بن حديج في طلب محمّد بن أبي بكر فمرّ بعلوج في الطريق فقال لهم: هل مرّ بكم أحد تستنكرونه؟ قالوا: لا! فقال رجل منهم: إني رأيت رجلاً جالساً في هذه الخربة، فقال: هو هو ورب الكعبة. فدخلوا عليه فاستخرجوه منها – وقد كاد يموت عطشاً – فانطلق أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص – وكان قد قدم معه إلى مصر – فقال: أيقتل أخي صبراً؟ فبعث عمرو بن العاص إلى معاوية بن حديج أن يأتيه بمحمّد بن أبي بكر ولا يقتله. فقال معاوية: كلا والله، أيقتلون كنانة بن بشر وأترك محمّد بن أبي بكر، وقد كان ممن قتل عثمان. وقد سألهم عثمان الماء. وقد سألهم محمّد بن أبي بكر أن يسقوه شربة من الماء فقال معاوية: لا سقاني الله إن سقيتك قطرة من الماء أبداً، إنكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائماً محرماً فتلقاه الله بالرحيق المختوم. وقد ذكر ابن جرير وغيره أن محمداً بن أبي بكر نال من معاوية بن حديج هذا ومن عمرو بن العاص ومن معاوية ومن عثمان بن عفان أيضاً. فعند ذلك غضب معاوية بن حديج فقدمه فقتله ثمّ جعله في جيفة حمار فأحرقه بالنار. فلما بلغ ذلك عائشة جزعت عليه جزعاً شديداً وضمت عياله إليها، وكان فيهم ابنه القاسم [وجعلت تدعو على معاوية وعمرو بن العاص دبر الصلوات]».

هكذا قتل محمّد بن أبي بكر الصديق وشقيق عائشة أم المؤمنين وزوجة النبيّ ﷺ في قتال بين الأشقاء دعي عن حق بـ«الفتنة الكبرى».

(١) آل عمران: من الآية ١٤٥.

سابعاً – وقائع الإمام علي مع الخوارج

جرت وقائع عدّة بين الإمام علي والخوارج لخّصها ابن الأثير في تاريخه، فكتب:[1]

«لما قتل أهل النهروان خرج أشرس بن عوف الشيباني على عليّ بالدسكرة في مائتين، ثمّ سار إلى الأنبار فوجّه إليه عليّ الأبرش بن حسان في ثلاثمائة فواقعه فقتل أشرس في ربيع الآخرة سنة ثمان وثلاثين. ثمّ خرج هلال بن علّفة من تيم الرباب ومعه أخوه مجالد فأتى ماسبذان فوجّه إليه عليّ معقل بن قيس الرياحي فقتله وقتل أصحابه وهم أكثر [من] مائتين وكان قتلهم في جمادى الأولى سنة ثمان وثلاثين. ثمّ خرج الأشهب بن بشر – وقيل: الأشعث – وهو من بجيلة في مائة وثمانين رجلاً فأتى المعركة التي أصيب فيها هلال وأصحابه فصلى عليهم ودفن مَنْ قدر عليه منهم. فوجّه إليهم عليّ جارية بن قدامة السعديّ – وقيل: حجر ابن عديّ – فأقبل إليهم الأشهب فاقتتلا بجرجرايا من أرض «جوخى» فقتل الأشهب وأصحابه في جمادى الآخرة سنة ثمان وثلاثين. ثمّ خرج سعيد بن قُفل التيمي من تَيم الله بن ثعلبة في رجب بالبندنيجين ومعه مائتا رجل فأتى درزنجان[2] وهي من المدائن على فرسخين، فخرج إليهم سعد بن مسعود فقتلهم في رجب سنة ثمان وثلاثين. ثمّ خرج أبو مريم السعديّ التميميّ فأتى شهرزور وأكثر مَنْ معه من الموالي – وقيل: لم يكن معه من العرب غير ستة نفر هو أحدهم – واجتمع معه مائتا رجل – وقيل: أربعمائة – وعاد حتى نزل على خمسة فراسخ من الكوفة. فأرسل إليه علي يدعوه إلى بيعته ودخول الكوفة فلم يفعل وقال: ليس بيننا غير الحرب. فبعث إليه عليّ شريح بن هانىء في سبعمائة فحمل الخوارج على شريح وأصحابه فانكشفوا وبقي شريح في مائتي فانحاز إلى قرية فتراجع إليه بعض أصحابه

(1) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٤١ – ٢٤٢.

(2) درزنجان: قرية من قرى الأكاسرة السبعة – قرب بغداد على نهر دجلة.

ودخل الباقون الكوفة. فخرج عليٌ بنفسه وقدّم بين يديه جارية بن قدامة السعديّ فدعاهم جارية إلى طاعة علي وحذرهم القتل فلم يجيبوا. ولحقهم علي أيضاً فدعاهم فأبوا عليه وعلى أصحابه فقتلهم أصحاب عليّ ولم يسلم منهم غير خمسين رجلاً استأمنوا فأمّنهم. وكان في الخوارج أربعون رجلاً جرحى فأمر عليّ بإدخالهم الكوفة ومداواتهم حتى بدأوا. وكان قتْلهم في شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وكانوا من أشجع مَن قاتل من الخوارج ولجرامتهم قاربوا الكوفة».

ثامناً – سرايا أهل الشام إلى بلاد الخليفة علي بن أبي طالب

في السنة التاسعة والثلاثين للهجرة، فرّق معاوية جيوشه في العراق وذلك على الشكل التالي:

– وجّه النعمان بن بشير في ألفي رجل إلى عين التمر فقاتله مالك بن كعب من قبل الإمام علي وانتصر عليه فعاد عن عين التمر.(١)

– وجه معاوية سفيان بن عوف في ستة آلاف رجل إلى «هيت»(٢) والأنبار والمدائن للإيقاع بأهلها. وقد أوقعوا بالأنبار واحتملوا ما فيها في أموال أهلها وعادوا إلى معاوية.(٣)

– وجه معاوية عبدالله بن مسعدة الفرزاري في ألف وسبعماية رجل إلى «تيماء»(٤) وأمره بأن يقتل من يمتنع عن إعطائه صدقة ماله، ثمّ يأتي المدينة ومكّة والحجاز.

أرسل الإمام علي ضدّه المسيب بن نجبة الفزاري في ألفي رجل، فالتقوا بتيماء واقتتلوا قتالاً شديداً فهربت سرية معاوية وعادت إلى الشام.(٥)

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٤٩.

(٢) «هيت»: بلدة على الفرات.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٤٥.

(٤) تيماء: بلدة في أطراف الشام.

(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٠٧.

– وجه معاوية أيضاً الضحّاك بن قيس إلى «واقصة» وأمره بالإغارة على كلّ من مرّ به وهو في طاعة عليّ من الاعراب، وأرسل معه ثلاثة آلاف مقاتل فلما بلغ «القطقطانة»،[1] بعد أن قتل وأغار على مسلحة لعلي، أرسل الخليفة علي حجراً بن عدي في أربعة آلاف، فلحق بالضحاك في تدمر وقتل تسعة عشر رجلاً من جيشه، فهرب هذا الأخير إلى الشام.

– سار معاوية بنفسه حتى شارف دجلة، ثمّ قفل عائداً إلى الشام.

– سيّر معاوية أيضاً عبد الرحمن بن قباث إلى بلاد الجزيرة، فلاقاه كميل بن زياد في ستمائة فارس وانتصر عليه وقتل كثيرين من أهل الشام.

– في المقابل، أغار شبيب بن عامر من نصيبين، من قبل الإمام علي، على بعلبك ونواحي الرقة فاستولى على الماشية والخيل والسلاح.[2]

– بعث معاوية مسلماً بن عقبة المريّ إلى دومة الجندل، وكان أهلها قد امتنعوا عن بيعة علي ومعاوية، فدعاهم إلى بيعة معاوية. أرسل الإمام علي مالكاً بن كعب الهمداني فهزم مسلماً الذي انسحب إلى الشام.

– عين الإمام علي زياداً بن أبيه والياً على كرمان وفارس، وكانت قد اضطرب الأمن فيها، فسار إليها في جمع كثير وأعاد أهلها إلى الطاعة.[3]

– وفي السنة الأربعين للهجرة أرسل معاوية بُسراً بن أبي أرطأة في ثلاثة آلاف مقاتل إلى الحجاز واليمن فدخل بسر المدينة التي فرّ عاملها أبو أيوب إلى الكوفة.[4]

ثمّ سار بسر إلى اليمن وكان عليها عبيد الله بن عباس من قبل الخليفة علي، فهرب إلى الكوفة.

أرسل الإمام علي إلى اليمن جارية بن قدامة السعدي في ألفي رجل ووهباً بن مسعود في ألفين أيضاً، فسارا وقتلا أناساً في

---

(١) القطقطانة: موضع قرب الكوفة.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٤٧.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٥١.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٠٩.

شيعة عثمان فهرب بسر فتبعه جارية إلى مكة حيث أخذ البيعة لعلي.

ونقل ابن الأثير أنه، خلال السنة الأربعين للهجرة، «جرت مهادنة بين علي ومعاوية بعد مكاتبات طويلة على وقف الحرب على أن يكون العراق لعلي والشام لمعاوية على ألاّ يدخل أحدهما بلد الآخر بغارة».(١)

تاسعاً - مقتل الإمام علي

في السنة الأربعين للهجرة قتل الإمام علي أمير المؤمنين وخليفة المسلمين الراشدي الرابع على يد خارجي اسمه «عبد الرحمن بن ملجم».

نقل ابن كثير رواية عن أواخر أيام الإمام علي حين استفحل أمر أهل الشام واضطرب جيش الإمام، فكتب:(٢)

«كان أمير المؤمنين رضي الله عنه قد تنغصت عليه الأمور، واضطرب عليه جيشه وخالفه أهل العراق، ونكلوا عن القيام معه، واستفحل أمر أهل الشام، وصالوا وجالوا يميناً وشمالاً، زاعمين أن الإمرة لمعاوية بمقتضى حكم الحكمين في خلعهما علياً وتولية عمرو بن العاص معاوية عند خلو الإمرة عن أحد. وقد كان أهل الشام بعد التحكلم يسمّون معاوية الأمير، وكلّما ازداد أهل الشام قوة ضعف جأش أهل العراق. هذا وأميرهم علي بن أبي طالب خير أهل الأرض في ذلك الزمان، أعبدهم وأزهدهم وأخشاهم لله عزّ وجل. ومع هذا كلّه خذلوه وتخلّوا عنه حتى كره الحياة وتمنى الموت، وذلك لكثرة الفتن وظهور المحن، فكان يكثر أن يقول: ما يحبس أشقاها، أي ما ينتظر؟ ما له لا يقتل؟ ثم يقول: والله لتخضبن هذه ويشير إلى لحيته من هذه ويشير إلى هامته.

فقال عبدالله بن سبع: والله يا أمير المؤمنين لو أن رجلاً فعل ذلك لأبدنا عترته. فقال: أنشدكم بالله أن لا يقتل غير قاتلي. قالوا: يا أمير المؤمنين ألا تستخلف؟ فقال:

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٥٢.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣١٠ - ٣١١.

لا ولكن أترككم كما ترككم رسول الله. قالوا: فما تقول لربّك إذا لقيته وقد تركتنا هملا؟ قال: أقول اللهم استخلفتني فيهم ما بدا لك ثمّ قبضتني وتركتك فيهم فإن شئت أصلحتهم وإن شئت أفسدتهم».

أما الرواية عن مقتله فقد توافق المؤرّخون عل أن ثلاثة من الخوارج، هم غبد الرحمن بن ملجم المرادي والبُرَك بن عبدالله التميمي وعمرو بن بكر التميمي السعدي، تعاهدوا على أن يقتل الأول الإمام علياً، والثاني معاوية، والثالث عمراً بن العاص ليخلصوا المسلمين من الأزمة التي هم فيها ومن وجود خليفتين لهم.

وقصد كلّ رجل الجهة التي يريد، فتمكّن الأول من الخليفة علي بن أبي طالب ونجا الاثنان الباقيان.

فلما كانت ليلة الجمعة، وهي الليلة التي تواعد ابن ملجم وأصحابه على قتل الثلاثة، أخذ سيفه ومعه رجل من أشجع اسمه «شبيب بن بجرة»، ورجل آخر اسمه «وردان»، وجلس وإياهما مقابل السدّة[1] التي يخرج منه الإمام علي للصلاة. فلما خرج ونادى للصلاة، ضربه شبيب بالسيف فوقع سيفه بعضادة الباب، وضربه ابن ملجم على رأسه بالسيف وقال: «الحكم لله لا لك يا علي ولا لأصحابك».[2]

وبعد أن أصابه سيف ابن ملجم قال الإمام علي: «لا يفوتنّكم الرجل»، فشدّ الناس عليه فأخذوه.

نقل ابن خلدون ما جرى بعد ذلك، فكتب:[3]

«وشدّ الناس على ابن ملجم، واستخلف علي على الصلاة جُعدة بن هُبَيرة وهو ابن أخته أم هانيء فصلّى الغداة بالناس. وأدخل ابن ملجم مكتوفاً على عليّ فقال: إيه عدوّ الله ما حملك على هذا؟ قال شحذته أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شرّ خلقه. فقال أراك مقتولاً به! ثمّ قال إن

---

(١) السدة هي كالظلة عند الباب لتقي الباب من البصر.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٥٦.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١١٣٣ – ١١٣٥.

هلكت فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيت رأيت فيه رأيي. يا بني عبد المطلب لا تُحرِّضوا على دماء المسلمين وتقولوا قتل أمير المؤمنين، لا تقتلوا إلاّ قاتلي.

يا حسن! أنا إن متّ من ضربتي هذه فاضربه بسيفه ولا تمثلنّ بالرجل فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول إيّاكم والمثلة. وقالت أم كلثوم لابن ملجم وهو مكتوف وهي تبكي: أي عدوّ الله لا بأس على أبي والله مخزيك. قال فعلام تبكين؟ والله لقد شريته بألف وصقلته أربعين، ولو كانت هذه الضربة بأهل بلد ما بقي منهم أحد.

وقال جُندب بن عبدالله لعليّ: أنبايع الحسن إن فقدناك؟ قال: ما آمركم به ولا أنهاكم أنتم أبصر. ثمّ دعا الحسن والحسين ووصّاهما قال: أوصيكما بتقوى الله، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شيء زوى منها عنكما. وقولا الحق وارحما اليتيم وأعينا الضائع وكونا للظالم خصماً وللمظلوم ناصراً، واعملا بما في كتاب الله ولا تأخذكما في الله لومة لائم. ثمّ قال لمحمّد بن الحنفيّة: إني أوصيك بمثل ذلك وبتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك، ولا تقطع أمراً دونهما. ثمّ وصّاهما بابن الحنفيّة، ثمّ أعاد على الحسن وصيّته. ولما حضرته الوفاة كتب وصيته العامة ولم ينطق إلاّ بلا إله إلاّ الله حتى قبض.

وأحضر الحسن ابن ملجم فقال له: هل لك البقاء عليّ! وإني قد عاهدت الله أن أقتل عليّاً ومعاوية، وإني عاهدت الله على الوفاء بالعهد فخلّ بيني وبين ذلك، فإن قتلته وبقيت فلك عهد الله أن آتيك. فقال: لا والله حتى تعاين النار، ثمّ قدّمه فقتله».

هكذا قتل الإمام علي فخلا الجو لمعاوية الذي أعلن نفسه خليفة المسلمين واعتمد الشام مركزاً للخلافة. وهذا ما سنفصّله في موضع آخر من هذه الموسوعة.

أما تفاصيل فشل الخارجيين الآخرين في اغتيال معاوية وعمرو بن العاص فننقلها أيضاً عن ابن خلدون إذ كتب:(١)

«وأما البرَك فإنه قصد لمعاوية تلك الليلة، فلما خرج للصلاة ضربه بالسيف في إليته

---

(١) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص ١١٣٥ - ١١٣٦.

وأخذ فقال: عندي بشرى اتنفعني أن أخبرك بها؟ قال نعم! قال إن أخاً لي قتل علياً هذه الليلة. قال: فلعلّه لم يقدر عليه؟ قال: بلى إنّ علياً ليس معه حرس. فأمر به معاوية فقتل. وأُحضر الطبيب فقال: ليس إلاّ الكي أو شربة تقطع منك الوُلد فقال: في يزيد وعبدالله ما تقرّ به عيني، والنار لا صبر لي عليها.

وقد قيل إنه أمر بقطع البُرَك فقطع وأقام إلى أيام زياد فقتله بالبصرة. وعند ذلك اتخذ معاوية المقصورة، وحرس الليل، وقيام الشرط على رأسه إذا سجد. ويقال إن أوّل من اتخذ المقصورة مروان بن الحكم سنة أربع وأربعين حين طعنه اليمانيّ. وأما عمرو ابن بكر فإنّه جلس إلى عمرو بن العاص تلك الليلة فلم يخرج وكان اشتكى فأمر صاحب شرطته خارجة بن أبي حُبيبة بن عامر بن لؤي يصلّي بالناس فشدّ عليه فضربه فقتله، وهو يرى أنه عمرو بن العاص. فلما أخذوه وأدخلوه على عمرو قال: فمن قتلت إذاً؟ قالوا: خارجة، فقال لعمرو بن العاص: والله ما ظننته غيرك! فقال عمرو: أردت عمراً وأراد الله خارجة، وأمر بقتله.

وتوفي عليّ رضي الله عنه، وعلى البصرة عبدالله بن عبّاس، وعلى قضائها أبو الأسود الدؤلي، وعلى فارس زياد بن سميّة، وعلى اليمن عبيدالله بن العبّاس، حتى وقع أمر بسر بن أبي أرطاة، وعلى مكّة والطائف قثم ابن عباس، وعلى المدينة أبو أيوب الأنصاري وقيل سهل بن حنيف».

وبعد وفاة الإمام علي اجتمع أصحابه فبايعوا ابنه الحسن أميراً للمؤمنين، وأول من بايعه كان قيس بن سعد. إلا أن الإمام الحسن عاد وسلّم الخلافة إلى معاوية.(١) وهذا ما سنفصله في جزء لاحق من هذه الموسوعة.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٧١ - ٢٧٤.

ملحق رقم ٤

سيرة قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري

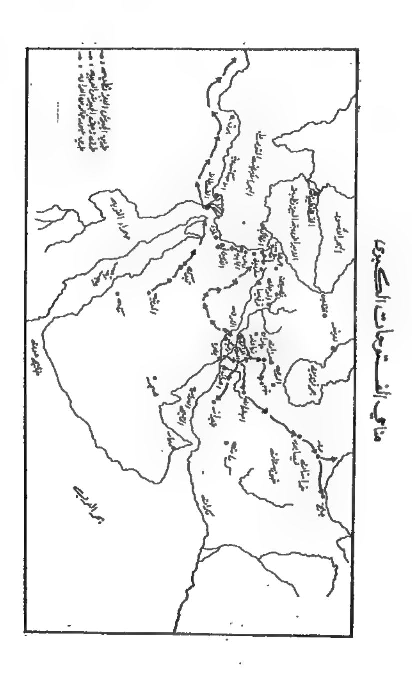
كتب ابن كثير:[١]

«صحابي جليل كأبيه، له في الصحيحين حديث، وهو القيام للجنازة، وله في المسند حديث في صوم عاشوراء، وحديث غسل رسول الله ﷺ في دارهم وغير ذلك. وخدم رسول الله ﷺ عشر سنين، وثبت في صحيح البخاري عن أنس قال: كان قيس بن سعد من النبي ﷺ بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير، وحمل لواء رسول الله ﷺ في بعض الغزوات، واستعمله على الصدقة. ولما بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح ومعه ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، فأصابهم ذلك الجهد الكثير، فنحر لهم قيس بن سعد تسع جزائر، حتى وجدوا تلك الدابّة على سيف البحر فأكلوا منها، وأقاموا عليها شهراً حتى سمنوا. وكان قيس سيداً مطاعاً كريماً ممدحاً شجاعاً، ولاّه عليّ نيابة مصر، وكان يقارن بدهائه وخديعته وسياسته لمعاوية وعمرو بن العاص. ولم يزل معاوية يعمل عليه حتى عزله عليّ عن مصر وولّى عليها محمّد بن أبي بكر الصديق، فاستخفّه معاوية، ولم يزل حتى أخذ منه مصر. وأقام قيس عند عليّ فشهد معه صفين والنهروان ولزمه حتى قتل. ثمّ صار إلى المدينة، فلما اجتمعت الكلمة على معاوية جاءه ليبايعه كما بايعه أصحابه. قال عبد الرزاق عن ابن عيينة قال: قدم قيس بن سعد على معاوية، فقال له معاوية: وأنت يا قيس تلجم عليّ مع من ألجم؟ أما والله لقد

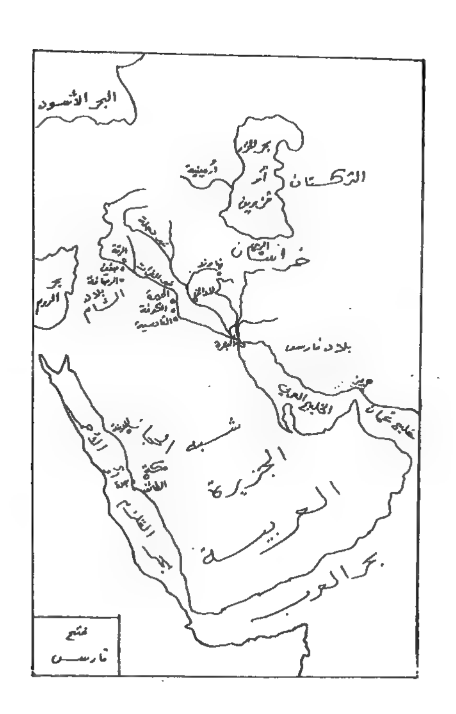
(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٠٥ - ١٠٦.

كنت أحب أن لا تأتيني هذا اليوم إلاّ وقد ظفر بك من أظافري موجع. فقال له قيس: وأنا والله لقد كنت كارهاً أن أقوم في هذا المقام فأحييك بهذه التحيّة. فقال له معاوية: ولم؟ وهل أنت إلاّ حبر من أحبار اليهود؟ فقال له قيس: وأنت يا معاوية كنت صنماً من أصنام الجاهلية، دخلت في الإسلام كارهاً، وخرجت منه طائعاً. فقال معاوية: اللهمّ غفراً، مديدك، فقال له قيس بن سعد: إن شئت زدت وزدت. وقال موسى بن عقبة: قالت عجوز لقيس: أشكو إليك قلّة فأر بيتي، فقال قيس: ما أحسن هذه الكناية!! املؤوا بيتها خبزاً ولحماً وسمناً وتمراً. وقال غيره: كانت له صفحة يدار بها حيث دار، وكان ينادي له مناد: هلمّوا إلى اللحم والثريد. وكان أبوه وجدّه من قبله يفعلان كفعله. وقال عروة بن الزبير: باع قيس بن سعد من معاوية أرضاً بتسعين ألفاً، فقدم المدينة فنادى مناديه: من أراد القرض فليأت، فأقرض منها خمسين ألفاً وأطلق الباقي. ثمّ مرض بعد ذلك فقلّ عواده، فقال لزوجته - قريبة بنت أبي عتيق أخت أبي بكر الصديق - إني أرى قلّة من عادني من مرضي هذا، وإني لأرى ذلك من أجل مالي على الناس من القرض. فبعث إلى كلّ رجل ممن كان له عليه دين بصكّه المكتوب عليه، فوهبهم ماله عليهم. وقيل: إنه أمر مناديه فنادى: من كان لقيس بن سعد عليه دين فهو منه في حلّ، فما أمسى حتى كسرت عتبة بابه من كثرة العوّاد. وكان يقول: اللهم ارزقني مالاً وفعالاً، فإنه لا يصلح الفعال إلاّ بالمال».

مناحي الفتوحات الكبرى

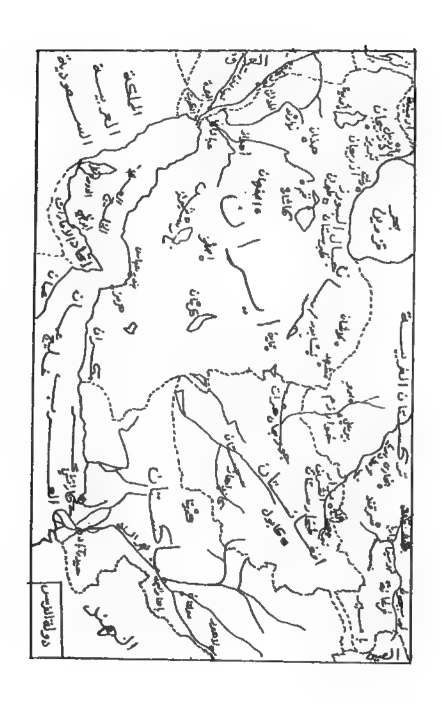


فتح فارس

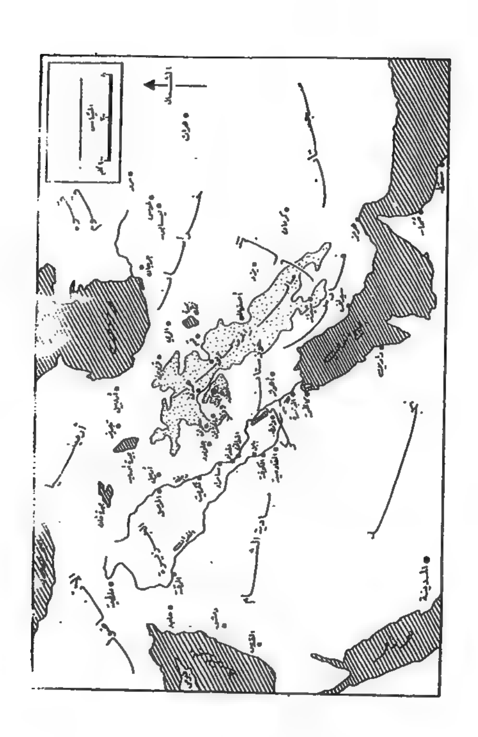


البحر الأسود
أرمينية
الترکستان
بحر الروم
بلاد الشام
بلاد فارس
الخليج العربي
خليج عمان
شبه الجزيرة العربية
مكة
الطائف
بحر العرب
فتح
فارس

دولة الفرس



خارطة العراق وفارس



فهرس الجزء (٦)

الخرائط:

